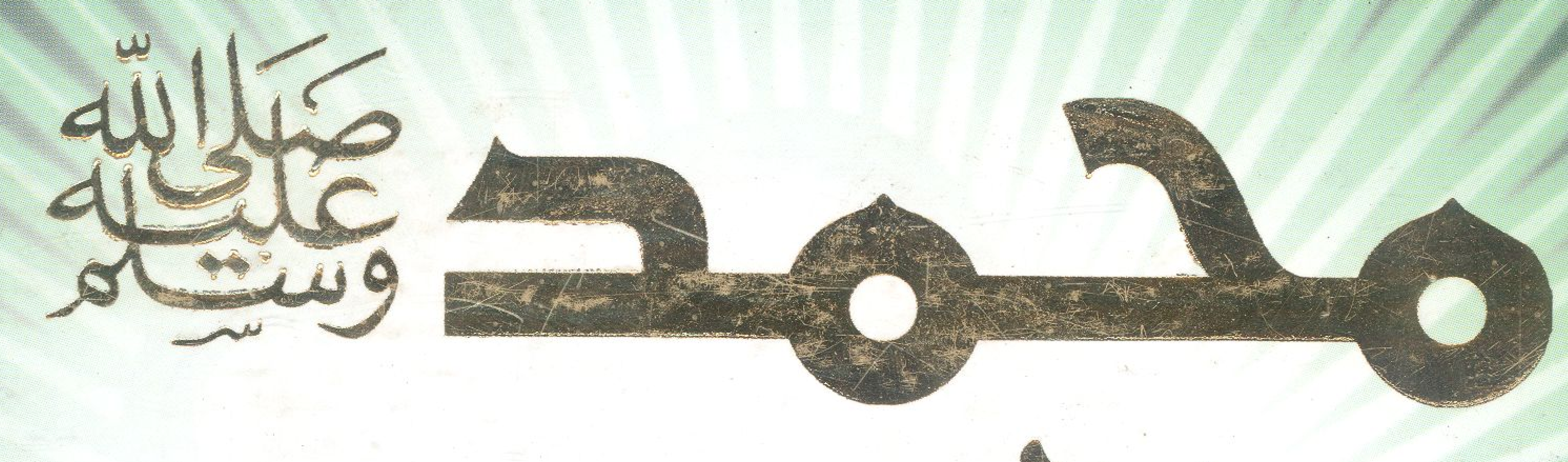
وإنك لعلى خلق عظيم



نبي لزماننا

كارين أرمسترونج

ترجمة : فاتن الزلباني



محمد صلى الله عليه وسلم نبي لزماننا

هذه ترجمة لكتاب:

MUHAMMAD

A Prophet for Our Time

by Karen Armstrong

Printed in the United States of America.
For information, address Harper Collins Publishers, 10 East 53rd Street, New York NY 10022.

الطبعـــة الأولى
١٤٢٩ هـ ـ يناير ٢٠٠٨ م



٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسى - القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٤٥٠١٢٢٨ ـ ٢٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٢٥٦٥٩٣٩ ٢
المكتبة: ٢ شارع البورصة الجديدة - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٣٨٠٧١ ـ ٢٣٩١٣٠٧٢
Email:< shoroukintl@hotmail.com >
<shoroukintl@yahoo.com >

محمد صلى الله عليه وسلم
نبى لزماننا

كارين أرمسترونج

ترجمة: فاتن الزلبانى

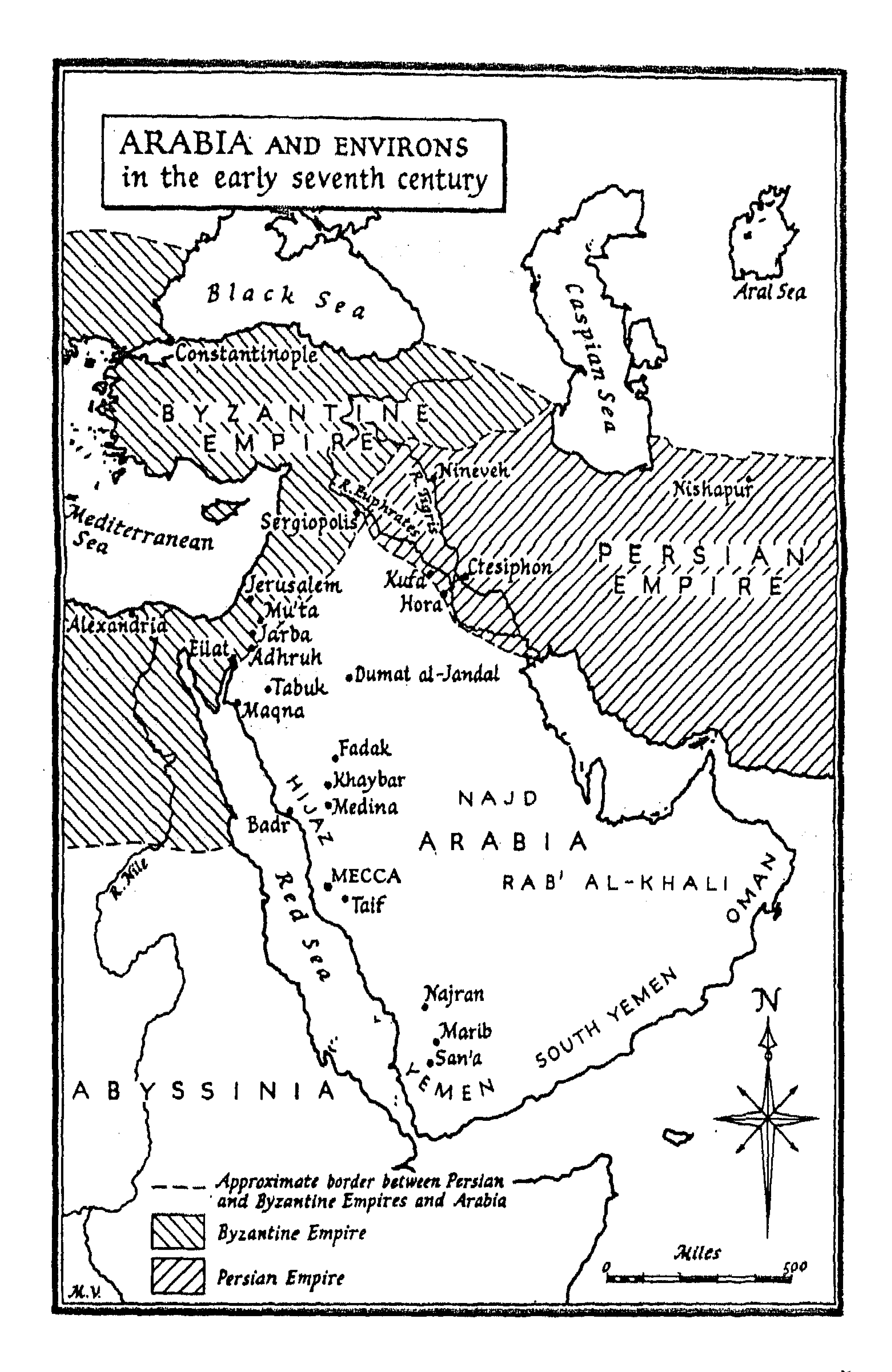


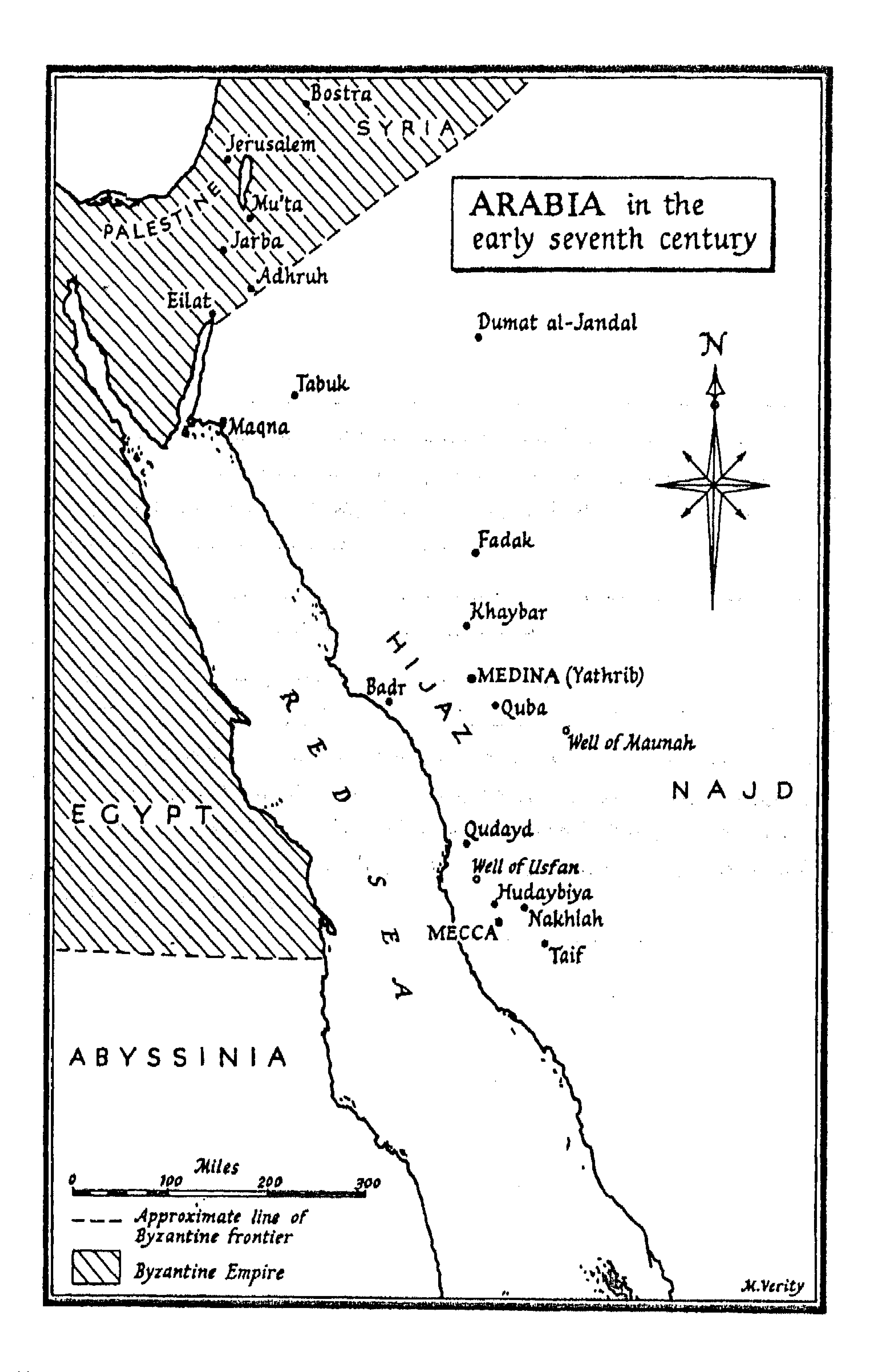
البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

أرمسترونج، كارين
محمد ﷺ نبى لزماننا/ كارين أرمسترونج؛ ترجمة: فاتن الزلبانى.
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨م.
٢١٢ ص؛ ١٧× ٢٤سم.
تدمك: 4 -00-6278-977 -978
١ - السيرة النبوية.
٢ ـ الإسلام ـ تاريخ.
أ ـ الزلبانى، فاتن (مترجم)
ب ـ العنوان ٢٣٩

رقم الإيداع ٢٦٣٩٧ /٢٠٠٧م
الترقيم الدولى I.S.B.N. - 978- 977-6278-00-4

الفهرس


ARABIA AND ENVIRONS
in the early seventh century
Black Sea
Caspian Sea
Aral Sea
Constantinople
BYZANTINE
EMPIRE
Mediterranean Sea
Sergiopolis
R. Euphrates
R. Tigris
Nineveh
Nishapur
PERSIAN
EMPIRE
Ctesiphon
Kufa
Hora
Jerusalem
Mu'ta
Jarba
Alexandria
Eilat
Adhruh
Tabuk
Dumat al-Jandal
Maqna
Fadak
Khaybar
Medina
HIJAZ
Badr
NAJD
ARABIA
MECCA
Taif
RAB' AL-KHALI
OMAN
R. Nile
Red Sea
Najran
Marib
San'a
SOUTH YEMEN
YEMEN
ABYSSINIA
N
Approximate border between Persian and Byzantine Empires and Arabia
Byzantine Empire
Persian Empire
Miles
0
500
M.V.


ARABIA in the early seventh century
Bostra
SYRIA
Jerusalem
PALESTINE
Mu'ta
Jarba
Adhruh
Eilat
Dumat al-Jandal
N
Tabuk
Maqna
Fadak
Khaybar
HIJAZ
MEDINA (Yathrib)
Badr
Quba
Well of Maunah
NAJD
RED SEA
EGYPT
Qudayd
Well of Usfan
Hudaybiya
Nakhlah
MECCA
Taif
ABYSSINIA
Miles
0
100
200
300
Approximate line of Byzantine frontier
Byzantine Empire
M.Verity

جاءت هذه الطبعة العربية للكتاب من ترجمة فاتن الزلباني، وقام بجمع النصوص العربية عبد العزيز النجار وصلاح عويضة وعبد الرحمن أبو العزايم، وقد أبدوا بعض الملاحظات التى تظهر فى هوامش الكتاب، وتمت مراجعة المؤلفة «كارين أرمسترونج» فى العديد من النقاط، فوافقت عليها، وعدلت النص وفقًا لذلك.

وغنى عن الذكر أن هذا لا يعنى أننا نتفق مع المؤلفة فى كل ما قالته، ولكن صوتها وما دتها فى الكتاب تعد من الأكثر إنصافًا للعرب والمسلمين فى عالم الغرب اليوم.

وبالطبع الصلاة والتسليم، بعد كل ذكر للنبى محمد والأنبياء، إضافة من عندنا.

جاء فى كلمة ظهر الغلاف مصطلح «اليهودى العالمى»، هذا المصطلح صكه هنرى فورد - (مؤسس مصانع فورد للسيارات) فى عشرينيات القرن الماضى - عن اليهودى العالمى الذى يريد أن يحكم العالم من نيويورك، ومن القدس، وكتب عن ذلك عدة مقالات فى مجلته «ديربورن إندپندنت»، وتم جمعها فى كتاب بعنوان «اليهودى العالمى»، تم ترجمته إلى اللغة العربية. ونشرته مكتبة الشروق الدولية.

تقديم الناشر

ربما لا تكون هناك شخصية تعرضت للهجوم المنهجى المستمر فى العالم الغربى مثل شخصية النبى محمد (ﷺ). فمنذ نهاية القرن الهجرى الأول، بدأ قسس أوروپا بتصويره تارة بأنه قس منحرف، وتارة بأنه هرطيق تلبَّسه الجن، أو أنه عبد للشهوات الجنسية، يعانى من صرع . . . أو كل ذلك، وما إلى ذلك.

وقالوا عن المسلمين: المحمدانيين، والذين يعبدون الوثن محمداً.

فى القرن الحادى عشر، شنت أوروپا حروبها الصليبية، طوال ثلاثة قرون، لاستعادة الأراضى المقدسة من أيدى الكفار أتراكًا وعربًا، وبعد أن أسالوا دماء المسلمين واليهود، ودماءهم، غادروا المنطقة مخلفين صدعًا كبيراً بين أوروپا الغربية المسيحية والشرق الأوسط المسلم. وسنكتفى فى هذا المقام الضيق بنقل بضعة نصوص من كتاب «تاريخ الحملات الصليبية» - للمؤرخ ستيفن رانسيمان، من منشورات جامعة أكسفورد، وترجمة نور الدين خليل:

- وتدفق الصليبيون عبر البوابتين، ولم يلقوا مقاومة تذكر، وشاركهم اليونانيون والأرمن فى قتل كل تركى يشاهدونه من الرجال والنساء. - ص٣٦٢، الجزء الأول.
- وكان يحق له [الإمبراطور البيزنطى] أن يرى أنه من الأفضل للمسيحيين الأرثوذكس فى فلسطين أن يكونوا تحت حكم الفاطميين المتسامحين من أن يكونوا تحت حكم الفرنج. - ص٤١٤، الجزء الأول.
- . . . واقتحموا المنازل والمساجد [فى القدس] وأخذو فى قتل كل من يقابلهم، الرجال والنساء والأطفال، واستمرت المذبحة طوال ما بعد الظهر وخلال الليل كله . . . وفى باكورة الصباح التالى، اقتحمت جماعة من الصليبيين المسجد، وقتلوا كل من فيه.

وهرب يهود القدس إلى كنيسهم الرئيسى، لكن الصليبيين اعتبروا أنهم قدموا المساعدة إلى المسلمين فلم يظهروا أية رحمة، وأشعلوا النيران فى المبنى، واحترق اليهود كلهم داخله. - ص٤٣٤، ٤٣٥، الجزء الأول.

- [وفى يافا]: . . . . . . هرب من كان قادراً على الفرار من المسلمين واليهود، لكن المذبحة قضت على أغلب السكان. - ص٤٧٥، الجزء الأول.
- [بل أنه] فى معرة النعمان . . . . أكل جيش الصليبيين لحوم البشر، ولم ينكر ذلك إلا صليبى واحد! . - ص٣٩٨، الجزء الأول.

عاد الصليبيون وقد تعلموا الكثير من الشرق(*)، ولكن مع ذلك أنكر التيار الرئيسى فى أوروپا ذلك، واستمر الإنكار حتى اليوم.

وتجسد «الكوميديا الإلهية» لدانتى المفارقات الجديرة بالذكر فى التباين الهائل فى التفاعل بين الشرق الأوسط وأوروپا. دانتى اليجيرى هو شاعر إيطاليا وأوروپا الملحمى، وأحد آباء اللغة الإيطالية الثلاثة، عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر، والربع الأول من الرابع عشر.

يقول عنه حسن عثمان، فى ترجمة كتابه «الكوميديا الإلهية» الذى نشرته دار المعارف عدة طبعات فى ثلاثة أجزاء:

أحد عظماء الرجال فى تاريخ البشرية، ورائد عصر النهضة.

ويقول الدكتور حسين محمود عن كتاب دانتى:

ربما لم يترجم كتاب إلى اللغات الأجنبية - باستثناء الكتاب المقدس - بعدد ترجمات الكوميديا الإلهية. فقد بلغت فى لغات بعينها عشرات المرات، وترجم إلى الإنجليزية ما يقرب من خمسين ترجمة.

(*) هناك كتب كثيرة تناولت ذلك، منها: «شمس العرب تسطع على الغرب»، «الله ليس كذلك»، «الجذور الشرقية فى الحضارة الغربية».

الكتاب عبارة عن أناشيد عن الجحيم، والمُطَهِّر، والفردوس، تزيد عن المائة بقليل، ذيَّل كاتبنا المبهور بدانتى - حسن عثمان - النشيد الثامن والعشرين من الجحيم بعبارة اعتذار رقيقة :

ولقد حذفت من هذه الأنشودة أبياتًا وجدتها غير جديرة بالترجمة.

ماذا تقول تلك الأبيات - غير الجديرة بالترجمة - التى تتكلم عن الوادى التاسع الرهيب فى قاع جهنم؟ :

... ...

مشقوقًا من الذقن إلى حيثما يُصدر الريح

من بين ساقيه تتدلى أحشاؤه

ويظهر القلب وتظهر أمعاؤه

أى براز يصنعه ما يبتلعه

وبينما أرى كل شىء فيه أنذَهِل

ينظر لى وقد شق بيده صدره

قائلاً أنظر كيف اشق نفسى

انظر كيف تشوه محمد

وأمامه أرى عليًا وقد راح يبكى

مفلوق الوجه من الذقن إلى الشعر

وكل من ترى ها هنا

هم زارعو العار والشقاق [ترجمة الدكتور حسين محمود]

... ...

تبقى عن دانتى كلمة أخيرة ... أن دانتى استوحى فكرة «الكوميديا الإلهية» من «مصادر عربية ... كما استوحت أوروپا نهضتها من الشرق، وكما استمدت هيمنتها من مناجم الذهب والفضة وبقية خيرات أمريكا، ومن تسخير سكان أمريكا الأصليين واسترقاق الأفارقة وتسخيرهم للعمل هناك، حتى الموت، ثم تنكرت لذلك.

بنت أوروبا شخصيتها على رفض الآخر، واستباحته، وإذا لزم استئصاله متى تمكنت من ذلك. . . والأمثلة كثيرة من معازل السكان الأصليين، فى استراليا فى أقصى الشرق، إلى الشرق الأوسط وما استرقته فى إفريقيا وعزلته فى جنوبها، وإلى السكان الأصليين لأمريكا فى أقصى الغرب. . .

وعندما تمكنت أوروبا من التكنولوچيا ـ وخاصة الحربية ـ لم تتوان فى الخروج فى حملات عسكرية لاستنزاف العالم شرقه وغربه وجنوبه، بما اصطلح على تسميته الاستعمار.

واحتاج ذلك الاستنزاف البربرى إلى تبرير أيديولوچى أمام شعوبها، سواء كانت مسيحية، تتبع المسيح صاحب دعوة السلام والمحبة والزهد فى الماديات ومتع الدنيا. . .، أو علمانية، تتبع الأفكار التنويرية وحقوق الإنسان، وداروينية البقاء للأصلح، وما إلى ذلك(*). كذلك احتاج ذلك الاستنزاف لدراسة ضحاياه. . . من ناحية الجغرافيا، ومن ناحية الثقافة والفكر، خاصة ما قد يشكل لدى الشعوب عائقًا ضد ذلك الاستنزاف. . . فاشتدت حركات الاستكشاف، والتبشير، والاستشراق. . . الذى قام بالترويج لحمل الرجل الأبيض، ورسالته لنشر الحضارة والقيم، والأخذ بيد العالم المتخلف. . . فصار مؤسسة غربية متزايدة الفتك والشراسة تضع الأيديولوچيا والأساس الأخلاقى والفكرى للعدوان على الغير. . . على أرضه. . وعمله. . . وثقافته. . . وهويته. . . وإذا لزم استئصاله، مع النادر من الاستثناءات. تلك المؤسسة التى استغرقت سنوات من الدراسة لدى إدوارد سعيد، حتى استطاع أن يكتب عنها «الاستشراق ـ المفاهيم الغربية للشرق»:

- أمامنا ثلاثة عوامل، جعلت من تفهم العرب والإسلام حتى فى أبسط الصور الممكنة مسألة مشبعة بالدلالات السياسية عالية النبرة. **الأول** هو تاريخ التعصب الشائع فى الغرب ضد العرب والإسلام، وهذا الذى يتجلى مباشرة من تاريخ الاستشراق، **والثانى** هو الصراع بين العرب والصهيونية الإسرائيلية وتأثير ذلك الصراع فى اليهود الأمريكيين وفى

(*) أرشح للقراءة كتب «الكتاب المقدس والاستعمار» للقس مايك پريور، و«تاريخ نهاية العالم» لجوناثان كيرش، و«الشعب المختار: الأسطورة التى شكلت إنجلترا وأمريكا» لكليفورد لونجلى، وكذلك «الجذور الشرقية للحضارة الغربية» لجون هوبسون.

الثقافة المتحررة [الليبرالية] وفى السكان بصفة عامة، **والثالث** هو الانعدام شبه التام لأى موقف ثقافى يتيح للفرد التعاطف مع العرب أو الإسلام أو مناقشة أيهما مناقشة غير انفعالية . ـ ص٧٨ .

- هذا هو محمد، الدجال الشهير، صاحب ومؤسس البدعة التى اتخذت اسم الدين، وهى التى ندعوها المحمدية . وقد نسب مفسرو القرآن وغيرهم من علماء الشريعة الإسلامية أو المحمدية إلى هذا النبى الزائف جميع الصفات الحميدة التى نسبها الآريوسيون والبوليون وغيرهم من المارقين إلى يسوع المسيح، مع تجريده من ألوهيته . ـ ص١٣٢ . [من معجم ديربيلو بالفرنسية بعنوان ببليوتيك أورينتال، ونشر عام ١٦٩٧م . وظل الببليوتيك المرجع المعتمد فى أوروبا عن الإسلام حتى أوائل القرن التاسع عشر . ـ ص١٢٩ ، ١٣٠] .
- ويشير نابوليون إلى ڤولنى فى تأملاته، فقال : إنَّ ڤولنى كان يعتقد بوجود ثلاثة حواجز أمام الهيمنة الفرنسية على الشرق [تستلزم] ثلاث حروب : **الأولى** ضد إنجلترا، **والثانية** ضد الباب العالى العثمانى، **والثالثة** ـ وهى أصعبها ـ ضد المسلمين . ـ ص ١٥٤ .
- . . . وأخيراً، لأن الاستشراق كان قد اكتمل تحوله الذاتى من خطاب علمى إلى مؤسسة إمبريالية . ـ ص١٧٣ .
- . . . ففى الرواية التى كتبها السير والتر سكوت بعنوان الطلسم (١٨٢٥م)، يكتشف المسيحى أن عدوه المسلم ليس بالسوء الذى تصوره، ومع ذلك يقول له :

  كنت أعتقد حقّا . . . أن سلالتكم العمياء تنحدر من صلب الشيطان الخبيث، ولولا مساعدته لكم ما استطعتم يومًا أن تسيطروا على هذه الأرض المباركة، أرض فلسطين، وتصدوا عنها هذا العدد الهائل من جنود الله البواسل [الصليبيين] . . لكن ما أراه غريبًا ليس انحدارك من صلب رب الشر، بل تفاخرك بذلك . ـ ص ١٨١ ، ١٨٢ .

- وقد كان معنى هذا الواقع العملى أنه حين يقوم الشرقيون بالكفاح ضد

الاحتلال الاستعماري، فعليك أن تقول إن الشرقيين لم يفهموا يومًا ما معنى الحكم الذاتي بالصورة التي نفهمه بها «نحن». وإذا عارض بعض الشرقيين التمييز العنصري، فقل: «إنهم جميعًا شرقيون في أعماقهم» ولا تنطبق عليهم مفاهيم المصالح الطبقية والظروف السياسية والعوامل الاقتصادية إطلاقًا. أو قل مع برنارد لويس: إن الفلسطينيين العرب إذا عارضوا الاستيطان والاحتلال الإسرائيلي لأراضيهم، فإن هذا لا يعدو كونه «عودة الإسلام»، أو كما يقول تعريف مستشرق معاصر شهير: إنه معارضة إسلامية للشعوب غير الإسلامية. - ص ١٩٠ .

- وهكذا يولد الشرق من جديد، في الرؤية التي تمثل ذروة حديث لامارتين، في إطار حق أوروبا في السيطرة عليه، قائلاً:

والهيمنة من هذا اللون، وفقًا لهذا التعريف وطبقًا لتكريسها وتخصيصها باعتبارها حقًا أوروبيًا، تكمن بصفة أساسية في الحق في احتلال منطقة ما، وكذلك السواحل، من أجل تأسيس مدن حرة فيها، أو مستعمرات أوروبية، أو موانئ تجارية تمر عليها السفن بانتظام. . . - ص ٢٨٨ .

- وهكذا، فمن الصحيح - إذن - أن كل أوروبي كان عنصريًا، وإمبرياليًا، ومعتنقًا للمركزية العرقية بصورة شبه كاملة. - ص ٣٢٠، ٣٢١ .
- كان المستشرقون يعملون، ويقدمون الوعود، ويوصون باتخاذ سياسات عامة بناء على تلك التعميمات. . . إذ كانوا يرون أن القضية الرئيسية تنحصر في الحفاظ على سيطرة الرجل الأبيض على الشرق والإسلام. - ص ٣٦٩ .
- فالاستشراق يحكم السياسات الإسرائيلية تجاه العرب على نحو ما يثبته إثباتًا قاطعًا تقرير كونيج الذي نُشر أخيرًا، ونفهم منه أن العرب إما أخيار (وهم الذين يفعلون ما يؤمرون) أو أشرار (وهم من يعصون الأوامر ولذلك فهم إرهابيون). - ص ٤٦٧ .

ويختم إدوارد سعيد كتابه قائلاً:

- وإذا كان لمعرفة الاستشراق أي معنى، فإنه يكمن في كونه تذكيرًا بالتدهور المُغْوِي للمعرفة، أية معرفة، في أي زمان. وربما يصدق هذا على العصر

الحاضر أكثر مما يصدق على الماضى . ـ ص ٤٩٧ [الاستشراق : (إدوارد سعيد) ترجمة محمد عنانى ، سطور] .

ومن الأفكار المهمة ما أورده إدوارد سعيد فى كتابه على لسان مورتيمر جريفز الذى قال :

- . . محاولة الحصول على المطبوعات ذات الشأن بجميع اللغات المهتمة فى الشرق الأدنى والمنشورة منذ عام ١٩٠٠م . وهذه محاولة يجب على الكونجرس [الأمريكى] فى بلدنا الإقرار بها باعتبارها من تدابير أمننا القومى . ـ ص ٤٥٠ .

ويصدق نفس الأمر ، وبدرجة أخطر ، على أمننا نحن القومى ، فالحرب تبدأ فى العقول والقلوب قبل أن تنشب فى ساحات القتال ، وقد راكمت مؤسسات التبشير والاستشراق ، والتعليم والإعلام ، فى ذاكرة العالم الغربى الجماعية صوراً نمطية عن العربى والمسلم ، تبرر الاستعمار القديم ، بكل صوره الدموية ، والاستعمار الجديد ، بكل صوره المالية والثقافية والقانونية ، وبما فى ذلك صور الاستعمار القديم .

فما يقال للرأى العام العالمى ، والغربى ، وبصفة خاصة الأمريكى ، هو خطر حقيقى علينا ، فحكومات الغرب ، والولايات المتحدة بصفة خاصة ، لا تستطيع العدوان على شعب إلا بعد أن تقوم ـ بوسائل إعلامها من قنوات إذاعية وتلفزيونية ، إلى أفلام وكتب وجرائد ومجلات ، وهى خليط من المؤسسات الرأسمالية والإمبريالية والمحافظة ـ سياسيّا ودينيّا ـ والعلمانية ـ أضف لذلك الكنائس اليمينية فى حالة ما يكون ذلك العدو هو العرب والمسلمين ـ بشيطنة ذلك العدو ، وتمثيله بهتلر أو موسولينى ـ وهما من نتاج حضارة أوروبا المسيحية والعلمانية والتنويرية ـ الذى يهدد الحضارة الغربية ، ويوشك على شن الحرب عليها .

ليست الرسومات المسيئة للنبى محمد (ﷺ) أمراً جديداً فى الإعلام الغربى ، وكذلك ليست بالأمر العفوى الخارج عن السياق والمنهج ، وماهى إلا استكمال لما بدأه قساوسة القرن الثامن الميلادى ، وأشعار دانتى ، وأعمال مؤسسة الاستشراق الأوروبية .

أما الدعاة النجوم فى الولايات المتحدة [دعاة شبكات التلفزيون والكنائس الهائلة «Mega Churches» ، والذين يتابع الواحد منهم عشرات الملايين] فقد أعلنوا على العالم :

● الإسلام شر، وشرير.

فرانكلين جراهام (الصغير)، الذى قام بالدعاء فى حفل تنصيب الرئيس جورج بوش.

● محمد لص، قاطع طريق، متعصب.

پات روبرتسون صاحب الإمبراطورية الإعلامية لليمين المسيحى.

● محمد، إرهابى.

چيرى فالويل، زعيم الأغلبية الأخلاقية، والذى نصح نتنياهو عندما كان رئيسًا لوزراء إسرائيل قائلاً: لا تتخل عن شبر واحد من أرض إسرائيل التوراتية. وحذر الرئيس بوش قبل انتخابات ٢٠٠٤م قائلاً: لو تخليت عن شبر واحد من أرض إسرائيل التوراتية، فلن ينتخبك أحد من الإيڤانجليكيين [٣٠ـ ٤٠٪ من المسيحيين فى الولايات المتحدة]. وقد مات القس هذا العام.

ولكل من هؤلاء الدعاة موقعه على النت لمن أراد الاستزادة.

أما القس جيرى ڤاينس، الرئيس السابق للمعمدانيين الجنوبيين [الذى يضم ١٦ مليون عضو] فقال فى مؤتمرهم:

محمد تملكه جن، وهو محب للأطفال...

الله ليس يهوه [الله بالعبرية فى الكتاب المقدس]... يهوه لا يحولك إلى إرهابى لتقتل آلاف الناس.

وامتدح الرئيس بوش ـ فى اليوم التالى مباشرة ـ المعمدانيين على تسامحهم الدينى.

http://www.washingtonpost.com.proxy1.lib.uwo.ca:2048.The Washington Post

وقال جون أشكروفت، النائب العام السابق لجورج بوش: إلهنا أرسل لنا ابنه ليموت فى سبيلنا... أما إله المسلمين، فهو يطلب منهم أن يرسلوا أبناءهم ليموتوا فى سبيله(*).

(*) ويبدو أن السيد أشكروفت راسب فى مادة التاريخ الأمريكى... فقد أرسلت الولايات المتحدة قواتها لتحارب ـ معتدية خارج أراضيها ـ حوالى ٢٠٠ مرة منذ عام ١٩٤٥م، أى بواقع ٣- ٤ مرات/ السنة ـ جورج ڤيدال فى كتابه: حرب مستمرة من أجل سلام مستمر. ـ ص ٢٢- ٤١ . بل إنه حتى لم يقرأ =

ما سبق هو عن التيار الرئيسى والتقليدى فى عالم الغرب، سواء العلمانى ـ وهو الغالب فى أوروبا ـ أو القائم على الثقافة والقيم اليهومسيحية ـ وهو الغالب فى الولايات المتحدة.

ولكن هناك أصوات تخالف ذلك، قليلة ولكنها يمكن أن تزيد، تعمل على تغيير ذلك الفكر ـ ومن ثم ما يترتب عليه من عمل.

ففى الولايات المتحدة، أنشأ ديبلوماسيون سابقون فى الشرق الأوسط مؤسسة باسم: «If Americans know» تحاول تصحيح رؤية الشعب الأمريكى عن الشرق الأوسط، وما يحدث فيه. و أصدر الرئيس الأسبق كارتر كتابًا هامًا يسبح به ضد التيار اسمه «Palestine, Peace Not Apartheid»، كذلك أعد أستاذا العلوم السياسية فى جامعة هارڤارد ـ التى يقود خريجوها العالم ـ وجامعة شيكاجو، ستيفن. إم. وات، وجون. جيه. ميرشايمر، دراسة عن «اللوبى الإسرائيلى فى الولايات المتحدة» مفادها أن ضغوط ذلك اللوبى جعلت سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ليست فى مصلحتها، ولكن فى مصلحة إسرائيل.

بل هناك الفتاة الأمريكية اليهودية راشيل كورى التى كانت فى مقتبل العمر، وذهبت إلى غزة لتعرف ماذا يحدث، فلم تتوان عن استنكار السياسة الإسرائيلية، ووقفت وحدها بجسدها الصغير وروحها ـ التى استشرفت العدل الإلهى فتسامت ـ أمام بلدوزر إسرائيلى يهم بهدم منزل فلسطينى ـ حتى لحقت ببارئها.

لدينا الكثير الذى علينا عمله لتصحيح ـ أنفسنا أولاً ـ وثانيًا تصحيح تلك الصور الأيديولوچية النمطية الخبيثة عن العرب والمسلمين، وحتى ندافع عن أمننا القومى وذواتنا.

= ما قاله الأب المؤسس وثانى رؤساء الولايات المتحدة جون آدمز فى رسالة له بتاريخ ١٨١٦م:
الانحراف [الذى أصاب المسيحية واليهودية] جعل من الديانتين اليهودية والمسيحية أكثر الديانات دموية على الإطلاق ـ الدين والسياسة فى الولايات المتحدة. جـ١، ص٨٢.
بالطبع لم يكن آدمز يعرف حجم الدماء التى أسالتها المسيحية واليهودية فى القرنين التاليين لرسالته.

ولكن حتى نبدأ العمل، يجب أن نبرأ من تأثير التيار الرئيسى فى الإعلام الغربى، ومن الإذعان الاختيارى لضغوط السياسة الغربية.

فنحن الضحية وليس المعتدى. . . . الآن، ومن قبل. . . . وأن نعرف أن ثقافة الغرب - فى معظمها - تئن من التعصب والعنف والعدوان ورفض الآخر. . . وإذا لزم استئصاله، كذلك يئن - معظم - تاريخه وحاضره.

وأولئك الغافلون (أو الغانمون) الذين سارعوا بتغيير مناهج المدارس وخاضوا فيما لا يعرفون من آيات الجهاد فى القرآن، وما إلى ذلك، لو فتحوا العهد القديم، سفر العدد وسفر يشوع على سبيل المثال، لوجدوا الأمر الإلهى بقتل كل الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، وحتى البهائم، أمراً متكرراً عدة مرات. . . وبدون سبب ولا رادع ولا مانع. . . ولوجدوا فى سفر العدد، الإصحاح ٣١ الآيتين ١٧، ١٨ أمر النبى موسى لقواده بأن:

اقتلوا كل ذكر من الأطفال.

واقتلوا أيضًا كل امرأة ضاجعت رجلاً(*).

ويمكنهم أيضًا أن يقرءوا المهر الذى طلبه الملك شاول من النبى داود. . . مائة غلفة من غلف الفلسطينيين. . . فقتل النبى داود مائتين بدلاً من مائة - وقطع أعضاء ذكورتهم، وأهداها للملك مهراً لابنته: . . . فقال شاول لهم: «هذا ما تقولونه لداود: إن الملك لا يطمع فى مهر، بل فى مئة غلفة من غلف الفلسطينيين، انتقامًا من أعداء الملك». قال هذا ظنّا منه أن يوقع داود فى أسر الفلسطينيين. فأبلغ عبيد شاول داود بمطلب الملك، فراقه الأمر، ولا سيما فكرة مصاهرة الملك. وقبل أن تنتهى المهلة المعطاة له، انطلق مع رجاله وقتل مئتى رجل من الفلسطينيين، وأتى بغلفهم وقدمها كاملة لتكون مهراً لمصاهرة الملك. فزوجه شاول عندئذ من ابنته ميكال - سفر صموئيل الأول الإصحاح ١٨: زواج داود من ميكال: الآيات ٢٥ - ٢٧.

ولو تصفحنا العهد الجديد، لوجدنا كل الأناجيل تدعو للسلام والمحبة واجتناب الماديات الدنيوية، ولكن للأسف الشديد، بنى العالم المسيحى الغربى من سفر رؤيا

(*) ومن مثل هذا النص، يقوم التبرير الأيديولوچى لقتل إسرائيل أسراها من الجنود المصريين والعرب.

يوحنا، وهو حلم مليء بالرموز، أسطورة عن نهاية العالم وضرورة قيام حرب دموية فى هرمجدون - رأى مفسروها من اليمين المسيحى فى أمريكا أنها حرب نووية يموت فيها مئات الملايين - حتى يهبط المسيح ثانيًا ليعيش العالم المسيحى فى سلام، على دماء ثلث البشرية، فى أحد التأويلات الغربية.

ولم نسمع عن أحد فى الشرق يحذر من ذلك أو يطالب بتغييره(*)!

لقد تنبهت كارين أرمسترونج فى أوائل التسعينيات لخطورة ما يروجه الإعلام الغربى على نبى الإسلام ومن ثم على المسلمين، ويبدو أنها خشت أن يكون ذلك تمهيدًا لمغامرة عسكرية جديدة.. فوضعت كتابها الأول عن شخصية النبى محمد (ﷺ).

وبعد أحداث ١١/ ٩ المأساوية، رأت أنها فى حاجة لعمل كتاب آخر، لما يبدو أنها خشته من شرور جديدة بين الغرب المسيحى واليهودى والعلمانى، والإسلام. جاء كتابها الجديد «محمد نبى لزماننا» ليذكر الجميع، فى الشرق وفى الغرب، بأنهم فى حاجة لتفكير جديد غير تقليدى، ليتعايشوا معًا، ورأت فى شخصية نبى الإسلام نموذجًا يهدى العالم فى زماننا للحلول المبتكرة التى يستلزمها الوصول للسلام.

وكما ساهمت أرمسترونج بما تستطيعه، وهو الكتابة، أليس لدينا نحن ما نستطيعه؟

بالطبع لن نبدأ العمل بدون إيمان بهويتنا وبقضيتنا...

ولن نستطيع ذلك ونحن نعيش فى ظلمات الجهل المركب والنفاق والانتهازية، فى صحرائنا الفكرية الجرداء، الخاوية والمستبدة، والتى تفكك إرادتنا وأوصالنا.

عادل المعلم

ديسمبر ٢٠٠٧م

(*) صدرت عشرات الكتب فى الولايات المتحدة عن حرب نهاية الزمان «هرمجدون» بإجمالى توزيع يزيد على مائة مليون نسخة، وصدر منها طبعات للناشئين، وبالطبع أفلام سينمائية.

مقدمة

تاريخ التقاليد الدينية هو حوار مستمر بين الحقيقة السامية والأحداث الجارية فى عالم الأرض. يدقق المخلصون فى الماضى المقدس بحثًا عن الدروس التى تخاطب أحوالهم فى حياتهم اليومية. لكل دين - فى معظم الأديان - شخصية رئيسية تعبر عن مثاليات الإيمان فى صورة بشرية.

يتأمل البوذيون فى صفاء بوذا فى حالة النيرڤانا(*) الحقيقة العليا التى يتطلعون إليها، بينما يرى المسيحيون فى المسيح الحضور المقدس كقوة للخير والحب فى العالم. تسطع هذه الشخصيات النموذجية بالنور على الأحوال المظلمة فى عالمنا الخطاء - التى يبحث معظمنا الخلاص منها - وتخبرنا ما يمكن للإنسان أن يكون عليه.

لقد فهم المسلمون ذلك دائمًا، حيث كلفهم القرآن برسالة: هى بناء مجتمع عادل وكريم، يعامل كل فرد باحترام، لذلك كان الصلاح السياسى للمجتمع المسلم، وما زال، أمرًا ذا أهمية عليا.

مثاليات أى دين، يصعب - بما يقترب من الاستحالة - تحقيقها، ولكن بعد كل إخفاق، حاول المسلمون النهوض والبداية من جديد. وتشهد الشعائر والفلسفات والمذاهب والنصوص الدينية والأضرحة العديدة، على النقد الذاتى المهموم والمتكرر فى معالجة الأحداث السياسية فى المجتمع الإسلامى.

جسدت حياة النبى (ﷺ) (٥٣ ق. هـ إلى ١١ هـ/ ٥٧٠ إلى ٦٣٢م) المثالية الإسلامية قديمًا وحديثًا، حيث تكشف سيرته ما غمض من تدبير الله لشئون العالم، وتصور التسليم الكامل لله، والذى يجب على كل إنسان السعى لتحقيقه. جاهد

(*) النيرڤانا: السعادة القصوى التى تتخطى الألم، والتى تلتمسها البوذية فى قتل شهوات النفس.

المسلمون منذ البداية، خلال حياة النبى (ﷺ)، لفهم حياته وتطبيقها على حياتهم. بعد أكثر قليلا من مائة سنة من وفاته، حين أخذ الإسلام فى الانتشار فى أقاليم جديدة واكتساب مسلمين جدد، بدأ علماء المسلمين فى جمع أقوال وأفعال النبى محمد (ﷺ) وتقريراته، أى الحديث والسنة، التى تبين أساس الشريعة الإسلامية، وتعلم المسلمين طريقة حياة النبى (ﷺ): كيف يتكلم، ويأكل، ويحب، ويغتسل، ويتعبد، وكيف مارس أدق تفاصيل حياته على الأرض، على أمل أن يصلوا مثله إلى التسليم الكامل لله.

تقريبًافى القرنين الثامن والتاسع ميلاديًا، أى الثانى والثالث هجريًا، بدأت كتابة التاريخ الإسلامى على أيدى كل من: محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ/ ٧٦٨م)، محمد بن عمر الواقدى (١٣٠ ـ ٢٠٧هـ/ ٧٤٧ ـ ٨٢٢م)، محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م). لم يعتمد هؤلاء المؤرخون على ذاكراتهم وانطباعاتهم فقط، ولكنهم حاولوا بجدية هيكلة بناء تاريخى، ورجعوا إلى وثائق وكتابات سابقة فى رواياتهم، وأسندوا الروايات الشفوية إلى مصادرها الأصلية. وبرغم توقيرهم لمحمد (ﷺ) كرجل الله، إلا أنهم لم يتجنبوا النقد والتمحيص فى عملهم، ولحد كبير، كنتيجة لمجهوداتهم، أصبحنا نعرف عن محمد (ﷺ) أكثر مما نعرف عن مؤسسى الديانات الرئيسية، وأصبحت هذا المصادر الأولى لا غنى عنها لأى كاتب لسيرة النبى (ﷺ)، وسيتم الرجوع إليها تكرارًا فى هذا الكتاب.

قد لا ترضى أعمال المؤرخين الأوائل مؤرخى اليوم، فقد كانوا رجال عصرهم، وغالبًا ما تضمنت رواياتهم معجزات وأساطير يمكن تأويلها بطريقة مختلفة اليوم. ولكنهم كانوا مدركين لتعقيد موادهم، ولم يكونوا متحيزين لنظرية أو قراءة للأحداث على حساب أخرى. وكانوا أحيانا يضعون روايتين مختلفتين تمامًا بجانب بعضهما البعض، ويضعون لكل منهما أسانيدها، حتى يمكن للقراء تكوين آرائهم الشخصية.

أحيانًا لم يسلموا بصحة الروايات المتاحة لهم، وحاولوا رواية قصة نبيهم (ﷺ) بأعلى ما فى وسعهم من أمانة وصحة.

كانت هناك فجوات فى رواياتهم، فنحن لا نعرف شيئًا ـ تقريبًا ـ عن حياة محمد (ﷺ) الأولى قبل أن يتلقى ما اعتقد أنه وحى من الله وهو فى عمر الأربعين. ثمت أساطير دينية عن ولادة محمد (ﷺ) وطفولته وشبابه، ولكن قيمتها الرمزية تتجاوز بوضوح قيمتها التاريخية.

وتتوافر أيضا مادة تاريخية قليلة عن حياة محمد (ﷺ) السياسية الأولى فى مكة، كان فى تلك الفترة شخصية مغمورة نسبيًا، ولم يجد أحد جدوى من ملاحظة نشاطاته. مصدرنا الرئيسى للمعلومات هو القرآن الذى قرأه على العرب.

لمدة ٢٣ عامًا تقريبًا، منذ (١٣ ق. هـ/ ٦١٠م) إلى وفاته فى (١١ هـ/ ٦٣٢م)، رأى محمد (ﷺ) أنه تلقى رسالات مباشرة من الله، جُمعت فى القرآن. لم يشمل القرآن ـ بالطبع ـ رواية عن حياة محمد (ﷺ)، ونزل عليه تدريجيًا سطرًا بسطر، آية بآية، سورة بسورة. كان الوحى أحيانًا يتعامل مع حادثة معينة فى مكة أو المدينة.

أجاب الله فى القرآن على نقاد محمد (ﷺ)، حيث عرض وجهات نظرهم، وشرح بالتفصيل أهمية معركة أو صراع داخل المجتمع. كلما نزلت مجموعة من الآيات إلى محمد (ﷺ)، حفظها المسلمون عن ظهر قلب، وكتبها المتعلمون. وانتهى أول جمع رسمى للقرآن عام (٣٠ هـ/ ٦٥٠م) تقريبًا، بعد وفاة الرسول بحوالى عشرين عامًا، وحصل على وضع قانونى معترف به بين المسلمين(*).

القرآن هو كلمة الله المقدسة، ومرجعيته بقيت مطلقة، ولكن يعرف المسلمون أنه ليس من السهل دائمًا تفسيره، فقد جاءت أحكامه فى زمن مجتمع صغير، ولكن بعد قرن من وفاة النبى (ﷺ) حكم المسلمون إمبراطورية واسعة، امتدت من جبال الهيمالايا إلى جبال البيرنيه [سلسلة جبال جنوب غرب أوروپا فى إسپانيا وفرنسا]. أصبحت ظروف حياتهم مختلفة تمامًا عن حياة النبى (ﷺ) والمسلمين الأوائل، لذا كان على فهم الإسلام أن يتجدد ويتوائم. كتبت أولى المقالات فى التاريخ الإسلامى لمخاطبة الارتباكات الناشئة. كيف يمكن للمسلمين تطبيق رؤية النبى (ﷺ) وممارساته فى أزمنتهم المتتالية؟

(*) تم أول جمع مكتوب للقرآن فى خلافة أبى بكر، بعد وفاة النبى ﷺ بأقل من سنتين، وذكر الكاتبة أن ذلك الجمع حصل على وضع قانونى بين المسلمين، يأتى من خلفية دراستها لمسألة أى أسفار الكتاب المقدس اعتبرها اليهود والمسيحيون قانونية، وأى أسفار استبعدوها، أو اختلفوا عليها.

حاول كتاب السيرة الأوائل عند روايتهم قصة حياته، أن يفسروا بعض آيات أو فقرات القرآن بتناول السياق التاريخى لنزول الوحى بها. بمعرفة أسباب نزول تعليم قرآنى معين، يمكن للفقهاء قياس ماذا عليهم أن يفعلوا فى أزمنتهم المتعاقبة. اعتقد هؤلاء الكتاب والمفكرون أن معرفة كفاح النبى (ﷺ) لجعل كلمة الله مسموعة فى القرن الأول هجريًا / السابع ميلاديًا، تساعدهم على احتفاظهم بهذه الروح نفسها فى كفاحهم الشخصى، فى أى زمان ومكان.

منذ البداية، لم تكن الكتابة عن النبى محمد (ﷺ) مجرد حرفة تاريخية أو أثرية، واستمرت كذلك حتى اليوم. بنى بغض الأصوليين المسلمين أفكارهم القتالية على حياة محمد (ﷺ)، حيث اعتقد بعض المتطرفين المسلمين أنه سوف يغفر ويعجب بفظائعهم، ويشعر المسلمون الآخرون بالرعب من ادعاءاتهم هذه، ويشيرون إلى التعددية الواسعة فى القرآن والتى تدين العنف، وترى أن كل الأديان الراشدة نبعت من إله واحد.

ولدينا فى الثقافة الغربية تاريخ طويل من الرعب من الإسلام (إسلاموفوبيا) يرجع لأيام الصليبيين. فقدصمم رهبان مسيحيون من أوروبا فى القرن الثانى عشر على أن الإسلام دين عنف انتشر بالسيف، وأن محمداً (ﷺ) كان دجالاً فرض دينه على العالم الرافض بقوة السلاح، وكانوا يسمونه فاسقًا ومنحرفًا جنسيًا. أصبحت هذه القصة المشوهة عن حياة النبى (ﷺ) واحدة من الصور النمطية المقبولة فى الغرب، وكان من الصعب على الغربيين رؤية محمد (ﷺ) فى ضوء أكثر موضوعية. ومنذ تدمير مبنى مركز التجارة العالمى فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، استمر أعضاء من اليمين المسيحى فى الولايات المتحدة وبعض قطاعات وسائل الإعلام الغربية، فى هذا العداء التقليدى، مدعين أنه مدمن للحرب بطريقة لا يمكن شفاؤها، وبعضهم تمادى وادعى أنه كان إرهابيًا ومحبًا للأطفال جنسيًا.

لا يمكننا أن نتحمل إطلاق العنان لهذا النوع من التعصب الأعمى؛ لأننا بذلك نقدم هدية للمتعصبين الذين يستخدمون هذه الأقاويل لإثبات أن الغرب فى حرب صليبية جديدة ضد العالم الإسلامى. لم يكن محمد (ﷺ) قط رجل عنف، لا بد أن نقترب من حياته بطريقة متوازنة حتى نستطيع تقدير إنجازاته المعتبرة. إن تكريس هذا

الإجحاف غير الدقيق يدمر التسامح والتحرر والعاطفة التى يفترض أنها تشخص الحضارة الغربية .

لقد اقتنعت بهذا منذ خمس عشرة سنة ماضية بعد فتوى آية الله الخمينى بقتل سلمان رشدى وناشريه ، بسبب ما رأى أنه تجديف على محمد (ﷺ) فى كتابه : آيات شيطانية . لقد اشمأززت من هذه الفتوى ، واعتقدت أنه من حق رشدى أن ينشر ما يختاره ، ولكننى كنت منزعجة من طريقة محاولة بعض مساندى حرية رشدى تحويل القضية من شجب الفتوى إلى إدانة للإسلام نفسه ، لا تقوم على حقائق . يبدو أنه من الخطأ الدفاع عن مبدأ ليبرالى بإحياء تعصب القرون الوسطى ، وبدا أننا لم نتعلم شيئًا من مأساة ثلاثينيات القرن العشرين عندما مكن هذا النوع من التعصب هتلر أن يقتل ٦ ملايين يهودى ، ولكنى أدركت أن كثيرًا من الغربيين لم تكن عندهم فرصة لمراجعة انطباعهم عن محمد (ﷺ) ، لذلك قررت أن أكتب رواية شعبية مبسطة عن حياته ، لتحدى وجهة النظر [الغربية] الراسخة عنه . كانت النتيجة هى كتاب «محمد (ﷺ) : سيرة النبى» ، الذى تم نشره للمرة الأولى فى ١٩٩١م . ولكن على أثر ١١ سبتمبر ، فإننا نحتاج للتركيز على جوانب أخرى من حياة محمد (ﷺ) ، لذلك فإن هذا كتاب جديد تمامًا ومختلف كلية ، أرجو أن يتحدث مباشرة عن الحقائق المرعبة لعالم ما بعد ١١ سبتمبر .

فى شخصية محمد (ﷺ) النموذجية ، دروس مهمة ، ليس فقط للمسلمين ، ولكن أيضًا للغربيين ، حيث كانت حياته كلها جهادًا كما سوف نرى ، وهذه الكلمة لا تعنى الحرب المقدسة ، ولكنها تعنى كفاحًا . كدح محمد (ﷺ) - بكل معانى الكلمة - ليجلب السلام على العرب الذين مزقتهم الحروب ، ونحن نحتاج لمن هم مستعدون لعمل ذلك اليوم . كانت حياته حملة لا تكل ضد الطمع والظلم والتكبر . لقد أدرك أن العرب فى مفترق طرق وأن طريقة التفكير السابقة لم تعد تنفع ، لذلك بذل نفسه فى جهاد مبتكر لينشئ حلاً جديدًا تمامًا . لقد دخلنا تقويمًا تاريخيًا جديدًا فى ١١ سبتمبر ، ولا بد أن نكافح بمستوى مماثل لتطوير وجهة نظر مختلفة .

من الغرابة أن الأحداث التى جرت فى شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع، بها الكثير الذى نتعلم منه كيف نواجه الأحداث التى تجرى فى وقتنا هذا، وأهميتها التأسيسية، أكثر كثيراً من التعليقات الصوتية للسياسيين.

لم يحاول محمد (ﷺ) أن يفرض معتقداً دينيّا تقليديّا - إنه لم يكن مسرفًا فى الاهتمام بما وراء الطبيعة [الميتافيزيقا] - ولكن اهتمامه الأكبر كان تغيير قلوب وعقول الناس. كان يطلق على الروح السائدة فى ذلك الوقت الجاهلية. عادة ما فهم المسلمون مقصوده بأنه «زمن الجهل» وهى فترة ما قبل الإسلام فى شبه الجزيرة العربية، ولكن كما أظهرت أبحاث حديثة، محمد (ﷺ) لم يستخدم لفظ الجاهلية ليشير إلى زمن تاريخى، وإنما إلى حالة من العقل التى تسبب العنف والإرهاب، فى القرن السابع فى الجزيرة العربية. إنى أحاجج أن هناك دليلاً كبيراً على أن الجاهلية تعيش فى الغرب اليوم، كما تعيش فى العالم الإسلامى.

من المفارقات أن أصبح محمد (ﷺ) شخصية مجاوزة للزمان؛ لأنه كان مرتبطًا جذريّا بزمنه. لا يمكننا فهم إنجازاته إذا لم نقدر ما كان يعمل ضده. وحتى يمكننا فهم ما يمكن أن يقدمه لمأزقنا، لا بد أن ندخل العالم المأساوى الذى جعله نبيّا منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وهو على قمة جبل خارج المدينة المقدسة مكة.

***

الفصل الأول

مكـــة

بعد ذلك، وجد أنه من المستحيل تقريبًا أن يصف التجربة التى جعلته يهبط فى اضطراب من الجبل إلى زوجته خديجة، فقد بدا له أن وجود طاغ انبعث داخل الكهف الذى كان يأوى إليه، واحتضنه بعناق شديد كأنه يعتصر أنفاسه. وفى هذا الرعب، لم يظن محمد (ﷺ) إلا أن أحد الجن هاجمه، تلك الأرواح النارية فى بلاد العرب، والتى كانت كثيراً ما تضلل المسافرين عن الطريق الصواب، كما كانت الجن أيضًا تلهم الشعراء والعرافين فى الجزيرة العربية.

ولقد وصف أحد الشعراء كيف يباغته جنى الشعر فجأة بدون مقدمات، فيلقى به أرضًا، ويخرج أبيات الشعر من فمه. لذلك عندما سمع محمد (ﷺ) الأمر المقتضب «اقرأ»، افترض فوراً أن أحد الجن تملكه، فأجابه: «ما أنا بقارئ»، ولكن مهاجمه اعتصره مرة أخرى حتى ظن أنه لن يستطيع تحمله، حينئذ سمع أول كلمات القرآن تخرج منسابة تلقائيًا من فمه[1].

لقد شاهد (ﷺ) هذه الرؤيا فى شهر رمضان قبل الهجرة بثلاثة عشر عامًا / ٦١٠م تقريبًا. وقد سماها القرآن فيما بعد «ليلة القدر»، لأنها جعلت منه رسول الله، الإله الأعلى فى الجزيرة العربية، ولكنه فى ذلك الوقت، لم يكن يدرك ما يحدث. كان فى الأربعين من عمره، رجل عائلة وتاجر محترم فى مكة، المدينة التجارية المزدهرة فى الحجاز. وقد كان يعرف ـ مثل معظم العرب ـ قصص نوح، ولوط، وإبراهيم، وموسى، وعيسى (صلى الله عليهم وسلم)، وكان يعرف أن بعض الناس

يتوقعون الظهور الوشيك لنبى من العرب، ولكن لم يتوقع أن يعهد له بهذه المهمة. فى الواقع، كان مملوءاً باليأس وهو يهرب من الغار ويجرى لأسفل جبل حراء. كيف سمح الله أن يتملكه الجن؟ كان للجن نزوات، وكانت لهم سمعة رديئة، ولا يوثق بهم لأنهم كانوا سعداء بتضليل الناس. كان الوضع خطيراً فى مكة. لم تكن قبيلته تحتاج لقيادة خطيرة من الجن، لأنها كانت تحتاج لتدخل مباشر من الله، الذى كان له كنه بعيد فى الماضى، والذى اعتقد كثير من الناس أنه نفس الله الذى يعبده اليهود والمسيحيون.

لقد بلغت مكة مؤخراً نجاحًا مذهلاً، حيث أصبحت المدينة مركز تجارة دوليًا، وأصاب تجارها ومولوها ثراءً لم يحلموا به، فقد كان أسلافهم القريبون يعيشون حياة بائسة يائسة فى الصحارى العنيدة فى شمال الجزيرة العربية. كان نجاحهم غير عادى، لأن معظم العرب كانوا بدواً لا يستقرون فى المدن. عاش الناس على التجوال من مكان لآخر بحثًا عن الماء وأرض للرعى، فى الصحراء القاحلة. كان هناك القليل من الواحات الزراعية فى المرتفعات مثل الطائف، التى كانت تمد مكة بمعظم طعامها، ويثرب التى تبعد حوالى ٢٥٠ ميلاً شمالاً. كانت حياة الزراعة، ومن ثم الحضر المستقرة، مستحيلة فى سهول الصحراء الخالية من الماء، وتشبث البدو بحياتهم العجفاء عن طريق رعى الخراف والماعز، وتربية الجمال والخيول، وعاشوا فى مجموعات قبلية متشابكة، حياة كفاح قاسية وشرسة بسبب تنافس الكثير منهم على مصادر عيش قليلة، لذلك كانوا دائمًا جوعى وعلى حافة المجاعة، ولذلك نشبت بين القبائل حروب لا نهاية لها على الماء وأرض الرعى، وتبعًا لذلك كان الغزو ضروريًا للاقتصاد البدوى(*).

عادة ما كانت القبائل فى وقت الحاجة تغزو المناطق المجاورة على أمل سلب الجمال والماشية أو العبيد، وكانت حريصة على عدم قتل أحد لأن القتل قد يؤدى إلى الثأر.

(*) كان الغزو، واستلاب مال الغير، وأرضه، بل وحياته إذا لزم، ظاهرة بشرية لم تتوقف حتى اليوم، ويتفوق فى ذلك تاريخ الاستعمار الغربى منذ ما يُسمى الكشوف والنهضة الأوروبية فى نهاية القرن الخامس عشر، مروراً بقرون الاستعمار التقليدى ـ الثامن عشر إلى العشرين ـ وبالحربين المدمرتين فى القرن العشرين، والمعروفتين بالحربين العالميتين، إلى الغزو الذى تقوده أمريكا لأفغانستان والعراق، وقبيله الغزو اليهودى لفلسطين وللبلاد العربية. أما الجديد فى الأمر، خاصة فى الغزوات الاستعمارية الغربية الحديثة، فهو ادعاء أنها لنشر الحضارة والقيم الغربية تارة، وأنها للدفاع عن النفس تارة أخرى، مع ادعاء شرعية تلك الجرائم.

ولم يكن أحد يرى الغزو أمرًا يستحق الشجب. كان الغزو حقيقة من حقائق الحياة، ولم يكن وراءه البغض السياسى أو الشخصى، بل كان نوعًا من الرياضة القومية تمارس بمهارة، وفقًا لقواعد محددة بوضوح. كان وسيلة ضرورية فجة لإعادة توزيع الثروة فى منطقة لم يكن فيها الكفاية مما يحتاجه السكان.

وعلى الرغم من أن أهل مكة تركوا حياة البداوة، فإنهم ظلوا ينظرون للبدو على أنهم حراس للثقافة العربية الأصيلة. أرسل محمد (ﷺ) فى طفولته ليعيش فى الصحراء مع قبيلة مرضعته ليتشرب الحياة البدوية، وكان لهذا أثر عميق فى نفسه. لم يكن البدو مهتمين بالأديان التقليدية، ولم يكن عندهم أمل فى الحياة بعد الموت، وكانت ثقتهم قليلة فى آلهتهم، التى بدت عديمة الفائدة فى تحسين بيئتهم القاسية. كانت القبيلة ـ ليس الإله ـ القيمة الأعلى، فقد كان كل فرد يخضع احتياجاته ورغباته الشخصية لمصلحة المجموعة، ويقاتل للموت إذا لزم ليضمن بقاءها. لم يكن لدى العرب وقت للتخمين فى القوى الخارقة وما وراء الطبيعة، وكانوا يركزون على عالمهم الأرضى، كما لم يكن للخيال فائدة فى الصحارى الخالية من الشجر، إذ كانوا يحتاجون واقعية نفعية معتدلة. ولكنهم طوروا قواعد للشهامة، قدمت لهم الوظيفة الرئيسية للدين بأن جعلت لحياتهم معنى، وحفظتهم من الاستسلام لليأس فى ظروفهم الصعبة، وأطلقوا عليها المروءة. والمروءة تعنى الشجاعة، والصبر والجَلَد، وتشمل تكريسًا كاملاً للنفس للأخذ بالثأر من أى اعتداء يقع على المجموعة، ولحماية الضعفاء، ولقهر الأعداء للحفاظ على شرف القبيلة. كان على كل فرد أن يكون مستعدًا للدفاع عن عشيرته فور الحاجة لذلك، وأن يطيع قائده بدون سؤال. وفوق كل هذا، لابد أن يكون رجل القبيلة كريمًا ومستعدًا لأن يشاركه الآخرون ماشيته وطعامه. تستحيل الحياة فى الصحارى إذا ادخر أناس ثرواتهم بأنانية وتركوا الآخرين جوعى. والقبيلة الغنية اليوم قد تصبح معدمة غدًا، وإذا كنت بخيلاً فى أيامك الطيبة، فمن ذا الذى يساعدك فى أيامك الصعبة؟. استخرجت المروءة فضيلة من هذه الضرورة، فشجعت الكريم على ألا يهتم كثيرًا بالرفاهية المادية حتى لا يصاب بالقنوط عند حياة الحرمان. لم يكن البدوى النبيل حقًا يبالى بالغد، وكان يظهر بهداياه السخية وضيافته أنه يقدر أفراد عشيرته أكثر من أملاكه. كان دائما مستعدًا ليمنح كل ثروته ـ جمال وماشية وعبيد ـ للآخرين، وكان يمكن أن يبدد ثروته فى ليلة واحدة بعمل وليمة فخمة لأصدقائه وحلفائه. ولكن سخاء الكريم يمكن أن يدمره شخصيًا عندما يسعى وراء الشهرة والمظاهر، فيقود أسرته للفقر فى مقابل أن يظهر نبله وأصالته، ويتحول بذلك الكرم إلى أنانية.

حثت المروءة على المثالية، ولكن بنهاية القرن الميلادى السادس، تآكلت بطريقة مفجعة، حين زكت العصبية القبلية من الشجاعة والتضحية بالنفس، ولكن فقط فى محيط القبيلة. ولم يكن هناك مفهوم عام لحقوق الإنسان، إذ شعر البدوى بمسئوليته فقط تجاه أقربائه وحلفائه، ولم يكن يهتم قط بالآخرين، وكان يعتبرهم عديمى القيمة ومستباحين، وإذا كان عليه أن يقتل الآخرين لمصلحة قبيلته، فلم يكن يعانى ألـمًا نفسيًا، ولم يكن ليضيع وقته فى التجريدات الفلسفية أو الاعتبارات الأخلاقية. مثلت القبيلة القدسية الأعلى، ولذلك كان يحامى عنها سواء كانت على حق أو باطل. وقد أنشد أحد الشعراء:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد[٢]

أو كما جاء فى الحديث(*): «انصر أخاك ظالـمًا أو مظلومًا»[٣].

كانت لكل قبيلة أعراف المروءة الخاصة بها، والتى اعتقد العرب أنهم ورثوها عن أسلافهم الأوائل جيلاً بعد جيل، كما ورثوا صفاتهم البدنية والأخلاقية الأخرى، وسموا أمجادهم القبلية القديمة أحسابهم[٤]. قدر العرب أسلافهم واعتبروهم المرجع الأعلى، فحفظوا تراثهم وتقاليدهم، وعدوها مقدسة ولا يجوز مخالفتها، وكان لكل قبيلة سنتها التى ورثتها وتحافظ عليها بتقليدها، وأى انحراف عنها يعد شرًا كبيرًا. لم يبجلوا الممارسات القديمة بسبب نبلها أو معدنها بقدر ما كان ذلك بسبب قدمها ونقلها عن الأسلاف.

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها

لا يطبعون ولا يبور فعالهم إذ لا يميل مع الهوى

[لبيد بن ربيعة ـ المعلقة][٥]

لم يكن للبدو أن يخاطروا بالتجارب الجديدة، فتجاهل الشريعة، الكلمة التى تعنى الطريق إلى الماء، التى عاش بها أسلافهم من قديم الزمان يُعد جرمًا وعملاً غير مسئول. تعلم العربى أن يعيش متبعًا مجموعة من القواعد التى ثبت نجاحها بتجارب أسلافه. ولكن مثل هذا القبول الأعمى للتقاليد، يؤدى إلى مغالاة فى العصبية [الشوفينية] القبلية، حيث تصبح تقاليد القبيلة هى الأفضل، ولا يمكن مراجعتها أو

(*) تكملة الحديث: أن الصحابة سألوا النبى ﷺ كيف ينصرون أخاهم ظالـمًا؟ فأجاب «بأن تكف يده عن الظلم» ـ رواه البخارى ومسلم والترمذى.

التفكير في تقاليد أخرى. ويتم الحفاظ على شرف القبلية باتباع تقاليدها ورفض الخضوع لأي مراجع أخرى، بشرية أو إلهية. وعلى الكريم أن يكون فخوراً ومعتداً بنفسه، معتمداً عليها، ومستقلاً بأنفة عن الآخرين. ولم يكن التكبر خطيئة، وإنما علامة على النبل، بينما كان التواضع علامة على تواضع الحسب والنسب، وكان مواليد الطبقات الدنيا مؤهلين ليصبحوا عبيداً. لم يكن الكريم الحقيقي ليخضع لأي شخص، وقال الشاعر:

وأيام لنا غر طوال　　عصينا الملك فيها أن ندينا

وسيد معشر قد توجوه　　بتاج الملك يحمي المحجرينا[٦]

بل كان الكريم يحافظ على استغنائه واعتداده بنفسه، حتى أمام الآلهة، فما كان هناك إله أسمى من النبيل الحقيقي.

في تلك الصحاري، احتاجت القبائل إلى رجال يرفضون الخنوع لقسوتها، ويثقون في قدراتهم على احتمالها! ولكن كان لذلك الاستغناء عيوبه، فما كان أسهل من تحوله إلى تهور وإفراط، ومن ثم يصبح البدوي متطرفًا[٧]، وبسبب ذلك الشموخ في الإحساس بالشرف، كان رد فعله عنيفًا على كل ما يراه تهديداً له. لم يكن يتصرف بأسلوب رد الفعل، بل كان يرى الشجاعة الحقيقية في شن الهجمات الاستباقية، فكما قال الشاعر زهير بن أبي سلمة (نحو ٩١ق. هـ - ٦هـ):

لدى أسد شاكي السلاح مقذف　　له لبد أظفاره لم تقلم

جريء متى يظلم يعاقب بظلمه　　سريعًا وإلا يبد بالظلم يظلم

[زهير بن أبي سلمة]. [٨]

كانت تلك الشجاعة التي يمتدحها الشاعر، حماسة لا يمكن ولا يجب كبحها، وإذا وقع الظلم على أحد أفراد القبيلة، وجب على الكريم المتعطش للثأر الانتقام بتعذيب الجاني[٩]، لقد كانت تلك نظرة مأساوية. أراد البدو تمجيد كفاحهم، ولكن كانت حياتهم عابسة ولا أمل في تحسينها، وكانوا يرون كل الأحداث مكتوبة عليهم بالدهر، والذي قدر عليهم كل معاناتهم وحيواتهم مسبقًا.

لا شيء يدوم، حتى المقاتلون المنتصرون يموتون ويطويهم النسيان، فهناك عبثية متأصلة فى هذه الحياة. كان العلاج الوحيد لليأس التمتع بملذات الدنيا، خاصة السلوان بشرب النبيذ.

حاول الكثير من البدو الإفلات من حياتهم البدوية وبناء حياة حضرية مستقرة، ولكن لم يحققوا النجاح بسبب ندرة الماء والأراضى الصالحة للزرعة والجفاف [١٠]. لم يكن بوسع قبيلة أن تبنى مستعمرة إلا إذا تراكمت لديها ثروة كبيرة - الأمر شبه المستحيل - أو أن تستقر فى واحة ذات مياه وأراض قابلة للزراعة، كما فعلت ثقيف فى الطائف، وكان البديل الآخر أن تعمل القبيلة كوسيط لإحدى حضارات المنطقة الثرية، كما فعل الغساسنة عندما استقروا فى الشتاء على حدود الإمبراطورية البيزنطية وعملوا كوكلاء لها، وتحولوا إلى المسيحية، فشكلوا حاجزاً يحمى البيزنطيين من الفرس.

ولكن لاحت فرصة فى القرن السادس بتطور ثورى فى وسائل النقل. فقد اخترع البدو الخُرْج الذى مكّن الجمال من نقل البضائع الكثيرة، وصار تجار الهند وشرق إفريقيا واليمن والبحرين يستخدمون الجمال التى تستطيع عبور الصحراء العربية بالسير فيها أيامًا بدون ماء، وبلا مشقة، فتنقل إلى الشام والإمبراطورية البيزنطية، البخور والتوابل والعاج والحبوب واللؤلؤ والأخشاب والأقمشة والأدوية، فى قوافل تأخذ مساراً مباشراً فى الجزيرة العربية، يقودها العرب من عين ماء إلى الأخرى ويحمونها.

وأصبحت مكة محطة فى منتصف الحجاز لتلك القوافل التجارية. وبرغم أنها كانت على أرض صخرية غير قابلة للزراعة، فقد أمكن الاستقرار فيها والعيش على نبع زمزم، وربما أدى الاكتشاف - الذى ظهر معجزاً - لذلك النبع المائى فى الأرض القاحلة إلى إضفاء القداسة عليه منذ زمن قديم سابق على نشأة مكة كمدينة. لقد جذب ماء زمزم الحجاج من كل أنحاء الجزيرة العربية، والذين ربما جذبتهم الكعبة، ذلك البناء القديم ذو المنافع المقدسة لـ «طائفة» زمزم(*). تعاقبت القبائل على رعاية الحرم خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، فكانت جرهم، ثم خزاعة، وأخيراً قريش فى بداية القرن السادس الميلادى، والتى كانت أول من أحاطت الكعبة بسياج من المبانى، وأخرجت من سبقوها.

(*) لم نجد أصل فى المراجع العربية عن طائفة زمزم أو عبادة زمزم «Zamzam Cult».

أسس قصى بن كلاب قبيلة قريش، بأن جمع عشائر ـ كانت فى السابق متحاربة ـ وكانت ترتبط عن بعد بصلات دم ونسب، مع بداية ظهور مكة كمركز للتجارات البعيدة، وربما جاء اسم قريش من فعل التقرش، أى الجمع أو الاكتساب[11]، وبالتباين عن جرهم وخزاعة، اللتين لم تستطيعا التخلى عن البداوة، راكمت قريش رأس المال الذى كفل أسلوب حياة حضريًا مستقرًا، ونجحت فى تأمين احتكارها لتجارة الشمال والجنوب، وأن تقدم خدماتها للقوافل الأجنبية، وأن تسيطر على الأنشطة التجارية التى أنعشتها التجارة الدولية داخل الجزيرة العربية. بدأت قبائل البدو فى التجارة بين بعضها البعض منذ أوائل القرن السادس[12]. فكانت تعقد أسواقًا متتابعة فى أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية، تدور مع عقارب الساعة، وتحشد التجار بتجاراتهم المختلفة، يبدأ السوق الأول فى البحرين، أكثف المناطق سكانًا، ثم عمان، فحضرموت، واليمن، وتنتهى الدائرة بخمسة أسواق متتابعة فى مكة وما حولها، آخرها سوق عكاظ، قبيل شهر الحج مباشرة.

بدأت قريش فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى فى إرسال قوافلها التجارية إلى الشام واليمن، وبالتدريج، أسست تجارتها المستقلة. ولكن برغم ذلك النجاح، عرفت قريش أنها عرضة للخطر، فهى لا تستطيع تأمين طعامها لعدم قابلية أرضها للزراعة، وهى تعتمد كلية على شراء طعامها بمبادلاتها التجارية، فإذا فشلت تجارتها فلن تجد ما تأكله، ولذلك ارتبط كل قرشى بالتجارة، من مقرض ـ كبنوك اليوم ـ إلى ممول، إلى تاجر. احتفظ العرب فى الواحات الزراعية فى الجزيرة العربية بروح البداوة، لأنها يمكن أن تتوافق مع الزراعة، أما قريش، فقد اكتسبت روح التجارة ومزاجها الخاص، مما أفقدها الكثير من القيم التقليدية للمروءة. فعلى سبيل المثال، أصبح عليها أن تعيش فى سلام؛ لأن حالة الحرب المستوطنة بين القبائل فى الصحارى لا تسمح بازدهار التجارة. كان على مكة أن تصبح سوقًا آمنًا يأتى إليه التجار من مختلف القبائل، ويجتمعون فى سلام وحرية بدون الخوف من التعرض لهجمات السلب والنهب. لذلك، رفضت قريش بعزم وثبات التورط فى حروب وأحلاف القبائل، وحافظت على الحياد بينها. قبل قيام قريش برعاية الكعبة، قامت معارك دموية بين القبائل المتنافسة على ذلك الشرف، إلى أن نجحت قريش بمهارة فى أن تؤسس حرمًا آمنًا يحيط بالكعبة، نصف قطره ٢٠ ميلا[13]، وعقدت قريش اتفاقات

مع البدو، منعتهم من مهاجمة القوافل التجارية فى مواسم الحج والعمرة، ومواسم الأسواق، فى مقابل تعويضات للقبائل على قيامها - بدلاً من هجمات السلب والنهب - بإرشاد وحماية تلك القوافل.

بذلك ارتبطت التجارة بالدين فى مكة. كان موسم الحج ذروة دورة السوق، وهيأت قريش للحجاج الدين والحرم، فأصبحت مركزاً روحيّاً للقبائل العربية. كان لكل قبيلة إلهها الذى يجسده تمثال حجرى، وجمعت قريش أصنام القبائل فى الحرم، حتى يصبح بمقدور كل قبيلة أن تعبد إلهها فى الكعبة. لذلك أصبحت حرمة الكعبة أساسية فى بقاء قريش، وفهم منافسو قريش ذلك. ولجذب الحجاج والتجار بعيداً عن قريش، بنى حاكم إثيوبيا واليمن حرماً منافساً، وقاد جيشاً فى عام ٥٤٧م إلى مكة ليثبت أنها ليست بمأمن من الحرب. ولكن يُقال إن فيل الحرب الذى سار به رفض أن يهاجم الحرم، وعاد الإثيوبيون من حيث أتوا، متأثرين بالمعجزة التى عاينوها، وصار عام الفيل رمزاً على حرمة مكة.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤﴾ [سورة الفيل: ١ - ٥][١٤].

لم يكن الدين مجرد مظهر فارغ للتقوى، فقد أثرت طقوسه الحجاج بتجربة عميقة، إذ إنه بعد عكاظ السوق الأخيرة، يصل الحجاج مكة ولديهم إحساس بالرضا من إنجازهم مفعم بالإثارة. تهيئ قريش الراحة للقوافل، للتجار وخدمهم وجمالهم، وبعد أن يدفعوا مقابلاً زهيداً كرسوم للحرم، يبدءون طقوس الحج، ويرددون بعض الأدعية - فى طرقات مكة - لإعلام الآلهة بوصولهم، ومثولهم أمام آلهتهم فى مكة يجعلهم يحسون بأنهم فى أوطانهم الأصلية. يطوفون بالكعبة - التى يحيط بها ٣٦٠ صنماً - سبع مرات، ذلك التقليد الذى ربما كان منشؤه طلب أمطار الشتاء من الآلهة(*)، ثم يسعون بين الصفا والمروة شرق الكعبة، ثم ينتقلون إلى المزدلفة، موطن إله الرعد(**)، ويبيتون هناك بالقرب من جبل

(*) يتغير زمن موسم الحج سنويّاً بالنسبة للفصول الأربعة، فيأتى فى الشتاء ويأتى فى الصيف، وفى الخريف وفى الربيع.

(**) لم تنقل إلينا المصادر العربية أى خبر يفيد أن المزدلفة كانت موطن إله الرعد، وربما اعتمدت المؤلفة على ما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية (ليدن، هولندا)، التى لم يذكر واضعوها المستشرقون مصدر هذا الخبر من التراث العربى القديم.

عرفة، ١٦ ميلاً من مكة، ثم يلقون الجمرات فى منى، ويختمون الحج بنحر إناث جمالهم، أغلى ما يملكون دليلاً على ثرائهم، ومن ثم على قدرهم.

الطواف حول الكعبة سبع مرات فى اتجاه عكس دوران عقارب الساعة هو أشهر المناسك، صار الطواف طقسًا مرغوبًا يؤديه بإخلاص على مدار العام أهل مكة وضيوفها، واكتسب الحرم المكى أهمية سلفية مثل الأضرحة الأخرى فى العالم القديم[١٥]. تمثل الكعبة بأضلاعها الأربع الجهات الأصلية الأربعة، ومن ثم العالم، وفى ضلعها الشرقى، يمثل الحجر الأسود، الذى أصله نيزك سقط من السماء، الارتباط بين السماء والأرض، وطواف الحجاج حول الكعبة يتبع دوران الأرض حول محورها، مما يجعلهم فى توافق مع النظام الكونى. فالدائرة رمز للشمولية، والحركة على مسار دائرى، حيث يعود المرء لنقطة بدايته، يبث إحساسًا بالمعاودة والانتظام. كذلك يتبصر الحجاج بدورانهم حول الكعبة مركزهم وميولهم الحقيقية، ويفرغ دورانهم الوئيد حولها عقولهم من الأفكار الشاردة، ويهيئ لهم حالة من التأمل والتدبر.

جعلت الطقوس - التى تم إصلاحها - من مكة مركزًا للعرب، فبينما كان الحجاج الآخرون يضطرون لمغادرة مواطنهم والارتحال لبلاد أخرى، لم يضطر العرب لمغادرة جزيرتهم، مما مثّل قانونًا فى حد ذاته. دعّم كل ذلك من مركزية مكة للعالم العربى[١٦]. كانت مكة أيضًا معزولة، فلم يكن هناك ما يجعل من موقعها الصعب ومن صحارى الجزيرة العربية مطمعًا للفرس أو الروم - القوى العظمى فى ذلك الوقت - فتهيأت لها وللعرب حرية نادرة، واستطاعت قريش أن تصنع اقتصادًا حديثًا بدون سيطرة إمبريالية من الخارج. كان العالم يمر بمكة، ولكن لا يبقى وقتًا كافيًا يتيح له التدخل فى شئونها. استطاع العرب بناء وتطوير معتقداتهم، وكذلك أن يستفيدوا من معارف وخبرات جيرانهم، بالطريقة التى يختارونها. لم يضغط عليهم أحد لاتباع دين أو نظام غريب عليهم، وزكت الدائرة المغلقة لحجهم ولتجارتهم، روح الاكتفاء الذاتى الاستغنائى والتى أصبحت علامة فى ثقافتهم.

أفاد الانفصال المكى عن الفرس والروم اقتصاد مكة فى سلامته من الأضرار التى تصيب تلك القوتين، بل استطاعت قريش فى واقع الأمر الاستفادة من المصائب التى ألمت بهما.

ففى سنة ميلاد النبى (ﷺ) (٥٤ ق. هـ. / ٥٧٠م) أنهكت سلسلة من الحروب كلاً من فارس وبيزنطة، وكانت الشام والعراق ميدانًا لذلك، فتوقف الكثير من مسارات التجارة خلالهما، وأمسكت مكة بزمام التجارة بين الشمال والجنوب[١٧]، وازدادت سلطة قريش، ولكن رأى البعض أن قريشًا تدفع ثمنًا باهظًا لنجاحها. ومع اقتراب القرن السادس من نهايته، دخلت قريش فى أزمة مستحكمة أخلاقيًا وروحيًا.

مزق اقتصاد السوق روح المجتمع القديمة، وحل محلها التنافس عديم الرحمة، والطمع والفردية والأنانية. تنازعت وتحاسدت العائلات على الثروة والجاه، وأهمل أغنياء القبيلة عشائرها قليلة الحظ والوجد، ليراكموا ثرواتهم الخاصة، ولم يكتفوا بذلك، بل جاروا على حقوق اليتامى والأرامل.

انتشى الأغنياء بأحوالهم الجديدة، ورأوا أنها أنقذتهم من بؤس البداوة وعوزها، ولكن أولئك الذين تخلفوا فى السباق المحموم أحسوا بالضياع.

لم تتوافق روح المروءة مع قوى السوق، التى هَمّشت الكثيرين عن المجتمع، ولم تظهر قيم جديدة توازن الاختلالات الجديدة للمجتمع، وأخبرتهم روح الجماعة الباقية فيهم أن الفردية الجديدة سوف تدمر القبيلة.

ولد محمد (ﷺ) فى عشيرة بنى هاشم، واحدة من أوسط عائلات قريش. كان جده الأكبر أول من تاجر لحسابه مع الشام واليمن، وكان لبنى هاشم شرف سقاية الحجاج، ولكن أصابت هاشمًا ضائقة مالية. كذلك مات أبوه عبد الله قبل ولادته، وكانت أمه أمينة فى شدة حتى أن المرضعة التى أخذت محمداً (ﷺ) كانت من أفقر قبائل الجزيرة العربية. عاش محمد (ﷺ) عند حليمة السعدية ست سنوات من الحياة البدوية فى أخشن صورها. وبعد عودته إلى مكة بسنة، ماتت أمه، مما ترك فيه حزنًا مضاعفًا واهتمامًا كبيراً باليتامى، كما سنرى.

عاش محمد (ﷺ) مع جده عبد المطلب، الذى أحبه وقربه إليه، وكان يأخذه معه إلى الكعبة وسط أعمامه، ويجلسه بجواره ويربت على ظهره بحب، ولكن مات عبدالمطلب ومحمد (ﷺ) ما زال فى الثامنة ولم يرث شيئًا. أخذه عمه أبوطالب، كبير بنى هاشم، وذو المكانة الرفيعة فى مكة، برغم أن أعماله التجارية كانت فى

هبوط . أحب أبوطالب محمداً (ﷺ) حبّاً كبيراً، كذلك أحبه أعمامه، فدربه عمه حمزة، أصغرهم، على فنون الرمى والقتال بالسيف، بينما هيأ له عمه العباس، وهو رجل مال وتجارة، أن يقود إحدى القوافل التجارية إلى الشام(*).

كان محمد (ﷺ) الشاب محبوبًا فى مكة، كان وسيمًا متناسق الجسد متوسط القامة، وكانت ابتسامته ساحرة، كما ذكرت كل المصادر. كان حاسمًا مخلصًا فى عمله، ويلتفت بكامله لكل من يكلمه، ولا يسحب يده من المصافحة حتى يسحبها الآخر. وثق الناس فيه حتى سموه الأمين، ولكن يتمه أثر عليه. أراد الزواج من بنت عمه فاختة، ولكن رفض عمه أبوطالب ذلك برفق مشيراً لأنه لن يستطيع إعالتها.

وعندما بلغ محمد (ﷺ) الخامسة والعشرين، تغير حظه، فقد سألته خديجة بنت خويلد، وهى قريبة له من بعد، أن يتجر لها فى قافلة إلى الشام. كانت عشيرتها - بنو أسد - أكثر نفوذاً من بنى هاشم، وهى تاجرة ناضجة ثرية من بعد وفاة زوجها. هيأت الحياة الحضرية فى مكة لنساء الصفوة فرص النجاح، فى وقت لم تكن هناك أى قيمة لنساء الطبقات الفقيرة.

نجح محمد (ﷺ) فى تجارته بطريقة أعجبت خديجة لدرجة أنها طلبت الزواج منه. لقد أرادت زوجًا جديداً، وكان محمد (ﷺ) قريبها اختياراً مناسبًا:

> قال ابن إسحاق: «فقالت له - فيما يزعمون - يا بن عم، إنى قد رغبت فيك لقرابتك منى، وشرفك فى قومك، وسطتك فيهم، وأمانتك عندهم، وحسن خلقك، وصدق حديثك». [السيرة النبوية لابن إسحاق، ط دار الكتب العلمية: ص ١٤٩](١٨).

أثار بعض نقاد محمد (ﷺ) بأن ذلك كان زواج منفعة، ولكن فى الحقيقة، أحب محمد (ﷺ) خديجة ولم يتخذ زوجة أخرى شابة معها، مع أن ذلك كان مقبولاً فى أعراف العرب.

> قال ابن إسحاق: «وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة، مع ما أراد الله بها من كرامته». [السيرة النبوية: ص ١٤٩](١٩).

(*) لم نجد فى المصادر العربية أن حمزة كان يدرب النبى ﷺ على فنون الرمى والقتال بالسيف، كما أن الذى هيأ له التجارة إلى الشام هو عمه أبو طالب.

لقد كانت أول من اكتشف أصالة محمد (ﷺ)، ولأنه فقد أمه مبكرًا، فلقد أخلص لها العاطفة، واعتمد على نصيحتها ودعمها. وبعد موتها، كانت بعض زوجاته تغرنّ من كثرة حديثه القلبى عنها.

ربما كانت خديجة فى أواخر الثلاثينيات من عمرها عند زواجها بمحمد (ﷺ)، ولقد أنجبت له ستة أبناء على الأقل، القاسم وعبدالله، وقد ماتا فى الطفولة وبناته الأربع: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، واللاتى أحبهن محمد (ﷺ) حبًّا جارفًا.

لقدكانت أسرة سعيدة، وداوم محمد (ﷺ) بإصرار على جعل نسبة من دخل الأسرة لصالح الفقراء، كذلك ألحق صبيين بأسرته. فقد أهدته خديجة يوم زفافهما عبدًا صغيرًا اسمه زيد بن حارثة، من إحدى قبائل الشمال. وقد أحب زيد محمدًا (ﷺ) حتى أنه عندما قدم أبواه بمال لفدائه، توسل زيد لمحمد (ﷺ) أن يبقيه معه وألا يطلقه حرًا لأبويه، وهنا أعطاه محمد (ﷺ) حريته، وتبناه. كذلك أضاف محمد (ﷺ) لعائلته ابن عمه على بن أبى طالب ذى الخمس سنوات، الذى كان أبوه يمر بأزمة مالية، وقربه إليه كما لو كان ابنه.

نحن نعرف القليل عن تلك السنوات الأولى، ولكن يمكننا أن نستنتج من السيرة اللاحقة، أن محمدًا (ﷺ) قد أدرك الخلل الذى أصاب مكة، خاصة فى أجيالها الجديدة، فقد أصبحت التفرقة واضحة بين الأغنياء والفقراء. عاش الأوائل حول الكعبة، وعاش الباقون فى أطراف مكة البعيدة، وتخلى أهل مكة عن المروءة والكرم، وانقلبوا بخلاء تحت زعم مهارة التجارة والاقتصاد. وأصبح بعضهم لا يؤمن بالقدر، بعد أن نجح فى تغيير حظه، بل وصل ببعضهم التفكير فى أن الثراء سيجلب لهم نوعًا من الخلود.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣﴾ [سورة الهمزة: ١ ـ ٣] [٢٠].

واتبع الآخرون ملذاتهم وأهواءهم، واتخذوها آلهة لهم:

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾ [سورة الأنعام: ٧٠].

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾ [سورة الأعراف: ٥١]، ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ۝٤٣﴾ [سورة الفرقان: ٤٣]، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣﴾ [سورة: الجاثية: ٢٣][٢١].

تزايد إدراك محمد (ﷺ) بأن قريشًا تخلت عن أفضل ما فى المروءة واستبقت أسوأ صورها، من طيش وتكبر، إلى إحساس متضخم بالذات، مما يدمر أخلاقيات المجتمع ويؤدى به إلى الهلاك. اعتقد بوجوب إجراء إصلاح اجتماعى مبنى على حل أخلاقى وروحى جديد، وإلا فلن يؤتى ثماره. ربما أدرك فى أعماقه بأن له موهبة استثنائية، ولكن ما عساه أن يفعل؟ لن يأخذه أحد على محمل الجد؛ لأنه رغم زواجه من خديجة، لم تكن له وجاهة اجتماعية فى مكة.

كان هناك قلق واضطراب روحى واسع. لقد طور العرب الذين استقروا فى المدن والمجتمعات الزراعية فى الحجاز رؤية دينية جديدة، وصاروا أكثر اهتمام بالآلهة من البدو، ولكن آلهتهم البدائية كانت عديمة الجذور فى الجزيرة العربية. رويت قصص أسطورية قليلة جدًا عن آلهة متنوعة. كان الله أهم إله، وكان ينظر إليه أيضًا على أنه إله الكعبة، ولكن كان ينظر إليه أيضًا على أنه بعيد عن العالم وقليل التأثير على الناس فى حياتهم اليومية. ومثله مثل بقية الآلهة العليا، أو آلهة السماء المعروفة فى الأديان القديمة. لم يطور الله لهم عبادة متكاملة، ولم يصنعوا له تماثيل[٢٢]. يعرف كل الناس أن الله خلق العالم، وأنه يصنع الحياة فى الأرحام، وأنه يسقط الأمطار، ولكن ظلت تلك المعتقدات مجردة. صلى العرب لله فى الأزمات، ولكن نسوه كلية بعد انتهاء الخطر.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٣ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ

الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ [سورة يونس: ٢٢ _ ٢٤] (٢٣).

في الحقيقة، بدا الله بذلك كأب غير مسئول، غائب، ترك العالم بعد أن خلقه (٢٤)

عبدت قريش آلهة أخرى أيضًا. كان هناك الإله هبل، وله تمثال كبير من الصخور المائلة للحمرة داخل الكعبة (٢٥)، وكانت هناك ثلاثة آلهة: اللات، والعزى، ومناة، وكانت تسمى بنات الله، وكانت مشهورة تمامًا فى المجتمعات المستقرة، وكانت تماثيلها الكبيرة فى الطائف ونخلة وقديد تقارب قداسة الحرم المكى؛ حيث نصب مناة على ساحل البحر من ناحية المشلل مما يلى قديداً، بينما كانت اللات فى ثقيف بالطائف، أما العزى فكانت بواد من نخلة الشامية يقال له حراضًا على يمين الصاعد إلى العراق من مكة. وبرغم أنها كانت أقل مرتبة من الله، فقد كانت تسمى صاحبات أو شريكات، وكانت تشبه بالغرانيق الجميلة التى تطير أعلى من أى طيور أخرى. وبرغم أن تلك الآلهة لم يكن لها أضرحة فى مكة، فقد أحبتها قريش، وتوسلت إليها للتوسط بينها وبين الله الذى لا يمكن الوصول إليه، وكانوا ينشدون أثناء طوافهم بالكعبة «اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنها الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى».

قال ابن الكلبى: «كانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى». [الأصنام لابن الكلبى: ص ١٨] (٢٦).

كانت عبادة الأصنام حماسة دينية حديثة لدى العرب، جلبها من الشام أحد المكيين الأوائل، الذى اعتقد أن بمقدورها جلب الأمطار، ولكن ليس لدينا أى فكرة عن سبب اعتقادهم بأن الآلهة الثلاثة: اللات والعزى ومناة، هن بنات الله، خاصة مع اعتبار العرب ميلاد الإناث من سوء الطالع، حتى أنهم كثيراً ما كانوا يقتلونهن. لم تعط آلهة العرب أى هداية أخلاقية لهم، ومع ذلك، رأى كثير من العرب فى طقوس العبادة ما يكفى، ولكن وجد بعض القرشيين أن تلك الأوثان الحجرية رموز غير كافية للمقدس (٢٧).

ولكن ما هو البديل الذى كان مطروحًا؟

عرف العرب الديانتين التوحيديتين: اليهودية والمسيحية. فربما عاش اليهود فى الجزيرة العربية لمدة قد تزيد على الألف سنة بعد أن هاجروا إليها من بعد الأسر البابلى والغزو الرومانى لفلسطين. كان اليهود أول من استقر فى يثرب وخيبر فى الشمال للزراعة، كذلك كان هناك تجار يهود فى المدن، وبدو رحل من اليهود. لقد حافظ اليهود على ديانتهم، وشكلوا قبائلهم، ولكنهم امتزجوا مع العرب بالزواج المختلط حتى صاروا منهم، فاتخذوا أسماءً عربية، ونظموا أنفسهم على الطريقة العربية حتى أصبح من الصعب التمييز بينهم وبين العرب.

تحول بعض العرب إلى المسيحية، فصارت هناك بعض المجتمعات المسيحية فى اليمن، وعلى حدود الدولة البيزنطية فى الشام. قابل التجار العرب رهبانًا ونساكًا مسيحيين فى رحلاتهم، وعرفوا منهم قصص المسيح، ومفهوم الجنة والحساب فى يوم القيامة، وسموا اليهود والمسيحيين أهل الكتاب، وأعجبتهم تلك الفكرة وتمنوا لو كان لهم كتاب بالعربية.

فى ذلك الوقت، لم يكن العرب يرون اليهودية أو المسيحية كديانة حصرية مختلفة بشكل كبير عن دينهم. وفى الواقع، أشارت كلمة «يهودى» أو «مسيحى» إلى انتماء قبلى أكثر مما أشارت إلى اتجاه دينى(٢٨). كانت اليهودية والمسيحية داخل السعة الروحية، ومتوافقتين تمامًا مع الروحانية العربية. ولأنه لم تكن هناك أى قوى إمبراطورية تسعى لفرض نظامها الدينى على العرب، فقد تمتعوا بحرية تعريب ما يحتاجونه من تقاليد اليهودية والمسيحية. اعتقدوا أن الله هو نفسه الإله الذى يعبده اليهود والمسيحيون، ولذلك كان المسيحيون العرب يحجون إلى الكعبة، مع الوثنيين العرب، وكان يُقال إن آدم بنى الكعبة بعد خروجه من الجنة، وإن نوحًا أعاد بناءها بعد الطوفان. كذلك عرفت قريش أن الكتاب المقدس يقول عنهم إنهم أبناء إسماعيل، الابن الأكبر لإبراهيم، وإن الله أمر إبراهيم أن يترك هاجر وابنها إسماعيل فى الصحراء، مع وعد بأن يصبح أولاد إسماعيل أمة عظيمة. وبعد ذلك، زار إبراهيم ابنه إسماعيل، وأعاد اكتشاف مكان الكعبة، ثم قام بإعادة بنائها، وسن مراسم الحج.

«ورأت سارة أن ابن هاجر المصرية الذى أنجبته لإبراهيم يسخر من ابنها إسحاق، فقالت لإبراهيم: «اطرد هذه الجارية وابنها، فإن ابن الجارية لن يرث مع ابنى إسحاق» فقبح هذا القول فى نفس إبراهيم من أجل ابنه. فقال الله له: «لا يسوء فى نفسك أمر الصبى أو أمر جاريتك، واسمع لكلام سارة فى كل ما تشير به عليك لأنه بإسحاق يدعى لك نسل. وسأقيم من ابن الجارية أمة أيضًا لأنه من ذريتك». [سفر التكوين ـ ٢١ : ٩ ـ ١٣][٢٩](*).

علم الجميع أن العرب واليهود عشيرة واحدة. وكما بين المؤرخ اليهودى يوسيفوس (٣٧ ـ ١٠٠ م تقريبًا)، كان العرب يختتنون فى سن الثالثة عشرة؛ لأن جدهم الأكبر إسماعيل، الذى أنجبه إبراهيم من خليلته هاجر، اختتن فى ذلك السن[٣٠]. لم يشعر العرب بضرورة التحول إلى اليهودية أو المسيحية؛ لأنهم اعتقدوا أنهم كلهم أعضاء فى الديانة الإبراهيمية، وفى الواقع، كانت فكرة التحول من إيمان إلى آخر غريبة على قريش، والتى كانت رؤيتها للدين تعددية[٣١]. كانت كل قبيلة تحج إلى مكة لعبادة إلهها الخاص، الذى يقف فى الحرم مع الآلهة الأخرى فى بيت الله. لم يفهم العرب فكرة أنظمة الإيمان المغلقة على أتباعها، ولم يجدوا تعارضًا بين التوحيد وتعدد الآلهة. لقد نظروا إلى الله فى الكعبة محاطًا بحلقة من الآلهة كرب لهم، بالطريقة نفسها التى رأى بها كتاب العهد القديم من الكتاب المقدس يهوه كإله أعلى من بقية الآلهة.

«قد عرفت أن الرب عظيم، وأن سيدنا أسمى من جميع الآلهة.» [سفر المزامير ـ المزمور ١٣٥ : ٥][٣٢].

ولكن صار بعض عرب الحضر غير راضين بالتعددية الوثنية، وحاولوا ابتداع توحيد عربى أصلى[٣٣]، وقبيل الهبوط الأول للوحى على محمد (ﷺ)، كانوا قد تخلوا عن عبادة أوثان الكعبة، فقال بعضهم لبعض:

(*) طبقًا للموسوعة البريطانية الموجزة «Britannica Concise Encyclopedia»، هاجر العرب من جنوب الجزيرة العربية حوالى ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد إلى شمال الجزيرة العربية، وبلاد ما بين النهرين دجلة والفرات، أى العراق الآن، والساحل الشرقى للبحر المتوسط، ودلتا النيل، فكان أصل نبى الله إبراهيم ﷺ وزوجه سارة عربى. ص ١٧١٩ طبعة ٢٠٠٦م، كذلك جدير بالذكر أن نبى الله يعقوب ﷺ الذى أصبح اسمه إسرائيل، وتعنى الكلمة: مجاهد الله، كان له أربع زوجات: ابنتا خاله، وجاريتاهما، ومن هؤلاء الزوجات الأربع جاء بنو إسرائيل.

روى ابن إسحاق قولهم: «تعلموا والله ما قومكم على شىء، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم. ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع! يا قوم التمسوا لأنفسكم «دينًا» فإنكم والله ما أنتم على شىء».

فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم». [السيرة النبوية: ص ١٧١](٣٤).

لم يكن الباحثون عن الحنيفية طائفة منظمة، فقط اجتمعوا على إزدراء عبادة الأوثان الحجرية، واعتقدوا أن الله هو الإله الوحيد، ولكن لم تتطابق أفكارهم فى أكثر من ذلك. توقع بعضهم ظهور نبى عربى برسالة إلهية لإعادة إحياء ديانة إبراهيم الأصلية، واعتقد آخرون أن ذلك ليس ضروريًا، وأنه بإمكان الناس الرجوع إلى الحنيفية بمبادرات شخصية منهم، وبشر آخرون بقيام الأموات ليوم الحساب الأخير، كذلك كان منهم من اعتنق المسيحية أو اليهودية، كحل مؤقت لحين إعادة تأسيس دين إبراهيم.

كان للأحناف تأثير ضعيف على أقرانهم؛ لأنهم كانوا معنيين بالدرجة الأولى بخلاصهم الشخصى، وكانت عقيدتهم سلبية أكثر مما كانت إيجابية، فهم كانوا يعرفون ما يجب عليهم ألا يفعلوه فى العبادة، ولكنهم لم يكونوا يعرفون ما يجب عليهم أن يفعلوه، ولذلك بدلاً من أن يبتدعوا شيئًا جديداً، انسحبوا من التيار الرئيسى، ولم تكن لديهم رغبة لإصلاح الحياة الاجتماعية أو الأخلاقية فى الجزيرة العربية. وفى الواقع، الأصل اللغوى العربى للحنيفية هو حنف، أى مال عن أو انحرف عن، والمقصود عن عبادة الأوثان.

ولكن كانت الحركة دليلاً على القلق الروحى لدى العرب فى بداية القرن السابع الميلادى، ونحن نعلم أن محمداً (ﷺ) كان على صلة بثلاثة من أبرز أحناف مكة: عبيد الله بن جحش ابن عمته، وورقة بن نوفل ابن عم خديجة، وأصبح الاثنان مسيحيين، وزيد بن عمرو بن نفيل، الذى هاجم الوثنية فى مكة بعنف حتى طرده المكيون، والذى أصبح بعد ذلك من أقرب الصحابة لمحمد (ﷺ). ويبدو أن محمداً (ﷺ) دخل دوائر الأحناف، وشارك زيداً تطلعه للهداية الربانية.

قال ابن إسحاق: «كان زيد بن عمرو بن نفيل يقول: يا معشر قريش، والذى نفس زيد بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى. ثم يقول: «اللهم لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكنى لا أعلمه. ثم يسجد على راحته». [السيرة النبوية: ص ١٧٣][٣٥].

كان محمد (ﷺ) يبحث عن حل جديد، وكان لعدة سنوات يعتزل الناس فى غار حراء فى شهر رمضان، يوزع الصدقات على الفقراء الذين يزورونه، ويتفرغ للتأمل والتنسك[٣٦]. نعلم القليل عن تلك الممارسة، والتى تعتقد بعض المصادر أن جد محمد (ﷺ) هو الذى ابتدعها، والتى يبدو أنها جمعت بين الاهتمام بالمجتمع، مع طقوس العبادة، والتى قد تكون شملت السجود لله[٣٧]، والطواف حول الكعبة. فى تلك الفترة، بدأ محمد (ﷺ) يرى فى منامه أحلامًا تشع بالآمال والوعود.

روى ابن إسحاق عن عائشة: «إن أول ما بدئ به رسول الله (ﷺ) من النبوة، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله (ﷺ) رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح. قالت: وحبب الله - تعالى - إليه الخلوة، فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده». [السيرة النبوية: ص ١٧٩][٣٨].

وحوالى عام (١٢ ق. هـ/ ٦١٠م)، وهو معتكف فى غار حراء، تعرض لهجوم مباغت مذهل. الكلمات التى أعتصرت، وكأنها من أعماق روحه، أصابت جذر مشكلة مكة:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⑥ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ⑦ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ⑧ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ⑩ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ⑪ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ⑫ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ⑬ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ⑭ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ⑮ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ⑯ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ⑰ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ⑱ كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ⑲﴾ [سورة العلق: ١ - ١٩].

مثلت تلك الكلمات امتدادًا لاعتقاد قريش أن الله خلق كل شخص منها، وكشفت وهم مروءة الاستغناء، وأظهرت الاعتماد الكلى للبشر على الله.

أخيرًا أصر الله على أنه ليس إلهًا بعيدًا غائبًا، بل حاضرًا لهداية مخلوقاته، ويجب عليهم الاقتراب منه، ولكن بدلاً من اقتراب بروح استغناء المروءة، عليهم السجود له ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾(٣٩).

هكذا أمر الله، سجود تبغضه عجرفة قريش. منذ البداية، تعارضت ديانة محمد (ﷺ) تمامًا مع بعض المبادئ الأساسية لمروءة قريش.

بعد لقائه الأول مع الوحى، وعندما تمالك محمد (ﷺ) نفسه، سرعان ما تملكه الرعب من التفكير فى أنه بعد كل جهاده الروحى يتلبسه جنى، حتى أنه لم يعد يريد الحياة. وفى غمرة اليأس، خرج مسرعًا من الكهف، ليرتقى قمة يلقى بنفسه منها للموت، ولكنه شاهد رؤية أخرى، كائنًا ساد الأفق ومحملقًا فيه!... قال القرآن عن ذلك:

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝﴾ [سورة النجم: ٥ ـ ٩](٤٠).

قال ابن إسحاق: قال رسول الله (ﷺ): «فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل. قال: فرفعت رأسى إلى السماء أنظر، فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء، قال: فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك، فمازلت واقفًا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك، ثم انصرف عنى». [السيرة النبوية: ص ١٨١](٤١).

لقد كان روح الوحى، والذى سماه محمد (ﷺ) فيما بعد جبريل، ولكنه لم يكن ملاكًا جميلاً كما تصوره الطبيعة البشرية، وإنما حضور متسام عن إدراك البشر الأرضى.

هبط محمد (ﷺ) من الجبل مرتاعًا محتارًا، متعثرًا فى طريقه لخديجة، وعلى عتبة منزله، كان يقول مرتجفًا «زملونى زملونى!»، وألقى بنفسه فى حضنها. لفته

خديجة بالثياب واحتضنته حتى ذهب الروع عنه . لم يساورها أدنى شك فى الوحى . قالت فى إصرار : يا بن عم، أثبت وأبشر ، فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان .

جاء فى صحيح البخارى : «يا بن عم، أثبت، وأبشر ، فوالله إنه لملك، وما هذا شيطان. فوالله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة، وتحمل الكل، وتقرى الضيف وتعين على النوائب» .
[البخارى : باب بدء الوحى، ح رقم ٣][٤٢] .

ربما كان محمد (ﷺ) وخديجة قد ناقشا فيما بينهما فهم قريش المتدهور للطبيعة الحقيقية للدين التى تسمو على أداء الطقوس، والتى تتطلب الحميمية والجهاد الأخلاقى المستمر .

ولتطمئن محمداً (ﷺ)، استشارت خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل الذى درس نصوص أهل الكتاب، والذى يستطيع نصحهما بخبرته . تهلل ورقة قائلاً بابتهاج :

«قدوس قدوس، والذى نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتينى يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له : فليثبت». [السيرة النبوية : ص ١٨٢][٤٣] .

وتوجه الرسول (ﷺ) إلى الكعبة للطواف، فلقيه ورقة فقال : يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت . فأخبره، فقال ورقة بن نوفل : ليتنى أكون حيّا حين يخرجك قومك . فقال محمد (ﷺ) : أو مخرجى هم؟ قال : نعم، إنه لم يجئ رجل قط بما جئت به إلا عودى، ولئن أدركت يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم أدنى رأسه منه، فقبل يا فوخه (أى رأسه) .

انصرف محمد (ﷺ) منزعجًا إلى منزله، إنه لا يتحمل العيش خارج مكة، وهل يعاديه قومه الذين يحبهم؟ أخبره ورقة أنه لا كرامة لنبى فى وطنه .

كانت بداية صعبة، محفوفة بالخوف والقلق والتهديد بالاضطهاد .

ولكن يرى القرآن نزول الروح القدس على محمد (ﷺ) فى غار حراء بصورة أخرى [عن تلك التى جاءت فى الحديث والسنة]، كحدث عجيب، رقيق، فيه سلام وسكينة، مثل حمل مريم بعيسى (عليهما الصلاة والسلام)، فقال :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧)﴾ [سورة مريم: ١٦ ـ ٢٧].

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١)﴾ [سورة الأنبياء: ٩١][٤٤].

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)﴾ [سورة القدر: ١ ـ ٥][٤٥].

هناك إخفاء متعمد للذكورة والأنوثة فى هذه السورة من القرآن، خاصة فى الضمائر، التى عادة ما تفقد فى الترجمة. وكان السؤال ﴿مَا أَدْرَاكَ﴾ يمهد لتقديم فكرة غريبة لأتباع محمد (ﷺ) الأوائل، موضحة أنهم على وشك دخول عالم يفوق الوصف. هنا طمس محمد (ﷺ) من ذاكرته هول غار حراء، وتصدرت ليلة القدر المركز كامرأة فى انتظار حبيبها. افتتحت ليلة القدر عصراً جديداً للمشاركة بين السماء والأرض، وتحولت الرهبة الأصلية من ملاقاة المقدس إلى سكينة آخر الليل، عندما تتطلع دنياه لانبلاج ضوء النهار.

كان محمد (ﷺ) ليفهم قول المؤرخ الألمانى رودولف أتو، الذى وصف المقدس أنه غموض فاتن ومرعب فى وقت واحد. إنه كان قوة خارقة، ملحة، هائلة، ولكنها تملأ الإنسان بـ«البهجة، والسعادة والشعور بالتناغم المتزايد والعلاقات الحميمة»[٤٦].

لم يكن من السهل وصف الوحى بطريقة بسيطة، وجعلت صعوبة التجربة محمداً (ﷺ) حذراً جداً فى إخبار أحد عنها. تتابعت الرؤى - ولا نعرف كم مرة تكررت - ولكن بعد ذلك، انقطع الوحى مما سبب حزناً لمحمد (ﷺ).

كان وقت خواء روحى فظيع. هل توهم محمد (ﷺ) كل ذلك؟ هل تسبب فى كل ذلك جنى مؤذ؟ أم وجده الله متلهفاً فتخلى عنه؟ ظلت السماء جافية عن محمد (ﷺ) بقسوة عامين طويلين، ثم بعد ذلك، انقشع الظلام فجأة بنور ساطع يؤكد:

﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ [سورة الضحى: ١ - ١١][٤٧].

طمأن الله محمداً (ﷺ) بأنه لم يتخل عن عبيده، وذكّر الرجال والنساء أن يتعلقوا بفضله وكرمه الدائم. على الإنسان الذى تمتع برعاية الله، أن يساعد اليتيم والمحروم. يجب على كل إنسان تعرض للتهميش والجوع والقمع، أن يرفض - تحت أى ظروف - تحويل ألمه للآخرين.

ثم أبلغ الوحى محمداً (ﷺ)أن الوقت قد حان لإبلاغ هذه الرسالة إلى قريش، ولكن كيف سيكون رد فعلها؟.

***

الفصل الثانى

الجاهلية

بدأ محمد (ﷺ) التحدث عن الوحى لمجموعة صغيرة من أصدقائه وأقربائه المقربين، الذين أصبحوا حواريين متعاطفين ومتحمسين، مقتنعين أنه نبى العرب الذى طال انتظاره. ولكن أدرك محمد (ﷺ) أن معظم قريش سوف تعتبر ذلك أمرًا لا يمكن قبوله؛ لأن معظم رسل الله كانوا رموزًا ضخمة فى مجتمعاتهم، ومؤسسة لها، وكان بعضهم أصحاب معجزات، فكيف يمكن قياس محمد بموسى أو عيسى (صلوات الله عليهم)؟. لقد عاينته قريش وهو يشب، ويسعى فى الأسواق التجارية، ويأكل ويشرب مثل كل الناس. لقد تخلت قريش عن كثير من قيم المروءة، ولكنها استبقت مظاهر الصفوة والنخبة، وتوقعت أن يختار الله كبيرًا من أكثر العشائر تميزًا، وليس شخصًا صغيرًا من بنى هاشم. كيف سيكون رد فعلهم عندما يطلب منهم محمد (ﷺ) أن يتخلوا عن استغنائهم المتغطرس، فيتخلوا عن سنة أجدادهم؟.

منذ البداية، واجه محمد (ﷺ) المعارضة حتى داخل عائلته الكبيرة. فقد آمنت خديجة وأبناؤهما وعلى وزيد بنبوته، إيمانًا غير مشروط، وبرغم أن عمه أبا طالب استمر على حبه وتأييده له، فقد آلمه بعمق تهور محمد (ﷺ) فى ترك دين آبائه. كان محمد (ﷺ) يقسم العائلة، فقد آمن به جعفر بن أبى طالب، وعبد الله وأخوه عبيد الله بن جحش، وأختهما زينب، ولكن عميه العباس وحمزة لم يؤمنا، برغم أن زوجتيهما آمنتا. ورفض أبو العاص زوج زينب بنت محمد (ﷺ) مجرد التفكير فى الدين الجديد، وبالطبع كان هذا يحزن محمدًا (ﷺ). كان ترابط العائلة أحد قيم العرب المقدسة، واحترم محمد (ﷺ) ـ ككل العرب ـ كبار عشيرته وقبيلته، وتوقع

من الكبار أن يقودوا الآخرين إلى اتباعه، ولكن كانت الأجيال الشابة هى التى آمنت به. وبدأ الوحى ـ بالفعل ـ فى إبعاد محمد (ﷺ) عن الأعراف السائدة، ولم يمكنه تجاهل أن كثيرًا من أتباعه كانوا من المستضعفين من الطبقات الدنيا. كان كثير منهم من النساء، ورجال محررين، وخدم وعبيد، وكان فى مقدمتهم بلال العبد الحبشى، ذو الصوت الجهورى الندى. وعندما كانوا يتجمعون للصلاة فى الحرم، كان يحيط به «صغار وضعفاء القوم». كان محمد (ﷺ) يرحب بهم بحرارة، ولكن لابد وأنه كان يتعجب، كيف تنجح حركة بمثل هؤلاء الخاملى الذكر؟. وفى الواقع، بدأ بعض كبار قريش يسألونه لماذا يرافق مثل هؤلاء الرعاع؟[1].

لم يكن كل «خاملى الذكر» من أدنى الطبقات المهمشة، فقد عنى ذلك المصطلح القبائل متواضعة العدد والنسب، وليست الفقيرة. كان أكثر تابعى محمد (ﷺ) حماسة صديقه عتيق بن عثمان، أبا بكر، التاجر الناجح الثرى، والذى جاء من عشيرة ضعيفة، تعرضت لأوقات عصيبة. كان أبو بكر سهل المعشر، ماهرًا فى تأويل الأحلام.

> قال ابن إسحاق: «وكان أبو بكر رجلاً مألفًا لقومه، محببًا سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلاً تاجرًا، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه». [السيرة النبوية لابن إسحاق، ط دار الكتب العلمية، ص١٨٩].

كثيرًا ما لجأ إليه شباب مكة الذين أزعجتهم شراسة رأسماليتها، طلبًا للنصيحة. أحس بعضهم بالخطر المحدق بالمجتمع المكى، وحذر من اليأس المحبط الذى وقع فيه، مع اغترابهم عن آبائهم. حلم ابن أحد كبار الممولين فى إحدى عشائر مكة ذات النفوذ، أن أباه يحاول أن يدفعه فى حفرة من نار، ثم أحس بيدين قويتين تنقذانه منها، وأدرك عند استيقاظه أن ذلك المنقذ كان محمدًا (ﷺ).

قال ابن سعد : « كان إسلام خالد بن سعيد قديمًا وكان أول إخوته ، أسلم وكان بدء إسلامه أنه رأى فى النوم أنه وقف على شفير النار ، فذكر من سعتها ما الله به أعلم ، ويرى فى النوم كأن أباه يدفعه فيها ويرى رسول الله آخذًا بحقويه لئلا يقع ، ففزع من نومه فقال : أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق» . [طبقات ابن سعد ، ط دار الكتب العلمية : ٤/ ٥٢] : ٤/ ٨٨](٣) .

شاب آخر ، هذه المرة من عشيرة عبد شمس المهيبة ، ذهب لأبى بكر ليسأله عن حلم سمع فيه صوتًا مناديًا فى الصحراء «استيقظوا أيها النيام!» معلنًا عن ظهور نبى فى مكة . أصبح الشابان مسلمين ، ولكن أخفى الأول إسلامه عن أبيه لأطول فترة استطاعها ، وأصاب الحنق الشديد كبار عشيرة الثانى ، والتى كانت صاحبة أعلى نفوذ فى مكة .

قال ابن سعد : «خرج عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله على أثر الزبير بن العوام فدخلا على رسول الله (ﷺ) ، فعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما القرآن وأنبأهما بحقوق الإسلام ووعدهما الكرامة من الله ، فآمنا وصدقا فقال عثمان : يا رسول الله ، قدمت حديثًا من الشام فلما كنا بين معان والزرقاء ، فنحن كالنيام ، إذا مناد ينادينا أيها النيام هبوا ، فإن أحمد قد خرج بمكة ، فقدمنا فسمعنا بك» . [الطبقات : ٤/ ٥٢](٤) .

أظهر الوحى صدعًا داخل مكة ، وبمضى السنوات عانت المدينة من انشقاق متزايد بين الشباب والكبار ، والأثرياء والفقراء ، وحتى الرجال والنساء . مَثَّل ذلك خطرًا . أدانت آيات الوحى عدم المساواة المكية ، حيث يعانى الطرف المحروم على يدى الطرف الغانم الحارم . الهلاك هو مآل المجتمع المنقسم على نفسه ، والانقسام هو ضد المعنى الحقيقى لكلمة مجتمع .

لقد كانت تلك فترة تاريخية مرعبة . بدت الحروب المستمرة بين الفرس والبيزنطيين وكأنها تبشر بنهاية النظام العالمى القديم ، وحتى داخل بلاد العرب ، بلغت الحروب مستوىً مزمنًا ، وتصاعدت الغزوات فى العشرين سنة الأخيرة لتجثم فترات أطول فى حملات عسكرية ـ بعد أن كانت عمليات خاطفة ـ كنتيجة لموجات الجفاف غير المسبوقة وما تبعها من مجاعات . لقد كان هناك هاجس رؤيوى بكارثة وشيكة ، واقتنع محمد

(ﷺ) بأنه لو لم تصلح قريش من أمورها وأساليبها، فستقع هى الأخرى فريسة للفوضى التى تهدد العالم:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [سورة الإسراء: ١٦] (٥) .

وبوحى إلهى، كان محمد (ﷺ) يتحسس طريقة لحل جديد كلية، مقتنعًا بأنه لا يتكلم باسمه وإنما هو يردد كلمات الله الموحاة له.

كان تلقى الوحى عملية شاقة مؤلمة، قال عنها النبى (ﷺ) : «لم يأتنى الوحى إلا وظننت أن روحى ستزهق».

[قال السيوطى فى الإتقان]: أخرج ابن سعد، عن عائشة، قالت: «كان رسول الله (ﷺ) إذا نزل عليه الوحى يغط، ويتربد وجهه، [أى: يتغير لونه] ويجد بردًا فى ثناياه، ويعرق حتى يتحدرمنه مثل الجمان». [الإتقان، السيوطى ـ ط دار الكتب العلمية: ١/ ٩١]. وقد أخرج ابن سعد هذا الحديث برواية عبادة بن الصامت: أن النبى (ﷺ) كان إذا نزل عليه الوحى كرب له، وتربد وجهه. [الطبقات: ١/ ١٦٧] (٦) .

عن عائشة أم المؤمنين: أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله (ﷺ): «أحيانًا يأتينى مثل صلصلة الجرس، وهو أشد على، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لى الملك رجلاً، فيكلمنى فأعى ما يقول». قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا. [البخارى، ط دار الكتب العلمية: ح رقم٢] (٧) .

كان عليه الإصغاء للتيارات التحتية للأحداث، محاولاً أن يكتشف حقيقة ما يجرى. كان وجهه يشحب من المجهود، حتى أنه كان يغطى وجهه بردائه كما لو كان يحتمى من التأثير الإلهى الطاغى. كان يعرق بغزارة حتى فى اليوم البارد، وهو ينسحب داخله بحثًا فى روحه عن حل لمشكلة، فيما يشبه طريقة غوص الشاعر فى أعماق نفسه بحثًا عن مستوى الإدراك فى عقله. يأمر الله فى القرآن محمدًا (ﷺ) أن يتبع التنزيل، حتى ينقله كما هو تمامًا، قبل أن يأتى البيان الإلهى له:

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [سورة طه : ١١٤]، ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة القيامة : ١٦ ـ ١٨][٨].

لذلك، فقد تكلم الله إلى أهل مكة بواسطة القرآن، من خلال محمد (ﷺ)، كما تكلم خلال أنبياء بنى إسرائيل بواسطة الكتاب المقدس. لذلك، يعتبر المسلمون لغة القرآن مقدسة؛ لأنها حملت كلمات الله. عندما يستمع أتباع محمد (ﷺ) إلى كلام الله، عند قراءة محمد (ﷺ)، وبعده المقرئون، يشعرون أنهم فى لقاء مباشر مع الله. واللغة العبرية فى العهد القديم من الكتاب المقدس، ينظر لها بالقدسية نفسها. ولكن ليس للمسيحيين مثل هذا المفهوم فى اللغة (المقدسة)؛ لأنه ليس هناك مقدس فى العهد الجديد بلغته اليونانية، وإنما قدمت نصوص العهد الجديد عيسى (ﷺ) على أنه كلمة الله للإنسانية. يهيئ القرآن ـ مثل النصوص المقدسة الأخرى ـ لقاءً مع الله، عابرًا الفجوة الهائلة بين عالمنا الفانى الهش، والمقدس.

انتظر أتباع محمد (ﷺ) بلهفة كل تنزيل جديد، وبعد أن يتلوه عليهم، يحفظونه عن ظهر قلب، ويكتبه من يعرف الكتابة منهم. لقد أسرتهم بلاغته، والتى رأوا أنها لا يمكن إلا أن تكون إلهية المصدر، ومن الصعب على غير العرب تقدير جمال القرآن، والذى لا تحفظه الترجمة. يبدو النص كما لو كان تكرارًا مملاً، وليس له بنائية ظاهرة، ولا حجة مستدامة، ولا رواية منظمة. ولكن لم يُصمم القرآن ليقرأ مرة واحدة. تم ترتيب سوره فى شكله النهائى، بحيث تكون الأطول فى البداية والأقصر فى النهاية، مما جعل الترتيب يبدو اعتباطيًا. تحتوى كل سورة على تعاليم رئيسية، ومن الممكن الانهماك فى أى سورة من النص، واكتساب دروس حاسمة.

مثل معظم العرب فى ذلك العصر، لم يكن محمد (ﷺ) يستطيع القراءة أو الكتابة. تعنى كلمة قرآن «القراءة». لم تهدف الكلمة إلى قراءة منفردة منعزلة، ولكن مثل معظم النصوص الدينية، المقصود بها القراءة بصوت عال [لجماعة المستمعين]، وكان الصوت جزءًا من التأثير. كان الشعر مهمًا عند العرب، فكان شاعر القبيلة هو المتكلم باسمها، ومؤرخها الاجتماعى، ومرجعها الثقافى، وتعلم العرب بمرور السنين كيفية الإصغاء لإلقاء الشعر، وكيفية تطوير أذن تتقن النقد وتحكمه[٩]. روى شعراء

الملاحم غرائبهم فى أسواقهم السنوية، لإثارة المستمعين من كل أنحاء الجزيرة. أقامت مكة كل عام فى سوق عكاظ مسابقة للشعر، وطرزت القصيدة الفائزة بالذهب على قطعة ثمينة من القماش الأسود، وعلقتها على جدران الكعبة. كان باستطاعة أتباع محمد (ﷺ)، والعرب بصفة عامة، تذوق الشعر ونقده، ووجدوا تكرار الأفكار والكلمات والعبارات والرتابة الصوتية، بمثابة التغيرات فى القطعة الموسيقية، والتى تطنب برقة ودقة من اللحن الأصلى، وتزيد عليه طبقة فوق طبقة من التركيب. التكرار فى القرآن مقصود، فقد ربطت أصداؤه الداخلية أفكاره وصوره وقصصه لدعم تعاليمه الأساسية، مع تحويل التركيز، كما ربطت المقاطع التى بدت منفصلة، ودمجت الأفرع المختلفة للنص القرآنى، حيث أكملت أو قيدت أو وضحت، أية آيات أخرى. كان على المستمعين له - مثل محمد (ﷺ) - أن يتشربوا تعليماته بروية، وينمو فهمهم، بعمق ونضج، مع الوقت، وساعدتهم لغة القرآن الثرية، والحافلة بالتلميحات والإيقاعات الصوتية، على التأنى فى إعمال فكرهم، والدخول فى مزاج آخر من الوعى.

يصف العالم الأمريكى مايكل سيلز ماذا يحدث عندما يدير سائق النقل العام فى سيارته المزدحمة فى اليوم الحار فى مصر، شريط قرآن: «يبدأ جو من التأمل الهادئ، وينتهى التسابق على الكراسى، ويخفض المتكلمون من أصواتهم، وتقل حدتها، يصمت الآخرون، ويغيبون فى أفكارهم، ويحل شعور بالتآلف محل العناء»[١٠]. ضبط الأنفاس ممارسة مهمة فى كل تقاليد التأمل. وجد ممارسو اليوجا أن ذلك يجلب شعوراً بالانفراج، يمكن مقارنته بما تجلبه الموسيقى لعازفها[١١]. يقرأ مرتلو القرآن كلماته فى زفير بطىء طويل، وعندما يتوقفون لالتقاط النفس، يتركون صمتًا للتدبر والتأمل. من الطبيعى أن يضبط المستمعون أنفاسهم كذلك، ويجدوا فى ذلك تأثيراً مهدئًا شافيًا، يتيح لهم التقاط التعاليم الضمنية فى النص.

لا يدوى القرآن بأوامر هادرة من عل، ويغير الخطاب الإلهى من الإشارة لنفسه بصفة مستمرة فى القرآن، مثل «نحن»، «إنا»، «هو» «ربكم»، «الله»، «أنا»، ليغير علاقته بكل من النبى (ﷺ) والمستمعين. ولا يوضح القرآن أن الله ذكراً(*). تبدأ كل سورة

(*) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] تنفى عن الله مسألة الذكورة والأنوثة التى تنطبق على بعض مخلوقات الله، وكما قال على بن أبى طالب: «كل ما تخيلته، فليس هو».

بالبسملة : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ . الله اسم مذكر ، ولكن الرحمن والرحيم ، مشتقتان من كلمة الرحم . ستجد تقريبًا في كل السور المبكرة النزول في القرآن حديثًا عن الإناث ، فمن تلميحات عن امرأة تحمل بطفل ، أو تضع مولودًا ، أو امرأة فقدت طفلها الوحيد ، أو استغاثة مؤثرة من وليدة من وأد أبويها غير الراضيين عن ميلادها(١٢) . كان هذا الحضور القوى للإناث مثيرًا للانتباه في مكة ذات المجتمع الشديد الذكورية ، وقد يفسر ذلك لماذا كانت النساء من أول من استجاب لرسالة القرآن .

خاطب الله الأفراد بحميمية في السور الأولى للقرآن ، مفضلاً عرض كثير من تعاليمه في شكل أسئلة : ألم تر؟ أفلا تبصرون؟ أفلا تعقلون؟ هل أتاك؟ . دعا القرآن كل مستمع لمساءلة نفسه ، وكان أي رد مبهمًا أو غير محدد ، تاركًا للمستمع فضاء يتدبره ولكن بدون إجابة قاطعة . لم تكن تلك الديانة الجديدة تسعى لتأكيد يقين متجاوز للطبيعة ، بل أراد القرآن أن يطور في الناس نوعًا مختلفًا من الوعي :

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الانفطار : ١٧ ـ ١٨] ، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ ، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة المطففين : ٨ ـ ٩ ، ١٩](١٣)

كان مفهوم اليوم الآخر المسيحي محوريًا في الرسالة المبكرة للقرآن . واعتقد محمد (ﷺ) أن مكة صارت في أزمة لأن قريشًا لم تعد تشعر بمسئولية حسابها عن أفعالها . في الصحارى ، قد يتكبر الكريم ويتغطرس بأنانيته ، ولكنه يحس بالمسئولية عن جميع أفراد قبيلته . أما قريش ، فقد كانت منشغلة في تكديس ثرواتها دون اعتبار لمآسي «الضعفاء» . بدت قريش وكأنها لا تدرك التبعات طويلة المفعول لأعمالها ، ولمواجهة تلك الغفلة ، علم القرآن الناس أن الله سوف يحاسبهم على أعمالهم ، في يوم الدين ، ذلك اليوم الحق(١٤) . سيضطر الناس في النهاية لمواجهة الحقائق التي حاولوا تجنبها ، وستمر عليهم حياتهم برؤية عكسية رهيبة لوجودهم السابق ، حيث يثبت لهم أن كل شيء اعتبروه في حياتهم راسخًا ومهمًا ودائمًا ، إنما هو زائل . تبدد سور أوائل التنزيل المتقطعة ، بأسلوب بالغ الدقة والجمال ، تلك الأوهام :

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾، ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ [سورة التكرير: ١ ـ ٧، ١٤][١٥].

ستختفى الشمس، والقمر، والنجوم، وستصبح إناث الجمال والماشية بلا قيمة، هى وما تحمله فى بطونها من مواليد. ولن تكون هناك قيمة إلا لما عمل الإنسان:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [سورة الزلزلة: ٦ ـ ٨][١٦].

الأفعال التى قد لا يكترث بها أو لها أحد فى الدنيا، ستثبت لها الأهمية الكبرى فى الآخرة، عمل صغير نابع من القسوة أو الأنانية، أو على العكس، عمل صغير نابع من الرحمة أو الكرم، قد يهوى بفاعله فى الآخرة، أو يرفعه الدرجات العلى:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾ [سورة البلد: ١٣ ـ ١٧][١٧].

من سيأتى بأعمال العدل (الصالحات) سيكون مآله الفردوس الأعلى، أما من اتبع هواه وأنانيته فى كنز الأموال على حساب حقوق الآخرين، فسيكون مآله نار جهنم. ولكن لم يكن القرآن ينذر برؤية فجة للجحيم، وفقرات وصف الجحيم حزينة وليست غاضبة. فصَّل التراث الإسلامى كلاًّ من الجنة والجحيم ويوم الحساب، ولكن بقى القرآن متحفظًا، ولغته غامضة ومحيرة، فيما يخص تلك الغيبيات. الأكثر أهمية، أن القرآن يدفع مستمعيه لمواجهة «الحساب» فى الحاضر أيضًا. فيوم «الحساب» ليس هو فقط الآتى فى آخر الزمان، بل هو أيضًا «لحظة الحقيقة» هنا والآن. فالتحقيق والمساءلة الحميمة واستخدام الفعل المضارع، كل ذلك يدفع المستمعين للقرآن لمواجهة تبعات أعمالهم يومًا بيوم.

كيف يصبح حال الإنسان يوم الحساب عندما يدرك أنه أضاع حياته، وأن الوقت أصبح متأخرًا لتعويض ذلك؟

يذكر القرآن الناس بما يجب أن يفعلوه فى حياتهم ليكسبوها، وليكسبوا آخرتهم، حين يقول الإنسان: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤﴾ [سورة الفجر: ٢٤]. ويسأل القرآن بإلحاح ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦﴾ [سورة التكوير: ٢٦][١٨].

البشر ليسوا سيئين بالفطرة، ولكنهم ينسون، ويريدون أن يتغافلوا عن أفكارهم الفطرية بدفعها في غياهب عقولهم، ولذلك فهم فى حاجة دائمة للتذكير ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: ١٢ ـ ٢٢][١٩] . يحث الله محمدًا ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ . لذلك يجب على الناس أن يزنوا أفعالهم ويحاكموا أنفسهم، وأن يمارسوا فضيلة التقوى. يجب دائمًا أن يجاهدوا الأنانية والطمع والتكبر. وبدلاً من أن يرعبوا أنفسهم بالخوف من نار الجحيم، عليهم أن يتأملوا آيات الله ويتدبروا كرمه فى حياتهم الطبيعية، ويتمثلوا إحسانه:

> ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝٣٣ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [سورة إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: ١٣][٢٠].
>
> ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

الكون كله حجاب لصانعه، تعاقب الليل والنهار، والشمس والقمر، والأمطار التى تجلب الحياة ، وبديع خلق البشر، كل ذلك آيات من الخالق. إذا تأمل البشر تلك الآيات باستمرار وبأساليب معرفية، لوعوا أن وراءها حقيقة تتجاوز إدراكهم، ولامتلؤوا بالعرفان لنعم تلك الحقيقة عليهم.

كانت قريش تزدرى الضعيف، واعتقدت أن الفقر والفشل ينمان عن نقص متأصل فى النبالة، ولذلك لم تشعر قريش بأى واجب نحو الفقراء أو اليتامى أو الأرامل، ولكن إذا عرفوا حاجتهم لله فى كل لحظة فى حياتهم، لقدروا هشاشتهم، ولروعتهم

عجائب الله وهذبت كبرياءهم، ولتخلوا عن غطرسة استغنائهم بأنفسهم، وعن تكبرهم الرافض للركوع لأى بشر، وحتى للمقدس. أراد محمد (ﷺ) من كل رجل وامرأة وطفل فى مكة أن ينمى داخله تواضعًا وعرفانًا بنعم الله عليه، وبذلك يتميز الإنسان.

لم يكن محمد (ﷺ) ليكتفى بالعمل ظاهريًا فى سبيل برنامج اجتماعى، فقد اعتقد أنه بدون تغير ما فى النفس، لن يكون أى برنامج سياسى بحت إلا أمرًا سطحيًا. من أجل ذلك، عَلَّم مجموعة تابعيه الصغيرة العبادات التى تزرع فى أنفسهم ذلك التغيير. أولاً: عليهم أن يجتمعوا فى الصلاة، ويذكرهم السجود فى كل صلاة بوضعهم الطبيعى أمام إلههم. وفى دنياهم، تقطع الصلاة أعمالهم المعتادة، وتساعدهم على تذكر أن الله هو مطلبهم الأهم. كان من الصعب على الرجال والنساء الذين تربوا على تعاليم المروءة أن ينبطحوا على الأرض، كالعبيد، وانزعج كثير من القرشيين من هذا الوضع المذل. ولكن تلك الحركة الجسدية المكررة فى الصلاة ترمز للتسليم التام لله. إنها علمت أجسادهم بمستوى أعمق من العقلانى أن تنحى جانبًا الدوافع الشخصية للتفاخر والتبختر بغطرسة. أصبح المسلم، رجل أو امرأة، هو من يسجد بإذعان، ويفخر بأنه عبد الله.

ثانيًا: كان مطلوب من كل من أعضاء الأمة الإسلامية أن يعطى جزءًا من دخله صدقة للفقراء. طهرت هذه الزكاة الكرم البدوى التقليدى من الغرور والمظهرية، فبدلاً من عرض سخائهم الزائد، أصبح عليهم أن يقدموا إسهامًا منتظمًا، غير لافت للنظر ولا للشهرة لفقراء العشيرة. لم يعد الكريم هو من قد ينفق ثروته الكاملة فى ليلة واحدة، وصار الكريم هو من لا يكل من ممارسة أعمال الخير والعدالة. وكان الإيمان الجديد يسمى فى هذه المرحلة «تزكية الأنفس»[٢١] بالعطف على الفقير والمحتاج، وتحرير العبيد، وممارسة الأعمال الطيبة يوميًا، بل فى كل ساعة. تعلم المسلمون فضيلة التكافل، وتشربوا تدريجيًا روح رعاية الآخر امتثالاً لكرم ورعاية الله لهم، وطهروا قلوبهم من الكبر والأنانية، وزكوها بالنقاء والصفاء.

حافظ محمد (ﷺ) على سرية الدعوة لمدة ثلاث سنوات، فكان يدعو فقط أشخاصًا مختارين بعناية، ولكن أمره الله فى عام (٧ ق. هـ/ ٦١٥م) بما أرعبه: أن

يبلغ رسالته لجميع عشيرة بنى هاشم، فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [سورة الشعراء: ٢١٤][٢٢].

أخبر محمد (ﷺ) عليًا بأن المهمة أكبر من طاقته، ولكنه تحملها، ودعا أربعين من كبار عشيرته إلى وجبة متواضعة، كان ذلك فى حد ذاته جزءًا من الرسالة، فليس بعد اليوم إسراف مظهرى فى الضيافة؛ لأن الترف ليس فقط إضاعة للمال، بل إنكارًا للجميل ونفيًا للعرفان، وتبذيرًا غير شاكر لنعم الله:

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الإسراء: ٢٦، ٢٧][٢٣].

وعندما حضر كبار العشيرة، احتاروا عندما قدم لهم علىّ ساقًا من الضأن وكوبًا من اللبن. وروى علىّ القصة بعد ذلك بما يشبه ما فعله عيسى (ﷺ) عندما أطعم الألوف بضعة أرغفة، فقد أكل بنو هاشم حتى امتلؤوا بذلك الطعام البسيط. وبعد الانتهاء من الطعام، وقف محمد (ﷺ) ليخبرهم عن الوحى وتعاليم الإسلام، ولكن قاطعه أبو لهب - الأخ غير الشقيق لأبى طالب - بوقاحة قائلاً للجميع: لقد سحركم محمد. وانفض الاجتماع بطريقة غير سوية.

ودعاهم محمد (ﷺ) فى اليوم التالى، واستطاع أن يعرض عليهم ما أراده فى اليوم السابق، ثم ختم حديثه لهم قائلاً: يا أبناء عبد المطلب، لا أعرف أحدًا من العرب جاء لقومه برسالة أنبل مما جئتم به. لقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه، فمن منكم سوف يؤازرنى فى تبليغ الرسالة، كأخى، ومساعدى، وخليفتى؟.

صمت بنو هاشم، ونظر بعضهم إلى بعض فى هرج، فهم ما زالوا يتذكرون محمدًا الصغير الذى يعيش على مساعدات أقربائه. كيف يجرؤ على أن يدعى أنه نبى الله؟. حتى ابن عمه جعفر، وابنه بالتبنى زيد لم يجرؤا على الكلام، وأخيرًا لم يستطع على الفتى المراهق الطائش ذو الثلاثة عشر عامًا أن يتحمل أكثر من ذلك، فصرخ قائلاً: يا نبى الله، سوف أكون مساعدك فى هذه الرسالة! فوضع محمد (ﷺ) يده برفق على عنق الفتى قائلاً: «هذا هو أخى، ومساعدى وخليفتى بينكم»، ثم قال: «اسمعوا له»، فانفجر الكبار ضاحكين: لقد أمرك أن تستمع لابنك وتطيعه! صرخوا فى وجه أبى طالب وهم يخرجون من المنزل.

قال الطبرى: قال رسول الله (ﷺ): «يا بنى عبد المطلب، والله ما أعلم شابًا فى العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، إنى جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟». قال على: فأحجم القوم عنها جميعًا وقلت ـ وإنى لأحدثهم سنًا وأرمصهم عينًا، وأخمشهم ساقًا ـ: أنا يا نبى الله أكون وزيرك عليه. فأخذ برقبتى فقال: «إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا». قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع. [تاريخ الطبرى: ٢/ ٢١٧](٢٤).

لم يثن ذلك الإذلال محمدًا (ﷺ) عن الاستمرار فى الجهر بدعوته فى المدينة، ولكن بنجاح شبه معدوم. لم ينتقد أحد دعوته الاجتماعية، فهم يعرفون أن المروءة تقتضى أن يشركوا فى أموالهم فقراء عشائرهم، فالأنانية والطمع أمر، ولكن الدفاع عنهما أمر مختلف. اعترض معظم الناس على مسألة يوم الحساب، وقالوا ببساطة ما هذا إلا خرافة، مثل حكايات عجائز النساء. كيف تحيا الأجساد التى تحللت وأصبحت عظامًا؟ وهل محمد (ﷺ) جاد فى قوله إن آباءهم المبجلين سوف يقومون من قبورهم «ليقفوا للحساب أمام رب العالمين»؟.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة والصافات: ١٢ ـ ١٩](٢٥).

﴿أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾ [سورة المطففين: ٤، ٥]،

يجيب القرآن بأنه لا يوجد من يستطيع إثبات أنه لن تكون هناك حياة بعد الموت، وإذا كان الله قد خلق الإنسان من نطفة، فيمكنه بسهولة إحياء جسد ميت:

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ

توقدون ﴿٨٠﴾ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴿٨١﴾ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴿٨٢﴾ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴿٨٣﴾﴾ [سورة يس: ٧٧ ـ ٨٣]، ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الجاثية: ٢٦][٢٦].

ويشير القرآن إلى أن هؤلاء الذين يسخرون من البعث إنما هم من لا يريدون التوقف عن قمعهم للآخرين، وعن تصرفاتهم الأنانية. وعندما يواجههم القرآن بالإصرار على سؤالهم عن القيمة النهائية أو الجوهرية لحياتهم، يتهربون بالأفكار والاستخفاف من السؤال:

﴿ويل يومئذ للمكذبين ﴿١٠﴾ الذين يكذبون بيوم الدين ﴿١١﴾ وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ﴿١٢﴾﴾ [سورة المطففين: ١٠ ـ ١٢][٢٧].

ولكن برغم جحد قريش لدعوة محمد (ﷺ)، فمعظمهم اقتنع بترك محمد (ﷺ) فى حاله، فقد كانوا رجال أعمال، شهيتهم ضعيفة للجدال الفكرى، وعرفوا أن صراعًا داخليًا خطيرًا سوف يضر تجارتهم. ورأوا أنه، على أى حال من الأحوال، تلك العصابة الصغيرة من حفنة العبيد، والشباب الغاضب، والتجار الفاشلين، لا تشكل تهديدًا حقيقيًا، وأن مصير حركتهم المحتوم هو التلاشى.

كان محمد (ﷺ) نفسه حريصًا على تفادى أى صدع فى قريش، ولم تكن لديه أى رغبة فى الإضرار بمكة «أم القرى». وعرف أن بعضًا من قريش توجس من أنه يريد أن يصبح ملكًا عليهم، وكانت الملكية فكرة بغيضة لدى العرب، نظروا إليها بعين الشك. ولكن لم يكن لدى محمد (ﷺ) طموحات سياسية، وأخبره الله فى القرآن بحسم أنه فقط نذير، يحذر قريشًا، ويخاطبهم بتواضع، ولا يستفزهم، ولا يهاجم آلهتهم، وعليه ألا يسعى للرئاسة عليهم، وذلك ما قد فعله الأنبياء العظام من قبل:

﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٠٨][٢٨].

وأن يكون خيّرا، ومؤثرًا للغير، وألا يعتد برأيه، وألا يتتبع عورات الآخرين، وأن يضع الصالح العام للأمة فى المقدمة. فالنبى أولاً، وقبل كل شىء، هو «من أسلم وجهه لله»:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾ [سورة يونس: ٧٢][٢٩].

لم يركز محمد (ﷺ) فى مرحلته الأولى على مضمون التوحيد فى دعوته لتجنب الخلاف مع قريش. مثل الأحناف، اعتقد محمد (ﷺ) بوحدانية الله، ولكنه لم يشجب فى البداية عبادة الأصنام حول الكعبة، أو الغرانيق الثلاثة. ومثل معظم الحكماء المتدينين العظام، لم يكن ذا اهتمام بالغ بالآراء العقائدية[٣٠]، فتأملات ما وراء الطبيعة [علم الكلام أو الفلسفة] تنزع إلى خلق البلبلة، إن لم يكن الشجار والانقسام بين الناس. كانت «ممارسة أعمال الخير والعدالة» أكثر أهمية من الإصرار على تحديد القناعات العقائدية، الأمر الذى قد يخرج الكثير ممن يريد محمد (ﷺ) كسبهم فى دعوته. ولكن كان التوتر يتفاقم، ففى عام (٦ ق. هـ/ ٦١٦م) هاجم بعض القرشيين المسلمين أثناء صلاتهم فى أحد الوديان الصغيرة المنعزلة خارج مكة. صدم الحدث الجميع فى مكة، وحاول الجانبان باستماتة التعايش بتسوية ما. قد يكون هذا ما قاد إلى «الآيات الشيطانية» ذات السمعة السيئة[٣١]. لم يرو تلك الحادثة سوى اثنين من مؤرخى السيرة النبوية الأوائل، ويرى أكثر العلماء أنها مشكوك فيها، برغم أنه يصعب أن نجد سببًا لأن يضع أحد مثل تلك الحادثة. أكد كل من ابن سعد والطبرى على رغبة محمد (ﷺ) على أن يسود الوفاق مكة: قال ابن سعد إنه بسبب رغبة محمد (ﷺ) فى ألا ينشق صدع بينه وبين قريش، جلس خاليًا فتمنى، فقال: «ليته لا ينزل على شىء يصدهم عنى».

قال ابن سعد: «رأى رسول الله (ﷺ) من قومه كفا عنه، فجلس خاليًا فتمنى فقال: ليته لا ينزل على شىء ينفرهم عنى». [الطبقات: ١/ ١٧٤][٣٢].

وقال الطبرى: «لما رأى رسول الله (ﷺ) تولى قومه عنه، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من الله، تمنى فى نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه، وكان يسره مع حبه قومه وحرصه عليهم، أن يلين له

بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم، حتى حدث بذلك نفسه، وتمناه وأحبه».
[تاريخ الطبرى، ط دار المعارف: ٢/ ٣٣٨][٣٣].

استأنف الطبرى روايته: وفى يوم من الأيام كان محمد (ﷺ) يجلس بجوار الكعبة مع بعض الكبار، يرتل سورة جديدة [سورة النجم]، أراد الله فيها أن يطمئن نقاد محمد (ﷺ): لم ينو محمد (ﷺ) أن يسبب كل هذا الإشكال، وأصر الوحى أن محمداً لم يخدع، ولم يمسه جنى، وإنما جاءته رؤية حقيقية من الوحى المقدس، وهو ببساطة يخبر قومه بما رأى وسمع.

﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾[٣٤].

ولكن ذهل محمد (ﷺ) عندما وجد نفسه يتلفظ ببعض آيات عن الغرانيق الثلاثة «بنات الله»: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ وهنا وقفت قريش تصغى بانتباه، فقد أحبت قريش الآلهة التى تتوسط بينها وبين الله، فأكمل محمد (ﷺ) تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى(*).

يزعم الطبرى أن الشيطان ألقى بتلك الكلمات على لسان محمد (ﷺ). هذه فكرة إنذارية شديدة للمسيحيين الذين يعتبرون الشيطان كائنًا ذا شر هائل. يعرف القرآن، على وجه التأكيد، قصة الملاك الخاطئ الذى تحدى الله، ويسميه إبليس (من الكلمة الإغريقية diabolos، أى شيطان)(**). ولكن الشيطان الذى ألقى بتلك الكلمات التى تطرى آلهة قريش على لسان محمد (ﷺ) كان قليل الخطورة. الشياطين هم ببساطة نوع من الجن، يغوون البشر بمخاطبة طموحاتهم السطحية والفارغة لينحرفوا عن الصراط المستقيم. الشياطين مثل كل الجن، موجودة فى كل مكان، ضارة وخطيرة، لكن ليس على مستوى إبليس. وكان محمد (ﷺ) يتطلع إلى سلام مع قريش، وكان يعرف مدى تعلقهم بآلهتهم [الغرانيق]، وربما كان قد فكر فى أنه إذا استطاع أن يدمج الغرانيق فى دينه، فقد ينظرون بعين أكثر عطفًا على رسالته. وعندماقرأ تلك الآيات الشاذة، كانت رغبته الداخلية تتكلم، وليس كلام الله، وتبين أن تصديق شفاعة الغرانيق كان خطأ. وعزا محمد (ﷺ) ذلك، مثل كل العرب، إلى الشيطان.

(*) فَنَّد علماء الحديث تلك الرواية الموضوعة، ومع هذا لا يكاد يخلو كتاب لمستشرق عن سيرة النبى ﷺ عن ذكرها، وانظر هامش صفحة ٦٥ ماذا يقول القرآن عن محمد ﷺ لو أضاف شيئًا من عنده.

(**) فعل أبلس معناه: سكت لحيرة أو انقطاع حجة، وفى التنزيل العزيز: ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ [سورة الروم: ١٢].

لم يعن محمد (ﷺ) أن «الغرانيق الثلاثة» ترقى إلى مستوى الله، ولكنها كانت، ببساطة، وسيطات، مثل الملائكة التى صدقت السورة على وساطتها:

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦)﴾ [سورة النجم: ٢٦][٣٥].

دائمًا ما رأى اليهود والمسيحيون مثل تلك الوساطة متوافقة مع توحيدهم. بدت الآيات الجديدة إيماءات ملائمة، ونزل تأثيرها على قريش كالصاعقة، وما إن تلى محمد (ﷺ) ترتيله حتى سجد(*)، ولعجبه، فقد سجد كبار قريش، واضعين جباههم على الأرض بتواضع.

انتشر الخبر فى مكة انتشار النار فى الهشيم: «لقد تكلم عن آلهتنا بطريقة رائعة! لقد زعم أن شفاعتهن ترتجى».

قال الطبرى: «وخرجت قريش، وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم، ويقولون: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، قد زعم فيما يتلو: «أنها الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن ترتجى» [تاريخ الطبرى: ٢/ ٣٣٨][٣٦].

قال ابن سعد: «قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، وأما إذا جعلت لها نصيبا فنحن معك. فكبر ذلك على رسول الله» [الطبقات: ١ / ١٧٠][٣٧].

ولكن احتار محمد (ﷺ)، فهل قريش جادة فى تعديل طريقة حياتها، فتشرك الفقراء فى ثرواتها، وترضى بأن يصبح القرشيون «عبيدًا» لله؟. لم يبد ذلك محتملاً. لقد كان أيضًا منزعجًا من كلمات كبار قريش المهللة، فهو بكل تأكيد لم يقصد أن يشير لأن الغرانيق «شركاء لله». وبينما كان الجميع يحتفلون، ذهب محمد (ﷺ) إلى منزله ليعتزل الناس ويتدبر. فى تلك الليلة، جاءه جبريل: «ماذا فعلت يا محمد؟ لقد رتلت على هؤلاء الناس ما لم أوح لك به، وقلت ما لم يقله الله لك!»:

قال الطبرى: «وأتى جبريل رسول الله (ﷺ) فقال يا محمد، ماذا صنعت! لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل، وقلت ما لم يقل لك. فحزن

(*) تنتهى سورة النجم بالآية الآتية: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾.

رسول الله (ﷺ) عند ذلك حزنًا شديدًا، وخاف من الله خوفًا كبيرًا، فأنزل الله عز وجل ـ وكان به رحيمًا ـ يعزيه ويخفف عليه الأمر، ويخبره أنه لم يك قبله نبى ولا رسول تمنى كما تمنى ولا أحب كما أحب، إلا والشيطان قد ألقى فى أمنيته، كما ألقى على لسانه (ﷺ). فنسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، أى فإنما أنت كبعض الأنبياء والرسل. فأنزل الله ـ عز وجل ـ من سورة الحج الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾ [تاريخ الطبرى: ٢/ ٣٣٩](٣٨).

شوهت رغبة محمد (ﷺ) فى حل وسط الرسالة الإلهية، وذهبت نفس محمد (ﷺ) من الألم، ولكن سرعان ما عزاه الله بتزيل جديد. كل الأنبياء السابقين زلوا فى أخطاء «شيطانية» مماثلة. كان هناك دائمًا صراع لجعل التنزيل جديراً بالإقناع، وما كان أسهل الوقوع فى خلط فيض الإلهام مع الأفكار السطحية للموحى إليهم(*). واستمر التنزيل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾ [سورة الحج : ٥٢].

وهنا تأسس مفهوم مهم. يمكن لله أن يغير وحيه فى وقت التنزيل لنبى معين، حيث كان الوحى متتابعًا: ويمكننا أن نقول بأن محمدًا (ﷺ) رأى فى بعض الأحيان ضمنيات جديدة فى رسالته، توافق بعضًا من رؤاه المبكرة.

كان على محمد (ﷺ) الآن، أن يذهب إلى قريش بآيات جديدة تُعَدِّل تلك «الشيطانية». سألهم الله مرة أخرى:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا

(*) جاء فى سورة الحاقة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾.

﴿من سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣)﴾ [سورة النجم: ١٩ ـ ٢٣][٤٠] .

لقد كان ذلك بمثابة صفعة على وجه قريش! لم تكتف بنفى شراكة الغرانيق فى الألوهية، بل أهانت السلف المبجل. لماذا يستحيل على القرآن ضم تلك الغرانيق إلى صف الملائكة؟ لماذا يحطم القرآن فرصة السلام مع قريش بذلك الرفض الحاسم لإخلاص قريش ـ الذى يبدو غير ضار ـ لآلهتها؟ .

بعد أربع سنوات من الإسلام، لم يعد المسلمون يستطيعون أخذ ديانة قريش التقليدية بجدية. وما زال الله فى نظر معظم القرشيين إلهًا بعيدًا عاليًا، لا يتدخل فى حياتهم اليومية، أما المسلمون منهم فلم يروا ذلك، فقد جعل جمال القرآن الله حقيقة آسرة نابضة بالحياة، فعندما يسمعون القرآن:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ [سورة الزمر: ٢٣][٤١] .

وكلمة الله هى حقيقة نافذة يتصدع لها الكون من الخشوع ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [سورة الحشر: ٢١][٤٢]. أصبح الله الآن مختلفًا تمامًا عن آلهة قريش، وأخطأت «الآيات الشيطانية» عندما اقترحت أن الإسلام يماثل الديانة المكية القديمة. إنه لأمر جدير بالسخرية أن يتصور أحد أن الأوثان الحجرية للغرانيق قد تؤثر على إله الإسلام.

بدأ القرآن فى توضيح الفارق، فالآلهة الأخرى عاجزة وغير فعالة مثل رؤساء القبائل الضعفاء، فهى لا تستطيع توفير الطعام لعبدتها، كما يفعل الله حين يرزق كل من على الأرض، وهى لا تستطيع التشفع لعبدتها يوم الحساب، فالله ليس كمثله شىء:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)﴾، [سورة يونس: ١٨]، ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧)﴾ [سورة العنكبوت : ١٧]، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣)﴾ [سورة الزمر : ٤٣][٤٣].

بعد التبرؤ من «الآيات الشيطانية» بمدة قصيرة، نزلت سورة الإخلاص:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [٤٤].

أصبح التوحيد هو الركيزة الأساسية في الإسلام الروحى. لم يكن التوحيد مجرد تأكيد غيبى لما فوق الطبيعة عن وحدانية المقدس، وإنما هو ـ مثل كل تعاليم القرآن ـ دعوة للعمل. ولأنه لا يمكن مقارنة الله، فالمسلمون ليسوا مطالبين فقط بعدم تبجيل الأوثان، بل عليهم أيضًا أن يضمنوا ألا تنحرف بهم أى حقائق أخرى عن الله، أما الثروة، والبلد، والعائلة، والرفاهية المادية، حتى المثاليات النبيلة مثل الحب والوطنية، فتحتل المركز الثانى؛ لأن التوحيد يتطلب من المسلمين أن تتكامل حياتهم. وفى كفاح المسلم لكى يصبح الله أهم ما فى حياته، سوف تنكشف للنفس السوية وحدانية الله. ربما فى تلك الفترة كان على المسلمين الجدد النطق بالشهادة: أشهد أن لا إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

لم تكن قريش لتصدم بالتوحيد فى حد ذاته، فهو لم يكن فكرة جديدة بالنسبة لهم. فلقد وجدوا منذ زمن طويل أن اليهودية والمسيحية تتوافقان مع تقاليدهم، ولم ينزعجوا، بشكل خاص، من محاولة الحنيفيين خلق توحيد عربى أصيل. ولكن محمداً (ﷺ) كان يفعل شيئًا مختلفًا، فقد بقى معظم الحنيفيين على احترامهم العميق للحرم، ولم يبذلوا أى محاولات لإصلاح النظام الاجتماعى. ولكن مهاجمة محمد (ﷺ) لأصنام الكعبة، عنت أن الحرم الذى يقوم عليه الاقتصاد المكى عديم القيمة. فقبائل البدو لم تكن تأتى للحج إلا من أجل عبادة أصنامها، تلك العبادة التى أدانها القرآن إدانة مطلقة[٤٥]. وكانت قريش تتوسل إلى «غرانيقها العلى» وهى تطوف بالكعبة، وأصبح ذلك الآن، وفقًا للقرآن، ضلالاً وخداعًا للنفس.

كانت واحة الطائف التى تعبد اللات، تمد مكة بالطعام، وكان لكثير من أثرياء مكة بيوت صيفية فى الطائف، فكيف تبقى الطائف على صداقتها مع مكة إذا تغاضت الأخيرة عن سب آلهتها؟.

أصبح محمد (ﷺ) بين عشية وضحاها «العدو». وقد أرسل زعماء قريش وفدًا إلى أبى طالب يسألونه التبرؤ من ابن أخيه، حيث لم يكن أحد يستطيع البقاء حيًا فى الجزيرة العربية بدون حام يجيره، ومن تتبرأ منه قبيلته يصبح مباح الدم، دون خوف من انتقام أحد. ولم يكن أبو طالب مسلمًا، ولكنه كان يحب محمدًا (ﷺ)، وأصبح فى موقف بالغ الصعوبة. أراد أبو طالب التوفيق، ولكن جاءه إنذار نهائى من قريش «لن نصبر على شتم آبائنا وتسفيه تقاليدنا وإهانة آلهتنا»، ثم هددوه قائلين: «إن لم تخلصنا منه، سوف نحاربكم حتى نهلك أو تهلكوا». نادى أبو طالب محمدًا (ﷺ) وتوسل إليه أن يتوقف عن وعظه المدمر: «أبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق، فظن محمد الله (ﷺ) أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته، والقيام معه، فقال: «يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته». ثم بكى، فلما ولى، ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا بن أخى، قل ما أحببت، فوالله لا أسلمك أبدًا».

> قال ابن إسحاق: يا بن أخى، إن قومك قد جاءونى فقالوا: كذا وكذا، للذى قالوا له، وآذونى قبل، فأبق على وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، واكفف عن قومك ما يكرهون من قولك هذا الذى فرق بينا وبينهم، فظن رسول الله (ﷺ) أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وأنه خاذله ومسلمه، وضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله (ﷺ): «يا عم! لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فى طلبه»، ثم استعبر رسول الله (ﷺ) فبكى، فلما ولى قال له - حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله (ﷺ): أقبل يا ابن أخى، فأقبل عليه، فقال: امض على أمرك وافعل ما أحببت، فوالله لا نسلمك بشىء أبدًا. [السيرة النبوية: ص ٢٠١][٤٦].

بقى محمد (ﷺ) سالمًا، طالما أسبغ عليه أبو طالب حمايته، فلا يجرؤ أحد على مسه.

كان أبو طالب شاعرًا موهوبًا، عرف كيف ينظم أبياتًا عاطفية فى تلك العشائر التى تخلت عن بنى هاشم فى وقت الحاجة. استجاب بنو عبد المطلب بإعلان تضامنهم، ولكن شاب ذلك انشقاق أبى لهب، الأخ غير الشقيق لأبى طالب، الذى عارض محمدًا (ﷺ) منذ بدء الأمر، وكان قد خطب ابنتى محمد (ﷺ) رقية وأم كلثوم

إلى ابنيه، فأمر ابنيه بفسخ العلاقة. وهنا تقدم الشاب المسلم الجميل، والثرى ذو الحسب والنسب، عثمان بن عفان ليخطب رقية، إحدى أجمل فتيات مكة.

تفاقمت كراهية كبار قريش لمحمد (ﷺ)، خاصة أولئك الذين فقدوا أعضاء من عائلاتهم دخلوا الإسلام، وكانوا يتباهون بأنهم يعطونه ظهورهم عندما يسمعونه يتكلم عن «الإله الواحد»، فى الوقت الذى يبتهجون عند سماع سيرة الآلهة الأخرى:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الإسراء: ٤٦]، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الزمر: ٤٥][٤٧].

لقد طالبوا الجميع بأن يتمسكوا بما ورثوه من تقاليد آبائهم، فهذا هو الأمر السوى الوحيد، وكل ما يقوله محمد (ﷺ) عن الوحى ما هو إلا خيال! لقد ابتدع محمد (ﷺ) كل ذلك، وإن نزل وحى من السماء، فلماذا ينزل على محمد (ﷺ) بالذات من دون كبراء وأثرياء قريش؟.

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ [سورة ص: ٦][٤٨].

وقالوا عن محمد (ﷺ) تارة إنه مجنون، وتارة إن جنًا قد مسه، وما هو إلا مشعوذ يخدع شباب مكة الصغير، فيضلهم عن دين آبائهم بسحره:

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [سورة ص: ٥][٤٩].

وعندما كان يطالبه الناس بتصديق رسالته بأن يأتى بمعجزة ـ مثلما فعل موسى وعيسى ـ كان يعترف لهم بأنه مجرد بشر مثلهم:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ [سورة فصلت: ٦][٥٠].

كان من بين من اعترضوا على محمد (ﷺ) بعض من أكبر زعماء مكة، فى مقدمتهم أبو الحكم بن هشام، وهو رجل طموح سريع الغضب، أزعجه الإسلام بشدة بالغة، وأمية بن خلف البدين، وأبو سفيان الشديد الذكاء ـ والذى كان صديقًا شخصيًا

لمحمد (ﷺ) ـ مع حميه عتبة بن ربيعة، وأخيه. وكان محمد (ﷺ) يطمع في أن يكسب سهيل بن عمرو، كبير عشيرة عامر، والذي كان يعتزل ـ مثل محمد (ﷺ) ـ في جبل حراء. كذلك أسفر بعض رجال مكة المتميزين عن عدائهم القاسي للإسلام، منهم المحاربان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، وكان أكثرهم عداء عمر بن الخطاب، ابن أخت أبي الحكم، وأكثرهم إخلاصًا لدين الآباء. وبينما كان كبار مكة يتحينون بحذر الفرصة ضد محمد (ﷺ)، كان عمر مستعدًا لأساليب أكثر تطرفًا.

أصبح محمد (ﷺ) فاقد الأمل في تغيير المؤسسة المكية، وأدرك أن عليه التركيز على الفقراء الأقل إخلاصًا للنظام المكي السائد، والذين كانوا يتطلعون إلى رسالة. مَثَّل ذلك نقطة تحول هامة، سجلها القرآن بأسلوب حاد.

كان محمد (ﷺ) منشغلاً تمامًا في محاولة إقناع أحد كبراء مكة، عندما جاءه ذات يوم أعمى يسأله عن الإسلام، فأعرض عنه محمد (ﷺ) عابسًا ليتم حديثه مع الآخر، فنزل القرآن يؤنب محمدًا (ﷺ) في سورة عبس:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠)﴾ [سورة عبس: ١ ـ ١٠][٥١].

أنب القرآن محمدًا (ﷺ) بشدة؛ لأنه على النبي أن يسعى وراء كل أعضاء المجتمع بنفس درجة الاهتمام والاحترام، فالقرآن نزل للجميع على السواء، وكان على محمد (ﷺ) ألا ينزلق في عيوب مروءة قريش، فيعبس ويتولى، ويحجب نعمة الله عليه عن الأعمى.

عادة ما تتم ترجمة كلمة كافر إلى «عديم الاعتقاد»، ولكن تلك ترجمة مضللة[٥٢]. لم يكن محمد (ﷺ) في صراع مع كل معتقدات أبي الحكم وأبي سفيان، وفي الحقيقة، كان الكثير من معتقداتهم صحيحة، منها على سبيل المثال، أنهما كان يعتقدان ـ بلا شك ـ أن الله هو خالق العالم، وهو رب الكعبة:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١)﴾ [سورة العنكبوت: ٦١] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾ [سورة العنكبوت: ٦٣][٥٣].

المشكلة أنهم لم يكونوا يترجمون معتقداتهم إلى أفعال. لقد كانوا يجحدون المعانى الحقيقية لآيات الله الخيرية فى خلقه، والتى تطلب من البشر تقليدها فى كل تعاملاتهم. فعلى البشر بدلاً من الاستخفاف بالضعفاء وظلمهم، أن يخفضوا لهم جناح الرحمة والإحسان:

﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [سورة النحل: ٧١]، ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)﴾ [سورة الشعراء: ٢١٥][٥٤].

كلمة «كافر» مشتقة من «كفر» والتى تعنى أن المرء رفض بفظاظة ما قدم له بكل كرم وطيبة، فعندما كشف الله لأهل مكة عن ذاته، رفضه بعضهم بإزدراء ووقاحة[*]. لا يوبخ القرآن الكافرين على اعتقادهم، بقدر ما يوبخهم على تكبرهم[٥٥]. كانوا متغطرسين ومتكبرين، تصوروا أنهم من طبقة أعلى من فقراء ومساكين مكة الذين يستحقون الاحتقار. وبدلاً من إدراك اعتمادهم النهائى على الله، ظلوا فى اعتبار أنفسهم مستغنين عنه، ورفضوا الانحناء له، أو لأى شخص آخر. يشعر الكافرون بتضخم شخصياتهم، وينتفخون من الزهو بذواتهم، ويعاملون الآخرين باستعلاء، وسرعان ما يغضبون بعنف أحمق عندما يظنون أنهم طعنوا فى شرفهم؛ لأن لديهم قناعة كبيرة بأن طريقة حياتهم أفضل من أى قوم آخرين، ويسخطهم أى نقد لتقاليدهم:

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦)﴾ [سورة الأعراف: ٧٥، ٧٦]، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧)﴾ [سورة المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٧]، ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ

(*) كفر تعنى فى العربية غطى، وتعنى فى المصطلح القرآنى من عرف حقيقة الدين ثم غطاها بجحود وإنكار.

عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [سورة لقمان: ١٧، ١٨]، ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة ص: ٧١ ـ ٧٥]. ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الزمر: ٥٩][٥٦].

وكانوا ينخرون بخياشيمهم عند تلاوة محمد (ﷺ) للقرآن، ليبلبلوا الناس، معتقدين أن تلك حيلة لإظهار ذكائهم فى صرف الناس عن محمد (ﷺ):

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الحجر: ٩٤ ـ ٩٦]، ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة الكهف: ١٠٦]، ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٣٦]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحج: ٨، ٩]، ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [سورة غافر: ٤، ٥][٥٧].

ولم يكن يسعهم أن يفكروا فى أى جديد يخالف مواريثهم؛ لأن قلوبهم كانت غلفًا، مختومًا عليها ومغلقة، وصدأة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [سورة البقرة: ٦، ٧]، ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ④ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ⑤﴾ [سورة فصلت: ٣ ـ ٥]، ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑭﴾ [سورة المطففين: ١٤] (٥٨).

كانت الجاهلية داء الكافرين العضال. يستخدم المسلمون ذلك المصطلح بمعنى الفترة السابقة للإسلام فى الجزيرة العربية، ويطلقون عليها ـ بطريقة تقليدية ـ فترة الجاهلية. ومع أن جذر الكلمة «جهل» بمعنى عدم العلم، فمعناها الرئيسى هو العنف المزمن فى الاعتداء على الآخرين، والانتقام منهم نتيجة الغضب السريع والحساسية الزائدة للشرف والمكانة(٥٩)(*). كان أهل الجاهلية أكثر تكبراً من أن يستسلموا، ويسلموا أنفسهم للشرع الجديد: الإسلام. لماذا يجب على الكريم أن يهذب أسلوبه، ويتصرف مثل العبيد، فيصلى وأنفه فى الأرض، ويعامل الطبقة الدنيا كأنداد؟. أطلق المسلمون على أبى الحكم، عدوهم الرئيسى «أبا جهل»، ليس لأنه جهل الإسلام ـ فقد فهمه جيداً ـ ولكن لأنه حاربه بغطرسة وبشراسة وبانفعال أعمى وطائش.

ولكن روح القبيلة كانت قد تملكت العرب، حتى أنه بعد دخولهم الإسلام، ظلت خطراً كامناً تتحين أعراضه الظهور فى التاريخ الإسلامى.

حث القرآن المسلمين على أن يتحلوا بالحلم، وهو أيضاً فضيلة عربية تقليدية، بدلاً من الجاهلية، فيتصرف المسلمون بصبر وأناة ورحمة(٦٠). يجدر بهم السيطرة على غضبهم وأن يحافظوا على هدوئهم ورصانتهم فى أشد الظروف صعوبة بدلاً من أن يسارعوا بالانتقام والاعتداء، ويتركوا ذلك لله(٦١). والحلم يدعو إلى الأعمال الإيجابية، مثل سد حاجة الضعيف وقليل الحظ، وتحرير العبيد، وللتناصح بأعمال الخير والرحمة، وإيثار الغير من المعوزين. يجب على المسلمين دائماً التصرف برفق وطيبة، فهم مسالمون:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ⑬ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ⑭ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ⑮ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ⑯ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ⑰﴾ [سورة البلد: ١٣ ـ ١٧](٦٢).

(*) كذلك تعنى جهل: ظلم، وتعدى، وعكس معنى حلم.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الفرقان: ٦٣][٦٣].

بعد قضية «الآيات الشيطانية»، أصبح الصراع مع الكافرين خطيراً، حيث داوم أبو جهل على الاعتداء اللفظى على المسلمين وتشويه سمعتهم بالأكاذيب والإشاعات الشريرة، وبتهديد التجار بإفشال أعمالهم، وببساطة، ضرب المسلمين الضعفاء. لم يستطع الكافرون إيذاء المسلمين الذين لديهم من يحميهم، ولكن هاجموا العبيد، وأولئك الذين بدون حماية قبلية كافية. وقد اعتاد أمية، كبير جمح، تعذيب بلال العبد الحبشى، بأن يجعله يفترش أرض الصحراء القاحلة تحت الشمس الحارقة، ويضع فوق صدره صخرة كبيرة حتى يكفر بمحمد (ﷺ) وإلهه. اشترى أبو بكر بلالاً من أمية، وأعتقه، كذلك اشترى أمة كان عمر بن الخطاب يجلدها بالسوط. وحبست بعض العائلات شبابها الذى أسلم، بل وأجاعته حتى يرجع عن الإسلام. لقد أصبح الوضع خطيراً بالنسبة للمسلمين فى مكة، حتى أن محمداً (ﷺ) أرسل ضعافهم إلى الحبشة، حيث قبلهم ملكها المسيحى. كذلك أصبح من الواضح، بقدر ما هو من المؤلم، أنه لا مستقبل للإسلام فى مكة.

لابد وأنه كان أمراً بالغ الصعوبة على المسلمين، الذين نشؤوا بروح الجاهلية، أن يمارسوا الحلم، ويديروا خدهم الآخر، حتى محمد (ﷺ) كان يجاهد فى بعض الأحيان ليتمالك نفسه. تعبر إحدى سور القرآن الأول عن غضبه من عمه أبى لهب وزوجته، التى اعتادت نثر الأشواك أمام منزله:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [سورة المسد: ١-٥][٦٤].

وهذه هى المرة الوحيدة التى ذكر فيها القرآن أحد أعداء محمد (ﷺ) بالاسم.

كان محمد (ﷺ) ذات مرة يطوف حول الكعبة، فسمع بعض كبار قريش يسخرون منه بإزدراء شديد. فاستطاع أن يكبح جماح نفسه لفترة، حتى أكمل الطواف الثالث، فامتقع لون وجهه، وواجه الكافرين، وبدلاً من أن يرجو لهم السلام كما يأمر

القرآن(*)، قال متجهمًا: «هل تسمعوننى يا قريش، والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بالذبح!» لفظ كلماته الأخيرة بنبرة تهديدية جعلت زعماء قريش يصمتون. ولكن فى اليوم التالى، استعادوا أعصابهم، فأحاطوا بمحمد (ﷺ) عند وصوله الحرم وأمسكوا بخناقه يجذبونه من ملابسه، ولم يرد عليهم محمد (ﷺ) بعنف، بل تركهم فى غلظتهم حتى تدخل أبو بكر قائلاً وهويبكى: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟!».

روى ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: طلع رسول الله (ﷺ) فأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول، قال: فعرفت ذلك فى وجه رسول الله (ﷺ) فمضى، فلما مربهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك فى وجهه، ثم مر الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف، ثم قال: «أتسمعون يا معشر قريش، أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح»، قال: فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، وحتى أن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن مايجد من القول، حتى أنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً، قال: فانصرف رسول الله (ﷺ) حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم فى ذلك طلع رسول الله (ﷺ) فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون أنت الذى يقول كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله (ﷺ): نعم، أنا الذى أقول ذلك، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه، قال: فقام أبو بكر الصديق دونه وهو يبكى، ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟! ثم انصرفوا عنه،

(*) جاء فى إنجيل لوقا عن المسيح قوله: «جئت لألقى على الأرض نارًا، فلكم أود أن تكون قد اشتعلت. ولكن لى معمودية على أن أتعمد بها، وكم أنا متضايق حتى تتم! أتظنون أنى جئت لأرسى السلام على الأرض؟ أقول لكم: لا، بل بالأحرى الانقسام: فإنه منذ الآن يكون فى البيت الواحد خمسة فينقسمون: ثلاثة على اثنين، واثنان على ثلاثة ـ فالأب ينقسم على ابنه، والابن على أبيه، والأم على بنتها، والبنت على أمها، والحماة على كنتها، والكنة على حماتها». [إنجيل لوقا: ١٢: ٤٩ ـ ٥٣].
وجاء فى إنجيل متى «لا تظنوا أنى جئت لأرسى سلامًا على الأرض، ما جئت لأرسى سلامًا، بل سيفًا. فإنى جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مع أمها، والكنة مع حماتها. وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته. من أحب أباه أو أمه أكثر منى، فلا يستحقنى. ومن أحب ابنه أو ابنته أكثر منى فلا يستحقنى». [إنجيل متى: ١٠: ٣٤ ـ ٣٧].

فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط . [السيرة النبوية : ص ٢١٨][٦٥] .

ولكن يمكن لهذا النوع من التصرف أن يشمر فى بعض الأحيان . ففى أحد الأيام ، جاء أبو جهل إلى محمد (ﷺ) قريبا من باب الصفا ، وكاد يُجن عندما رآه مستحوذًا على تلك البقعة ، ووجه إليه إهانات بذيئة ، استمع إليها محمد (ﷺ) وهو صامت ، حتى أنهى أبو جهل تقريعه ، وذهب لينضم إلى كبار القوم فى الحرم ، بينما رجع محمد (ﷺ) حزينًا صامتًا إلى منزله . ولكن فى ذلك المساء ، رجع حمزة بعد رحلة صيد خارج مكة ، وعرف بما حدث لابن أخيه ، فذهب يبحث عن أبى جهل وهو مشحون غضبًا ، فلما وجده شجه بقوسه قائلاً : هل تسبنى كما سببت محمدًا؟ فأنا على دينه ، رد على ضربى لك إن استطعت ! .

فما كان من أبى جهل ، الذى يعرف جيدًا قوة حمزة الأسطورية بين أهل مكة ، إلا أن اعترف أنه أهان محمدًا (ﷺ) بفحش :

قال ابن إسحاق : إن أبا جهل اعترض رسول الله (ﷺ) عند الصفا ، فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف له ، فلم يكلمه رسول الله (ﷺ) ، ومولاة لعبد الله بن جدعان التيمى فى مسكن لها فوق الصفا تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد لقريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحًا قوسه ، راجعا من قنص له ، وكان إذا فعل ذلك لا يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى فى قريش وأشدها شكيمة ، وكان يومئذ مشركًا على دين قومه ، فلما مر بالمولاة وقد قام رسول الله (ﷺ) فرجع إلى بيته ، فقالت له : يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقى ابن أخيك من أبى الحكم آنفًا ، وجده هاهنا فآذاه وشتمه وبلغ منه مايكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله ـ عز وجل ـ به من كرامته ، فخرج سريعًا لا يقف على أحد كما كان يصنع يريد الطواف بالبيت ، معدًا لأبى جهل أن يقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا فى القوم ، فأقبل نحوه حتى قام على رأسه ، رفع القوس وضربه بها ضربة شجه به شجة منكرة ، وقام رجال من قريش من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل منه ، فقالوا : ما تراك يا حمزة إلا قد صبأت؟ فقال حمزة : وما يمنعنى منه وقد استبان لى منه ذلك ، وأنا أشهد أنه رسول الله ، وأن

الذى يقول حق، فوالله لا أنزع، فامنعونى إن كنتم صادقين. فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنى والله لقد سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا. [السيرة النبوية: ص ٢١٩](٦٦).

أصبح حمزة مسلمًا مخلصًا، وإن لم يكن إسلامه جاء بالطريقة التى كان يتمناها محمد (ﷺ)، وقبل نهاية عام (٦ ق. هـ/ ٦١٦م)، فاجأت شخصية أخرى مكة بدخولها الإسلام: عمر بن الخطاب!

قرر عمر بن الخطاب أنه حان الوقت لقتل محمد (ﷺ)، فهرول فى طرقات مكة شاهرًا سيفه إلى دار الأرقم فى سفح جبل الصفا، حيث عرف أن محمدًا (ﷺ) هناك، لم يكن عمر يعرف أن أخته فاطمة وزوجها أصبحا مسلمين سرًا، وقد دعيا أحد قارئى القرآن ليعلمهما فى دارهما آخر ما نزل على محمد (ﷺ). ولكن فى طريق عمر لدار الأرقم، اعترضه أحد المسلمين قائلاً بعد أن عرف نيته فى قتل محمد (ﷺ): أو ترى بنى هاشم تاركوك إن قتلت محمدًا (ﷺ)؟ ولماذا لا تذهب إلى بيت أختك أولاً؟. وكان ذلك خوفًا منه على حياة محمد (ﷺ):

قال ابن إسحاق: وكان إسلام عمر فيما بلغنى أن أخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت عند سعيد بن زيد بن نفيل، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام، رجلاً من قومه، من بنى عدى بن كعب قد أسلم، وكان أيضًا يستخفى بإسلامه فرقًا من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يومًا متوشحًا سيفه يريد رسول الله (ﷺ) ورهطًا من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله (ﷺ) عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق، وعلى بن أبى طالب، فى رجال من المسلمين ﷺ، ممن كان أقام مع رسول الله (ﷺ) بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقيه نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمدًا هذا الصابئ، الذى فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدًا! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأى أهل بيتى؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما،

وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما؛ قال: فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة، فيها: ﴿طه﴾ يقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيب خباب في مخدع لهم، أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئًا؛ قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد؛ فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى وقال لأخته: أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفًا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتبًا، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها: ﴿طه﴾. فقرأها، فلما قرأ منها صدراً، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب»، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله (ﷺ) وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله (ﷺ)، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحًا السيف، فرجع إلى رسول الله (ﷺ) وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله (ﷺ): «ائذن له» فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله (ﷺ) حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حجزته، أو بمجمع ردائه، ثم جبذه [به] جبذة شديدة، وقال: «ما جاء بك يا بن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة»، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فكبر رسول الله (ﷺ) تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله (ﷺ) أن عمر قد أسلم [السيرة النبوية: ص ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣][٦٧].

ويروى ابن إسحاق قصة أخرى لإسلام عمر، أقل إثارة من السابقة، فيقول: إن عمر اتفق مع بعض أصدقائه على اللقاء فى أحد الأمسيات للشرب، ولكن عندما أخلف أصدقاؤه موعده، قرر الطواف بالكعبة، التى لم يكن بها أحد سوى محمد (ﷺ) يرتل القرآن بصوت خفيض:

قال ابن إسحاق: وحدثنى عبد الله بن أبى نجيح المكى، عن أصحابه: عطاء، ومجاهد، أو عمن روى ذلك: أن إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه، أنه كان يقول: كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية، أحبها وأَسَرُّ بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحزورة، عند دور آل عمر ابن عبد بن عمران المخزومى، قال: فخرجت ليلة أريد جلسائى أولئك فى مجلسهم ذلك، قال: فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً. قال: فقلت: لو أنى جئت فلاناً الخمار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلى أجد عنده خمراً فأشرب منها. قال: فخرجت فجئته فلم أجده. قال: فقلت: فلو أنى جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين. قال: فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله (ﷺ) قائم يصلى، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليمانى. قال: فقلت حين رأيته، والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! قال فقلت: لئن دنوت منه أستمع منه لأروعنه، فجئت من قبل الحجر، فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشى رويداً، ورسول الله (ﷺ) قائم يصلى يقرأ القرآن، حتى قمت فى قبلته مستقبله، ما بينى وبينه إلا ثياب الكعبة. قال: فلما سمعت القرآن رق له قلبى، فبكيت ودخلنى الإسلام، فلم أزل قائماً فى مكانى ذلك، حتى قضى رسول الله (ﷺ) صلاته، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حسين، وكانت طريقه، حتى يجزع المسعى، ثم يسلك بين دار عباس بن المطلب، وبين دارابن أزهر بن عبد عوف الزهرى، ثم على دار الأخنس بن شريق، حتى يدخل بيته. وكان مسكنه (ﷺ) فى الدار الرقطاء، التى كانت بيدى معاوية بن أبى سفيان. قال عمر رضي الله عنه: فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس، ودار ابن أزهر، أدركته، فلما سمع رسول الله (ﷺ) عرفنى، فظن رسول الله (ﷺ) أنى إنما تبعته لأوذيه فنهمنى [زجرنى]، ثم قال: ما جاء بك يا بن الخطاب هذه الساعة؟ قال:

قلت : [جئت] لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ، قال : فحمد الله رسول الله (ﷺ) ، ثم قال : قد هداك الله يا عمر ، ثم مسح صدرى ، ودعا لى بالثبات . [السيرة النبوية : ص ٢٥٤][٦٨] .

فرض أبو جهل حصاراً على بنى هاشم وبنى المطلب ، فلا أحد يتاجر معهم ولا يناكحهم ، حتى الطعام ، لم يعد مسموحًا ببيعه لهم . دخل كل بنى هاشم وبنى المطلب ، المسلمين وغيرهم ، فى شعب أبى طالب الذى أصبح بمثابة معتقل جماعى أو جيتو . عندما دخلت أسرة محمد (ﷺ) الشعب ، تحرك أبو لهب وأخذ مسكنًا فى منطقة عبد شمس . لم يكن الهدف من الحصار قتل العشيرتين جوعًا ، ولكن جعلهم يحسون بوطأة الخروج عن التقاليد القبلية . فإذا كان محمد (ﷺ) يريد الانسحاب من الحياة الدينية لمكة ، فلا يجوز له أن يستفيد من اقتصادها[٦٩] .

انهار الحصار الاقتصادى بعد ثلاث سنوات ، وكان كريهًا لكل من كان له أقارب وأنسباء فى بنى هاشم وبنى المطلب ، فلم يكن يرتاح ضميره لأن يتركهم يتضورون جوعًا . ومسلمون مثل أبى بكر وعمر ، من الذين لم تكن عشائرهم تحت الحصار أرسلوا المؤن التى استطاعوا تدبيرها من حين لآخر ، وعندما كان المكيون يفعلون ذلك ، كانوا يفعلونه سرًا ، فيرسلون الجمال المحملة إلى شعب أبى طالب فى ستار الليل . وفى إحدى المرات ، عنف أبو جهل ابن أخى خديجة وهويشق طريقه إلى الشعب ، ودار جدال شرس بين الاثنين ، ثم شارك فى النزاع الكلامى قرشى ثالث ، ازدرى أن يمنع أبو جهل شخصًا من إرسال طعام لعمته ، ثم ما لبث أن سدد ضربة قوية لأبى جهل بفك جمل ، سرعان ما أوقعته على الأرض .

طوال ذلك الحصار ، ؛كان القرآن يذكر المسلمين بأن الأنبياء السابقين أنذروا أقوامهم وحاولوا إصلاح طرقهم فى الحياة ، وعندما رفضت تلك الأمم ذلك ، أهلكم الله ؛ لأنهم خرجوا عن النظام الكونى للعالم :

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الكهف : ٥٩][٧٠] .

يختلف البشر عن المخلوقات الأخرى ، السمك والنبات والحيوان ، والتى هى مسلمة بطبيعتها ، ما دامت تعيش على قوانين الكون ، أما البشر ، فلهم إرادة حرة :

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦]، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف: ٢٩]، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢](٧١).

عندما يظلم القوى الضعيف، ويرفض الغنى أن يشرك الفقير فى ثروته، تنتهك قوانين الله، وتحل الكوارث. ولكن استمر القرآن فى حث المسلمين على الصبر، وعدم تحين فرصة الانتقام من أعدائهم.

كذلك كان هناك بعض رجال قريش الذين يتطلعون للسلام، وبعد فرض الحصار بقليل، عمد وفد منهم إلى محمد (ﷺ)، يقودهم قرشى مهيب كبير السن، اقترح حلاً وسطًا: تعبد مكة الله سنة، والآلهة الأخرى سنة أخرى. ولكن محمدًا (ﷺ) رفض العرض، ونزلت فى ذلك سورة الكافرون بعرض آخر:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الكافرون: ٢٥٦](٧٢).

يعبد الناس آلهة مختلفة، ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، الدين هو العقيدة، ولكنه أيضًا «طريقة الحياة» أو «القانون الأخلاقى». لكل إنسان دينه الذى يختاره، وليس هناك حاجة للإكراه على الدين.

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦](٧٣).

فى النهاية، أدى ولاء الدم إلى إنهاء الحصار، حيث طالب أربعة من المؤسسة الحاكمة فى قريش لهم أقرباء فى بنى هاشم وبنى المطلب بإنهائه، وبالرغم من الاعتراضات الغاضبة لأبى جهل، وافق الزعماء الآخرون. لابد أن ذلك كان يومًا مفرحًا للمسلمين، ورجع بعض المهاجرين إلى الحبشة، معتقدين أن الأيام السيئة قد ولت، ولكن كان ذلك تفاؤلاً زائدًا. ففى بداية (٣ ق. هـ/ ٦١٩م) توفيت خديجة، لقد كبرت فى السن، واعتلت صحتها من ظروف الحياة الخشنة فى شعب أبى طالب،

والحصار التجارى والاجتماعى. لقد كانت أقرب رفيق لمحمد (ﷺ)، ولم يستطع أحد، حتى أبو بكر أو عمر، أن يقدما لمحمد (ﷺ) ما قدمته خديجة. أطلق المؤرخون الأوائل على ذلك عام الحزن، إذ بعد رحيل خديجة بمدة قصيرة، رحل أبو طالب، فكان لذلك آثار أخطر وأسوأ على محمد (ﷺ). لقد دمر الحصار أبا طالب، ماليًا لتوقف تجارته، وصحيًا لما تحمله من مرارة العزلة، والانشقاق مع قريش، فسقط مريضًا ثم مات، وتولى رئاسة بنى هاشم أبو لهب.

* * *

الفصل الثالث

الهجـــرة

أدرك كل شخص فى مكة أن محمدًا (ﷺ) أصبح مستباح الدم. لم يتخل أبو لهب عن واجبه كرئيس لبنى هاشم فى حماية محمد (ﷺ)؛ لأن ذلك كان يعنى ضعف قيادته منذ البداية، لكن كان واضحًا أنه يقوم برعايته بتذمر شديد. مارس جيرانه حيلاً قذرة معه، فألقوا عليه مخلفات خروف وهو يصلى، ومرة أخرى ألقوا بقاذورات فى قدر طهى العائلة. فى أحد الأيام، رمى شاب قرشى قذارة على محمد (ﷺ) أثناء مشيه فى المدينة، انفجرت ابنته فاطمة بالبكاء عندما رأت ذلك، فطمأنها محمد (ﷺ) برقة وهى تزيل عنه القاذورات«لا تبكى يا ابنتى الصغيرة، فإن الله مانع أباك». لكن أسر فى نفسه بحزن: «لم تعاملنى قريش هكذا عندما كان أبو طالب حيّا»:

> قال ابن إسحاق: فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله (ﷺ) من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابًا، ولما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله (ﷺ) ذلك التراب، دخل رسول الله (ﷺ) بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب، وهى تبكى، ورسول الله (ﷺ) يقول لها: «لا تبكى يا بنية، فإن الله مانع أباك». قال: ويقول بين ذلك: «ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب». [السيرة النبوية لابن إسحاق ـ ط دار الكتب العلمية: ص ٢٩٩][(١)].

أثر وضعه المستباح على حالة بعض المسلمين الأكثر استباحة. على سبيل المثال، كادت المقاطعة تدمر أبا بكر. عاش أبو بكر فى منطقة عشيرة جمح، ورئيسها أمية بن

خلف البدين الذى اعتاد تعذيب بلال تحت الشمس المحرقة، كذلك تجرأ نوفل بن خويلد (أو عثمان بن عبيد الله فى قول آخر) لفعل الشىء نفسه مع أبى بكر، كان يربطه مع ابن عمه الشاب، ويتركهما تحت لهيب الشمس المحرقة. كانت تيم عشيرتهما أضعف من أن تحميهما، لذا أدرك أبو بكر أنه لن يكون له مستقبل فى مكة، فقرر الهجرة إلى الحبشة. وفى بداية طريقه للهجرة لقيه ابن الدغنة، أحد حلفاء قريش من البدو، الذى روعه سماع ما حدث. أصر على عودة أبى بكر إلى مكة تحت حمايته الخاصة. كانت مؤسسة قريش حريصة على تحالفها مع ابن الدغنة، فوافقت على هذا الترتيب، لكنها طلبت منه التأكيد على أن أبا بكر لن يصلى أو يقرأ القرآن علنًا. كان أبو بكر محبوبًا وذا شخصية جذابة، فخافت قريش أن يغرى الشباب على الخروج عن الدين الرسمى؛ لذا بنى أبو بكر مسجدًا صغيرًا أمام بيته ليتعبد فيه بمفرده.

لكن الحالة كانت غير مرضية على الإطلاق. حاول محمد (ﷺ) إيجاد حام جديد له فى الواحة الخصبة الطائف، لكنها كانت مغامرة عديمة الجدوى، كشفت مقدار يأسه، لأن ثقيفًا كانت قد أهينت بشدة عندما نبذ محمد آلهتها اللات. زار محمد ثلاثة من زعماء ثقيف، وطلب منهم قبول دينه ومد حمايتهم إليه، لكنهم رأوا فى ذلك وقاحة أغضبتهم وجعلوا عبيدهم يطاردونه فى الطرقات. أفلت محمد (ﷺ) بالدخول فى حديقة عتبة بن ربيعة، أحد رؤساء كفار مكة، الذى كان له بيت صيفى فى الطائف. رأى عتبة وأخوه شيبة هروب محمد (ﷺ) فى هوان، فلم يقبلا ترك قرشى فى أيدى ثقيف، لذا بدلاً من أن يبلغا ثقيفًا عنه، أرسلا إليه عبدًا بطبق كبير من عنب.

جلس محمد (ﷺ) بمهانة خلف شجرة، وكان على حافة اليأس. وقد كان مألوفًا للعرب أن يلجؤوا إلى إله أو جنى فى أوقات الأزمات، أما محمد (ﷺ) فقد لجأ إلى الله:

> قال ابن إسحاق: فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال فيما ذكر لى: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى، أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». [السيرة النبوية: ص ٣٠١][٢].

لم يكن من المعتاد لابن إسحاق أن يروى بهذا التفصيل ماذا يدور بخلد محمد (ﷺ)، وتشير الرواية إلى لحظة الحقيقة الروحية. فى هذا الدعاء، سلم محمد (ﷺ) أمره لله، وأدرك تمامًا أكثر من أى وقت مضى، بأنه ليس له مجير ولا حام حقيقى إلا الله.

بدا أن الله استجاب لدعائه؛ لأن فور انتهائه منه، وصله عداس، عبد عتبة بعناقيد العنب. كان عداس مسيحيًا، ابتهج محمد (ﷺ) عندما علم بأنه جاء من نينوى، مدينة النبى يونس (ﷺ)، وأخبر عداسًا بأن يونس (ﷺ) أخوه، لأنه أيضًا نبى. جاشت عواطف عداس حتى أنه قبل رأس محمد (ﷺ) ويديه وقدميه، مما أدى إلى اشمئزاز عتبة الذى كان يراقب اللقاء. جعل هذا ا للقاء غير المتوقع مع أحد أهل الكتاب محمدًا (ﷺ) أقل عزلة. ذكره ذلك بأنه بالرغم من أن العرب رفضوه، فهناك خارج الجزيرة العربية مؤمنون كثيرون قد يفهمون رسالته. عندما بدأ رحلة العودة إلى مكة شعر بالارتياح، وتوقف للصلاة فى الواحة الصغيرة نخلة، حيث سمعته مجموعة من الجن. كلمة جن لا تشير دائمًا إلى العفاريت غريبة الأطوار فى بلاد العرب، بل يمكن أن تشير أيضًا إلى «غرباء» أى ناس لم تسبق رؤيتهم. يشير القرآن إلى أن المسافرين، الذين كمنوا بعيدًا عن الأنظار فى نخلة، ليستمعوا إلى تلاوة محمد للقرآن ربما كانوا يهودًا. انبهروا بجمال ونظم القرآن العربى حتى أنهم عندما رجعوا لبلادهم، أخبروا أهلهم أنهم سمعوا «وحيًا أنزل من أعلى، بعد موسى» يؤكد حقيقة التوراة ويوجه البشر إلى الطريق الحق:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢)﴾ [سورة الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢]، ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١)﴾ [سورة الجن: ١][٣].

بدأت آفاق محمد (ﷺ) فى الاتساع. كان فى البداية متيقنًا من أنه قد أرسل كنذير إلى قبيلته خاصة وأن الإسلام كان فقط لأهل مكة. لكنه الآن بدأ ينظر أبعد، إلى أهل الكتاب الذين نزل عليهم الوحى سابقًا. برغم الثقة التى وفرها ذلك له، فإنه كان يائسًا. إذا علم الكفار بمحاولته الفاشلة للحصول على الدعم فى الطائف، سيكون موقفه أكثر خطورة، لذا قبل دخوله مكة، أرسل إلى ثلاثة رؤساء عشائر يطلب حمايتهم. رفض اثنان، لكن الثالث مطعم، رئيس قبيلة نوفل ـ الذى كان أحد الذين قاموا بحملة لإنهاء مقاطعة بنى هاشم ـ وعد بحمايته، وبذلك أصبح قادرًا على العودة إلى مكة.

لكن هذا لا يمكن أن يكون حلاً طويل المدى. كان عليه بطريقة ما أن يكسب قريشًا. فى عام (٣ ق. هـ/ ٦١٩م)، بدأ فى مخاطبة الحجاج والتجار الذين جاءوا للحج وأسواقه. فربما يجد حاميًا بدويًا، مثلما وجد أبو بكر، وإذا وجدت مؤسسة قريش أنه حصل على حماية حلفائها البدو، فقد تتعلم قبوله. لكن الحجاج البدو كانوا عدائيين ومهينين له. أبعد شيء أرادوه هو دين يوصى بالخضوع والتواضع. لا بد أن محمدًا (ﷺ) أحس أنه استنفذ كل ما لديه. ما زال حزينًا على خديجة، وأصبح وضعه فى مكة محفوفًا بأشد المخاطر، وبعد بضع سنوات، أو أكثر قليلاً من الدعوة، لم يحرز أى تقدم حقيقى. فى هذه الحالة المعنوية المنخفضة، مر بأعظم تجربة فى حياته.

كان يزور ابنة عمه أم هانئ التى كانت تسكن قرب الحرم، وقرر قضاء الليلة فى الصلاة أمام الكعبة، كما كان يحب أن يفعل. أخيرًا غلب عليه النوم لفترة.

ثم رأى أن جبريل أيقظه وحمله بشكل إعجوبى إلى القدس، المدينة المقدسة لدى اليهود والمسيحيين، وسجلت آيات القرآن ذلك:

﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾ [سورة الإسراء: ١][٤].

لم تذكر القدس بالاسم، لكن بينت الأحاديث أن المقصود بالمسجد الأقصى مسجد بالقدس. طبقًا لما ذكره المؤرخ الطبرى[٥]. وزعم القرآن أيضًا أن محمدًا شاهد رؤية بجانب سدرة المنتهى، التى تمثل حد المعرفة الإنسانية:

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ [سورة النجم: ٨ ـ ١٨][٦].

وكلام القرآن متحفظ حول هذه الرؤية. طبقا للقرآن، رأى فقط آيات ورموز الذات الإلهية ـ وليس الله، وأكد المتصوفون لاحقًا التباين فى تلك الرؤية المتسامية، فى أن محمداً (ﷺ) قد رأى، ولم ير الذات الإلهية.

يترك أكثر الكتاب الرؤية النهائية لله فى الغموض الموقر؛ لأنه كان وراء الوصف. وكان على محمد (ﷺ) أن يترك المفاهيم الإنسانية العادية، عند سدرة المنتهى، حد المعرفة الدنيوية. حتى جبريل لم يعد بوسعه أن يرافقه فى المرحلة العليا من رحلته. كان عليه أن يتخلى عن كل شخص، حتى نفسه، لكى يفنى نفسه فى الله، هكذا أصر الصوفيون اللاحقون. قصة رحلة الإسراء وقصة رحلة المعراج حدثت مرة، ولكنها يمكن أن تتكرر طوال الوقت، وهى تمثل الإسلام الخالص، تسليم الذات لله يمثل أيضًا العودة إلى منبع الوجود. أصبحت القصة نموذج الروحانية الإسلامية، تبين الطريق الذى يجب أن يسلكه كل البشر، بعيداً عن أهوائهم، وإجحافهم، وقيود أنانياتهم.

لم تسفر الرؤية عن وحى قرآنى، فقد كانت تجربة شخصية للنبى (ﷺ) نفسه، لكن وضعها المؤرخون الأوائل فى تلك اللحظة من حياة محمد (ﷺ)، فكانت بمثابة تعليق رائع على السياق الداخلى لذلك الحدث الخارجى.

وقد أرغمت الظروف محمداً (ﷺ) على ترك مكة وكل ما هو عزيز ومألوف له، على الأقل لفترة. فكان عليه أن يتحرك لأبعد توقعاته الأصلية، ويتسامى عن أفكار زمنه. يبدأ الشاعر عادة، فى القصيدة العربية التقليدية، بذكر محبوبته المفقودة، التى كانت تسافر مع قبيلتها بعيداً، وبعيداً عنه. فى القسم التالى، يبدأ الشاعر «رحلة ليلية» يندلع فيها حلم الحنين للديار. يبدأ رحلته المنفردة عبر السهول على جمله، رحلة مخيفة يواجه خلالها فناءه الخاص. أخيراً يلحق الشاعر بقبيلته. فى القسم النهائى من

القصيدة يتباهى بالقيم البطولية لعشيرته، وبسالتهم فى المعركة، وحربهم المستمرة ضد كل الغرباء الذين يهددون بقاءهم[٧]. انعكست، فى رحلة محمد (ﷺ) الليلية (الإسراء)، قيم المروءة القديمة، فبدلاً من أن يعود إلى قبيلته، سافر النبى بعيداً عنها إلى القدس، وبدلاً من أن يؤكد هويته القبلية بتعصب الجاهلية المتغطرس، تخلص محمد (ﷺ) من الأنوية القبلية، وبدلاً من أن يبتهج بالقتال والحرب، حفلت رحلة محمد بالانسجام والتكامل مع بقية الإنسانية، وتسامت عن عصبية الدم.

تكشف قصة الإسراء تطلع محمد (ﷺ) لإدخال عرب الحجاز، الذين شعر بأنهم قد حذفوا من الخطة المقدسة، إلى قلب عائلة الموحدين. إنها قصة التعددية. كان محمد (ﷺ) يتخلى عن التعدد الوثنى لمكة؛ لأنه تدهور إلى التكبر المدمر للذات والعنف الجاهلى، وبدأ فى اعتناق تعددية التوحيد. اكتشف فى القدس أخوة كل رسل الله المبعوثين إلى كل البشر، لم ينظر الأنبياء السابقون إلى محمد (ﷺ) كمدع، بل رحبوا به فى عائلتهم. الأنبياء لا يتعادون ولا يحاولون تحويل بعضهم البعض عن رسالته التى يدعو إليها؛ ولكن يتدبرون رؤية كل منهم الخاصة. دعى الأنبياء النبى الجديد لبيان رسالته، وفى إحدى روايات قصة المعراج، يطلب محمد من موسى (عليهما الصلاة والسلام) النصيحة حول عدد مرات صلاة المسلمين فى اليوم والليلة [٨]. توضح حقيقة تقدير الديانات الأخرى فى الطراز المبدئى لروحانيات المسلم كيف تمثل التعددية محوراً رئيسيّاً فى الإسلام منذ بدايته.

من هذا المنطلق، بدأ القرآن يؤكد المشاركة فى الإيمان. وفى فقرات قرآنية رائعة، يوضح الله أن على المؤمنين ألاّ يميزوا بين وحى وآخر أو نبى وآخر:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾ [سورة البقرة: ١٣٦]، وقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾، [سورة البقرة ٢٨٥]، وقوله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

﴿وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)﴾ [سورة آل عمران: ٨٤][٩].

لا يمكنك أن تكون مسلمًا ما لم تؤمن بموسى وعيسى وبقية الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام). يطلب الإيمان الحقيقى استسلامًا كاملاً لله، وليس لأى مؤسسة دينية. وفى الواقع، ولاءً متعصبًا لتقليد واحد فقط يمكن أن يصبح شركًا، أى نوعًا من الوثنية التى تضع الأعراف الإنسانية فى مستوى الله ذاته. الآية ١٣٦ من سورة البقرة هى واحدة من أوئل آيات القرآن التى تؤكد معنى «إسلام» و«مسلم»، وكلاهما مشتق من الفعل أسلم[١٠]. تستمر الآيات:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾

[آل عمران: ٨٥][١١].

هذه الآية يستدل بها فى أغلب الأحيان «لإثبات» أن القرآن يدعى بأن الإسلام هو الدين الوحيد الحقيقى، وبأن المسلمين هم الناجون فقط يوم الحساب. لكن لم يكن «الإسلام» بعد هو الاسم الرسمى لدين محمد (ﷺ)، وعندما نقرأ هذه الآية بشكل صحيح فى سياقها التعددى، فإنها تعنى بوضوح عكس ما يستدل عليه البعض.

يصور القرآن تسليم كل نبى الوحى إلى النبى الذى يليه، حيث تمر الرسالة من إبراهيم إلى إسماعيل وإسحاق وإلى موسى (عليهم الصلاة والسلام). وهكذا، فى تسلسل مستمر. القرآن ببساطة هو «تصديق» على الكتب المقدسة السابقة.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾

[سورة يوسف: ١١١][١٢].

وما التوراة، والإنجيل، والقرآن، إلا لحظات مستمرة من تجلى الذات الإلهية للبشر، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ(*) وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(*) يرى البعض أن الصابئين هم طائفة من الموحدين فى جنوب الجزيرة العربية (اليمن اليوم)، ويرى البعض الآخر أن القرآن يشير بهذا الاسم إلى الزرادشتيين فى الإمبراطورية الفارسية - المؤلفة.

﴿الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة المائدة: : ٦٩][١٣].

لم يكن هناك أى تفكير فى إجبار أى شخص لدخول أمة الإسلام، إذ لكل وحى شرعه ومنهاجه:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

[سورة المائدة: ٤٨][١٤].

لم يكن الله حكرًا أو ملكية خاصة لناموس واحد، لكنه مصدر كل المعرفة الإنسانية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كما أوضح الله فى واحدة من أكثر الآيات رمزية فى القرآن. لا يمكن للنور المقدس أن ينحصر فى أى مصباح فردى، بل هو لكل البشر من خلال كل مصابيح الهداية(*):

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة النور: ٣٥][١٥].

تدل شجرة الزيتون على استمرارية الوحى، التى تنبع من جذر واحد، ثم تتفرع إلى تجارب متعددة كأغصان الشجرة المباركة، ولا يحصرها التعصب لتقاليد أو محليات، وهى ليست شرقية ولا غربية.

استمر وضع محمد (ﷺ) فى مكة غير مأمون بشكل خطير. أثناء الحج (عام ٢ ق. هـ/ ٦٢٠م)، زار محمد (ﷺ) مجددًا الحجاج الذين كانوا يخيمون فى وادى منى، حيث تنقل من خيمة إلى خيمة سعيًا وراء الدعم والحماية. والتقى بمجموعة من ستة من عرب يثرب، الذين خيموا على حدود العقبة، وجلس محمد (ﷺ) معهم فشرح رسالته وقرأ القرآن، وفى هذه المرة بدلاً من الرفض بالجملة، لاحظ أن الحجاج

(*) هناك حكمة قديمة مفادها: إن لله طرقًا بعدد خلقه.

كانوا منتبهين ومتقبلين لكلامه. وعندما انتهى من عرضه، التفت أحدهم إلى الآخرين قائلاً لا بد أن هذا هو النبى الذى ينتظره جيراننا من اليهود والأحناف. إذا كان محمد هو حقًا رسول الله، فقد يكون الشخص الذى يمكنه أن يحل مشاكل يثرب التى لا تحل.

لم تكن يثرب مدينة مثل مكة، لكن سلسلة من القرى الصغيرة، يسكن كل منها مجموعة قبلية مختلفة، وكل منها محصنة تمامًا[١٦]. كانت يثرب فى واحة، جزيرة خصبة حوالى عشرين ميلاً مربعًا، محاطة بالصخور البركانية والأرض الحجرية غير القابلة للزراعة. اشتغل بعض سكانها بالتجارة، لكن أكثرهم كانوا مزارعين، اعتمدوا فى معيشتهم على التمر، و بساتين الفاكهة، وحقول الزراعة. على خلاف قريش، لم يكونوا معتمدين كلية على التجارة، واحتفظوا بأكثر قيم البدوية القديمة، بما فيها، لسوء الحظ، عداوة راسخة بين القبائل.

نتيجة لهذا، انغمست الواحة فى سلسلة متفاقمة من الحروب التى تبدو متعذرة التوقف. كانت المنطقة مزروعة من قبل المستوطنين اليهود، وبحلول القرن السادس، كان هناك حوالى عشرين قبيلة يهودية فى يثرب، ربما كان العديد من أعضائها من العرب الذين ذابوا فى اليهودية[١٧]. احتفظوا بهوية دينية منفصلة، لكن ما عدا ذلك كان متعذراً تميزهم عن جيرانهم الوثنيين. كان الولاء للعشيرة، ثم للقبيلة، ولم يكن هناك «جالية يهودية متحدة». شكلت القبائل اليهودية تحالفات منفصلة مع المجموعات العربية وكانت فى أغلب الأحيان فى حالة حرب بين إحداها والأخرى. وقد جعلهم محصولهم من التمر أغنياء، لكنهم أيضًا كانوا صناع جواهر ماهرين، وكذلك صانعى أسلحة، وحرفيين. احتكرت الخمس عشائر اليهودية الكبرى ـ ثعلبة، وهدل، وبنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع التى سيطرت على السوق الوحيدة فى يثرب ـ الاقتصاد احتكاراً شبه مطلق.

لكن أثناء القرن السادس، هاجرت قبيلة بنى قيلة العربية من جنوب بلاد العرب واستقرت فى الواحة، بجانب اليهود، وشكلوا عشيرتين متميزتين، الأوس والخزرج، اللتين أصبحتا بشكل تدريجى قبيلتين منفصلتين.

اكتسب العرب تدريجيًا أرضهم وبنوا قلاعهم الخاصة، وأصبحوا فى أوائل القرن السابع فى وضع أقوى قليلاً من اليهود. لكن على الرغم من المنافسة الحتمية على

مصادر الثروة بين اليهود والوثنيين، كانوا قادرين على التعايش. استخدم اليهود العرب فى أغلب الأحيان لنقل تمرهم، بينما احترم العرب مهارات وتراث اليهود، ويرونهم «قومًا ذوى أنساب وأملاك عالية، بينما لم نكن إلا قبيلة عربية، لا تمتلك أى نخيل ولا كرم، عندنا فقط الخراف والجمال»[١٨].

لكن فى وقت التقاء الحجاج بمحمد (ﷺ) فى عام (٢ ق. هـ/ ٦٢٠م)، كانت الحالة متدهورة. ظهر التنافس القبلى الراسخ على السطح، حيث انغمس الأوس والخزرج فى صراع دموى، وانشغلت العشائر اليهودية فى صراعهما، ساند بنو النضير وبنو قريظة الأوس، بينما تحالف بنو قينقاع مع الخزرج. بحلول عام (٥ ق. هـ/ ٦١٧م)، كان هناك صراع لا يمكن لأحد من الطرفين أن يكسبه، حيث استنزف العنف الجميع. وفى لحظات حاسمة، ترفع عبد الله بن أبى بن سلول رئيس الخزرج عن القتال واكتسب سمعة طيبة. البعض رأوه ملكًا محتملاً أو رئيسًا أعلى، يمكنه أن يفرض قانونًا ونظامًا، لكن العرب كانوا يكرهون الحكم الملكى، ولم ينفع هذا النوع من الحكم قط فى شبه الجزيرة. عارضت الأوس بالطبع تسليم القيادة إلى رئيس من الخزرج، بينما كان رؤساء الخزرج الآخرون غير راغبين فى التخلى عن قوتهم لحساب ابن أبى.

أدرك الحجاج الستة فوراً بأن محمداً (ﷺ)، كناطق باسم الله، سيكون حكمًا أكثر فعالية من ابن أبى، لم يكن عندهم مشاكل مع رسالته الدينية؛ لأنه فى بعض الوقت اتجه عرب يثرب للتوحيد. كان الأوس والخزرج يشعرون ـ لمدة طويلة ـ بالنقص أمام اليهود لعدم وجود كتاب مقدس لهم، وأثار الحجاج سماع أن الله أرسل أخيراً نبيًا إلى العرب، وأسلموا إلى الله فوراً، وكلهم أمل فى انصلاح أحوالهم. «تركنا قومنا ولا توجد قبيلة منقسمة بالكراهية والحقد مثلهم، ربما يوحدهم الله بك، لذا دعنا نذهب إليهم وندعوهم إلى دينك، وإذا وحدهم الله على يديك، لن يكون هناك رجل أعز منك». لكنهم اعترفوا بأن تأثيرهم بسيط فى الواحة، واحتاجوا لاستشارة رؤسائهم وحكمائهم. إذا كان محمد (ﷺ) سيصبح حكمًا فعالاً، كان من الضرورى أن يجمع دعمًا عريضًا، ووعدوه بالرد بعد سنة. لقد كانت تلك لحظةً حاسمة، أجبرت الظروف محمداً (ﷺ) للنظر فيما وراء مكة، بل وحتى النظر فى الفكرة غير الطبيعية فى ترك قبيلته والاستقرار الدائم وسط قوم آخرين:

قال ابن إسحاق: فبينما رسول الله (ﷺ) عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيراً. قال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج، قال: «أمن موالى يهود؟» قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. قال: وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام، أن يهوداً كانوا معهم فى بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك، وأصحاب أوثان، وكانوا قد عزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم: إن نبيّا مبعوثًا الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله (ﷺ) أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. [السيرة النبوية: ص ٣٠٦، ٣٠٧][١٩].

بينما هو فى انتظار تطورات من يثرب، قام محمد (ﷺ) ببعض التغييرات فى عائلته، حيث احتاج إلى زوجة، كان هناك اقتراح أن يتزوج سودة، ابنة عم ونسيبة سهيل، الرئيس الوثنى المستبد لعشيرة عامر القرشية. كانت متزوجة من أحد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة عام (٦ ق. هـ. / ٦١٦م)، لكنها صارت أرملة وكانت ملائمة جدّا له. كان أبو بكر متلهفاً أيضًا لإقامة علاقة أقرب مع النبى، واقترح عليه أن يتزوج ابنته عائشة، التى كان عمرها ست سنوات[*]. خطب محمد (ﷺ) عائشة فى احتفال لم تحضره البنت الصغيرة. وفى السنوات اللاحقة، تذكرت بأن النتيجة الأولى لمنزلتها الجديدة ظهرت عندما أوضحت أمها أنها لم تعد تستطيع اللعب فى الطرقات، لكن يجب أن تدعو صديقاتها إلى بيت العائلة.

(*) تختلف الأقوال فى سن السيدة عائشة يوم زفت إلى النبى ﷺ فى السنة الثانية للهجرة، فيحسبها بعضهم تسعًا، ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات، وهو اختلاف لا غرابة فيه بين قوم لم يتعودوا تسجيل المواليد. والأرجح أن السيدة عائشة كانت لا تقل عند زفافها إلى النبى ﷺ عن الثانية عشرة، ولا تتجاوز الخامسة عشرة بكثير. [الصديقة بنت الصديق، عباس العقاد، ط دار المعارف ـ ص ٦١، ٦٢].

زوجات محمد (ﷺ) أثرن مقداراً كبيراً من التخمين الشهواني المريض في الغرب، لكن في بلاد العرب، كان تعدد الزوجات أكثر شيوعًا من الزواج الأحادي، مثل ذلك الزواج الذي تمتع به محمد (ﷺ) مع خديجة. هذه الزيجات لم تنشأ عن علاقات حب رومانسية أو جنسية، لكن كانت تتم سعيًا وراء نتائجها العملية. يبدو أن سودة كانت امرأة بيتية، مضى شبابها، لكنها يمكن أن تعتني بحاجات محمد (ﷺ). كان محمد (ﷺ) يتمنى أيضًا أن يكسب سهيلاً، الذي ما زال مترددًا حول الوحي. لم تكن خطبة محمد (ﷺ) عائشة أمرًا عجيبًا(*)، حيث عقدت زيجات لفتيات أصغر من عائشة، لتوثيق تحالفات أو لغير ذلك. استمرت هذه الممارسة في أوروبا إلى ما بعد بداية العصر الحديث، ولم يكن هناك شك أن إكمال الزواج لم يتم إلا عندما تخطت عائشة سن البلوغ، عندما كان يمكن أن تتزوج مثل أي بنت أخرى. كانت زيجات محمد (ﷺ) عادة لهدف سياسي، رغبة في تأسيس نوع مختلف تمامًا من العشيرة، مستند على العقيدة بدلاً من القرابة، ولكن رابطة الدم كانت وما زالت قيمة مقدسة، وساعدت على تدعيم مجتمع المؤمنين التجريبي.

وفي أثناء الحج - عام (١ ق. هـ/ ٦٢١م) - عاد المسلمون الستة من يثرب إلى مكة، وجلبوا سبعة آخرين معهم. قابلوا محمدًا للمرة الثانية في العقبة، فيما أصبح معروفًا ببيعة العقبة، ووعدوا بعبادة الله وحده، والامتناع عن السرقة والكذب ووأد البنات، وتعهدوا بطاعة توجيهات محمد (ﷺ) التي تتعلق بالعدالة الاجتماعية. وفي المقابل، وعدهم محمد (ﷺ) الجنة. في هذا الحلف الأول، كان التأكيد على الدين والأخلاق، ولم يكن هناك التزام سياسي بعد. عندما عاد الحجاج إلى يثرب، أخذوا معهم مصعب بن عمير، مسلم مؤتمن، لتعليم أهل يثرب عقيدتهم الجديدة.

> روى ابن إسحاق عن عبادة بن الصامت، قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله (ﷺ) على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. «فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم

(*) كانت عائشة مخطوبة لأحد رجال مكة قبل ذلك، ولكن إسلام أبي بكر أدى لفسخ تلك الخطبة.

إلى الله ـ عز وجل ـ إن شاء عذب وإن شاء غفر». [السيرة النبرية: ص ٣١٠][٢٠].

كان ذلك تحركًا حكيمًا، حيث كانت الكراهية القبلية حادة جدًا في الواحة، فلم يكن أحد من الأوس ولا الخزرج يتحمل سماع منافس من القبيلة الأخرى يقود الصلوات أو يقرأ القرآن، لذا كان مهمًا أن يؤدي هذه الشعائر غريب محايد. في بادئ الأمر، كانت الأوس عدائية للإيمان الجديد، لكن بشكل تدريجي كسرت قوة القرآن تحفظهم. في أحد الأيام، ارتاع سعد بن معاذ، رئيس أحد عشائر الأوس البارزين، لسماع مصعب وهو يعظ أناسًا في أرضه، لذا بعث مساعده لإبعاده، انقض المساعد على المجموعة الصغيرة، يلوح برمحه ويسأل المسلم من أين أتى بهذا التهور لنشر هذه الأكاذيب بين الناس الحمقى الضعفاء؟! لكن بدلاً من أن تأخذ مصعبًا حمية الجاهلية، طلب منه الجلوس والحكم بنفسه. وافق المساعد، وغرس رمحه في الأرض، وبينما يستمع إلى التلاوة، تغير وجهه. ما هذا الحديث الرائع والجميل!، بل بكى قائلاً: كيف يمكن للمرء أن يدخل هذا الدين؟.

وبعد أن أعلن إيمانه بالله وسجد ليصلي، عاد لإخبار رئيسه. فغضب سعد، وأخذ رمحه الخاص، وذهب لمواجهة مصعب بنفسه، فقهره القرآن بدوره، فإذا به يستدعي عشيرته ويطلب منهم اتباعه بشكل جماعي:

قال ابن إسحاق: جلس أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد ابن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدما، قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد ابن زرارة، قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما متشتمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما

تكره؟. قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا: فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى. فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائى رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد ابن معاذ. ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفروك. قال: فقام سعد مغضبا مبادراً، تخوفا للذى ذكر له من بنى حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، أما والله، لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى، أتغشانا فى دارينا بما نكره؟. وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أى مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان. قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟. قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامداً إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير. قال: فلما رآه قومه مقبلا، قالوا نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم

قال: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله. قالا: فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد، وخطمة ووائل وواقف. [السيرة النبوية: ص ٣١١، ٣١٢][٢١].

أثرت أنباء إسلام سعد تأثيرًا كبيرًا على الرؤساء الآخرين، الذين بدءوا يأخذون مصعبًا بشكل جدى. و لم تمض فترة طويلة حتى كان هناك مسلمون فى كل عائلة تقريبًا فى الواحة.

فى مكة، كاد محمد (ﷺ) أن يتوقف عن الدعوة؛ لأن قريشا كانت لا تستطيع أن تقبل أن يكون مثل هذا الشخص العادى رسول الله، لكن الظروف فى يثرب كانت مختلفة[٢٢]. لم يكن محمد (ﷺ) شخصًا عاديًا بالنسبة لأهل يثرب، وإنما عَلم غامض بعيد المنال، يتوقع مجيئه بلهفة. فى مكة، هددت تعاليم محمد (ﷺ) بإتلاف عبادة الحرم، حيث كان لها تأثير حاسم على الاقتصاد، لكنه لم يكن هناك حرم مليء بالأوثان فى يثرب. ولكن أيضًا لم يكن كل يثربى مفتونًا بالدين الجديد. على أية حال، خاف ابن أبى على وضعه، وآخرون ما زالوا يعبدون الأوثان القديمة، أو من الأحناف، لكن صمتت المعارضة فى تلك المرحلة. إذا استطاع نبى جديد حقًا أن يحل مشاكل يثرب، قد تأتى بعض الفائدة المادية منه. أيضًا انتظرت القبائل اليهودية ماذا سيأتى من محمد (ﷺ)، خصوصًا منذ أن بجل المسلمون فى مكة أنبياءهم وتبنوا بعض عاداتهم الخاصة.

قدم محمد (ﷺ) بعض الممارسات الجديدة، ربما بعد رحلة الإسراء، حيث كان المسلمون يصلون وقبلتهم القدس، ليصلوا إلى مدينة أهل الكتاب المقدسة. أمر محمد (ﷺ) مصعبًا أيضًا بإقامة صلاة خاصة يوم الجمعة ظهرًا بينما يستعد اليهود للسبت، بالصوم مع اليهود يوم كيبور[*]. كذلك صلى المسلمون فى منتصف اليوم، كما كان

(*) المقصود يوم عاشوراء، واختلفت الروايات فيه.

اليهود يصلون، واتبعوا نسخة معدلة من قوانين الطعام اليهودية، مشابهة لما كان متبعًا لدى المسيحيين الأوائل:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)﴾، [سورة المائدة: ٣ ـ ٥]، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥)﴾ [سورة النحل: ١١٥].

وجاء في أعمال الرسل في العهد الجديد من الكتاب المقدس: « لذلك أرى أن لا نضع عبئًا على المهتدين إلى الله من غير اليهود، بل نكتب إليهم رسالة نوصيهم فيها بأن يمتنعوا عن الأكل من الذبائح النجسة المقربة للأصنام، وعن ارتكاب الزنى، وعن تناول لحوم الحيوانات المخنوقة وعن الدم. فإن لموسى، منذ القدم، أتباعًا في كل مدينة، يقرءون شريعته ويبشرون بها في المجامع كل سبت»، «إنما عليكم أن تمتنعوا عن الأكل من الذبائح المقربة للأصنام، وعن تناول الدم، ولحوم الحيوانات المخنوقة، وعن ارتكاب الزنى، وتحسنون عملاً إن حفظتم أنفسكم من هذه الأمور. عافاكم الله» [أعمال الرسل ١٥: ١٩ ـ ٢١، ٢٩][٢٣].

وقد اعتقد العلماء أن محمدًا (ﷺ) قدم هذه العبادات الجديدة لإغراء يهود يثرب، لكن وجهة النظر هذه أصبحت لا تصمد للنقد، فلم يتوقع محمد (ﷺ) أن يتحول اليهود إلى دينه؛ لأنه كان لهم وحيهم الخاص. أقر الله بأن يكون لكل أمة

رسولها الخاص. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧)﴾ [سورة يونس: ٤٧][٢٤]، لكنه كان طبيعيًّا للمسلمين أن يصلوا ويصوموا بطريقة العائلة الإبراهيمية نفسها.

في عام (١ ق. هـ/ ٦٢٢م)، خرج عدد كبير من الحجاج من يثرب للحج. أكثرهم كانوا وثنيين، ولكن ثلاثة وسبعين من الرجال واثنين من النساء كانوا مسلمين. خرج محمد (ﷺ) ليرحب بهم في العقبة، لكن هذه المرة، تم الاجتماع في سواد الليل. في هذا اللقاء، كان هناك إحساس بالخطر وعقد تحالفات جديدة وقطع أخرى قديمة. تكلم القرآن عن مكيدة قريش. ربما كان عند محمد (ﷺ) سبب لاعتقاد أن الكافرين كانوا يخططون لطرده ومنع المسلمين من دخول الحرم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ [سورة الأنفال: ٣٠][٢٥].

على كل حال، كان محمد (ﷺ) يأخذ خطوات عملية لترك قبيلته ومكة. يزعم ابن إسحاق بأنه كان قرارًا إيجابيًّا من ناحيته، لكن القرآن يقول مرارًا وتكرارًا بأن المسلمين «طردوا من مكة»:

> ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١)﴾ [الممتحنة: ١]. ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)﴾ [سورة محمد: ١٣][٢٦].

تم الاجتماع في العقبة في سرية شديدة. لم يذكر المسلمون من يثرب ذلك حتى إلى الوثنيين من عشائرهم، خوفًا من أن يكشفوا ذلك وينبهوا قريشًا إلى ما كان جاريًا.

كان محمد (ﷺ) على وشك أن يقوم بعمل لم يسبق له مثيل[٢٧]، إذ طلب من مسلمي مكة الهجرة إلى يثرب، ولم يكن هذا يتضمن مجرد تغيير العنوان، إذ كان

المسلمون على وشك أن يتركوا أهلهم ويقبلوا الحماية الدائمة من الغرباء. فى بلاد العرب، حيث كانت للقبيلة القيمة الأعلى عند الجميع، ماثل ذلك الكفر بعينه، ما هو أكثر فظاعة من الرفض القرآنى للآلهة. كان هناك دائمًا نظام التحالف، حيث يمكن لأى فرد أو حتى مجموعة أفراد، أن يصبحوا أعضاء فخريين فى قبيلة أخرى، لكن كانت هذه فى العادة ترتيبات مؤقتة لا تستلزم انسلاخها من أهلها. الكلمة ذاتها «الهجرة» تعنى قطعًا مؤلمًا. هجر تعنى: «قطع نفسه من الاتصال الودى أو المحب، أو توقف عن الارتباط بهم»[٢٨]. منذ الآن، سيدعى المسلمون الذين هاجروا إلى يثرب: «المهاجرين». وهذا الانتقال المؤلم كان محور هويتهم الجديدة.

بدأ مسلمو يثرب أيضًا الإبحار فى تجربة خطيرة. حتى إذا تبنت قبيلة رجلاً من خارجها، فهو يظل دائمًا غريبًا، كلمة تضمنت معانى سلبية! «وصف الشعراء الغريب بأنه عديم الفائدة ومنتسب»[٢٩]. كان الولاء القبلى حبًا ناريًا للأهل واحتقارًا قاسيًا للأجنبى. استحق أى عربى فَضَّل الغريب على قومه إزدراء شديدًا واشمئزازًا. الآن أصبحت الأوس والخزرج على وشك أن تقسم الولاء لمحمد (ﷺ) القرشى، وتعد بالحماية والمساعدة، أى النصر، لمجموعة كبيرة من الغرباء، مما يؤثر على المصادر المحدودة للواحة. منذ الآن، أصبح مسلمو يثرب يعرفون بالأنصار. عادة تُترجم الكلمة إلى الإنجليزية بمعنى «المساعدين»، لكن هذا يعطى انطباعًا أقل بكثير مما هم مقبلون عليه، نصر يعنى أن لزامًا عليك أن تقدم مساعدتك التى قد تصل إلى حد القتال. عندما قابلوا محمدًا (ﷺ) تلك الليلة فى العقبة، قرر الأنصار عقد حلف ثان مع محمد (ﷺ) عرف بـ«بيعة المنعة».

عندما حان وقت البيعة، ترك الأنصار رفاقهم الوثنيين نائمين فى خيامهم وتسللوا بهدوء إلى العقبة، حيث قابلوا محمدًا (ﷺ) وعمه العباس، الذى كان ناطقًا باسمه. لم يكن العباس قد تحول إلى الإسلام بعد، ولا بد أنه صدم بقرار محمد (ﷺ) ترك مكة، لكنه أراد التأكد بأنه سيكون آمنًا فى يثرب. وقال إن بنى هاشم قد حموا محمدًا (ﷺ) من قبل فى مكة، لكنه كان مستعدًا للتخلى عن هذا الأمن لكى ينضم إلى الأنصار، فإذا كان لديهم أقل شك فى قدرتهم على حمايته، فيجب أن يتخلوا عن المشروع بالكامل فورًا، ولكن الأنصار ظلوا ثابتين. أخذ البراء بن معرور، رئيس الخزرج، بيد محمد (ﷺ)، وأقسم بأن الأوس والخزرج كليهما يمدون إلى

محمد (ﷺ) الحماية نفسها التى يعطونها لنسائهم وأطفالهم. لكن بينما كان يتكلم، قاطعه مساعده، وماذا لو عاد محمد (ﷺ) إلى مكة، وترك يثرب لغضب قريش؟ ابتسم محمد (ﷺ) وأجاب: «أنا منكم وأنتم منى، سأحارب من يحاربكم، وأسالم من يسالمكم».

روى ابن إسحاق عن كعب بن مالك قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله (ﷺ)، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، أم عمارة، إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدى بن نابى، إحدى نساء بنى سلمة، وهى أم منيع. قال: فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله (ﷺ)، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج. قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها: إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. قال: فتكلم رسول الله (ﷺ)، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب فى الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، والذى بعثك بالحق نبيّا، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر. قال: فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله (ﷺ)، أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها، يعنى اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن

ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله (ﷺ)، ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم». [السيرة النبوية: ص ٣١٤، ٣١٥][٣٠].

أقسم الأنصار قائلين: «نتعهد بالطاعة التامة للرسول، فى الرخاء والشدة، لن نخطئ فى حق أحد، وأن نصدق القول فى جميع الأحوال، وفى عبادة الله لا نخاف لوم أحد».

قال ابن إسحاق: حدثنى عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، عن أبيه الوليد، عن جده عبادة بن الصامت، وكان أحد النقباء، قال: بايعنا رسول الله (ﷺ)، بيعة الحرب. وكان عبادة من الاثنى عشر الذين بايعوه فى العقبة الأولى على بيعة النساء. على السمع والطاعة، فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف فى الله لومة لائم. [السيرة النبوية: ص ٣٢٣][٣١].

تم صياغة البيعة بالمصطلح القبلى، وركزت على الدفاع المتبادل[٣٢]. لم تكن هناك بعد فكرة الأمة الموحدة؛ إذ ما زال الأوس والخزرج وقريش يعملون منفصلين، ولم يكن محمد (ﷺ) يذهب ليثرب كرئيس دولة، لكن ببساطة كحكم فى النزاعات بين الأوس والخزرج وكرئيس للمهاجرين من مكة. سيحكم الأنصار اثنا عشر «نقيبًا» من العشائر المختلفة. وبالرغم من أن الإسلام حقق خطوات واسعة عظيمة فى يثرب خلال سنة واحدة، إلا أن الأمة الإسلامية هناك كانت كالأمة الإسلامية المحاصرة فى مكة، وبقيت الحقيقة كذلك حتى بعد الهجرة، حيث بقى المسلمون أقلية صغيرة جدًا فى الواحة، بالنسبة للوثنيين، والحنيفيين، واليهود[٣٣]. وقد حققت بيعة المنعة توسعًا رئيسيًا للإسلام؛ حيث انتشر بين المجموعات القبلية الأخرى، لكنها لم تتسام عن الأخلاقيات القبلية بعد. كانت الهجرة مشروعًا خطيرًا، وخطوة مخيفة غير قابلة للنقض، فلم يدرك أحد كيف تنجح؛ لأنه لم يحدث شىء من هذا القبيل فى بلاد العرب من قبل.

عاد الأنصار بعد الحج إلى يثرب فى انتظار وصول المسلمين الفارين من مكة، وقد تبنى القرآن الاسم الآرامى الذى أعطاه اليهود إلى مستوطنة يثرب «المدينة»، حيث

كانت يثرب على وشك أن تصبح مدينة النبى . بدأ محمد (ﷺ) بإقناع المسلمين بالهجرة من مكة، لكنه لم يأمر بذلك ؛ إذ إن أى شخص شعر بأن ذلك فوق قدرته ـ أو قدرتها ـ كان حرّاً فى البقاء، لكن أثناء يوليو وأغسطس عام (١ ق. هـ/ ٦٢٢م)، خرج حوالى سبعين مسلماً وعائلاتهم إلى المدينة، وأقاموا فى بيوت الأنصار حتى يمكنهم إقامة بيوتهم الخاصة. يبدو أن قريشاً لم تبذل جهداً منظماً لحجزهم، وإنما منعت بعض النساء والأطفال بالقوة من الرحيل، ورجعت بأحد الرجال، مقيداً بجمله، فى احتفال بالنصر. ومن جانبهم، كان المسلمون حذرين أن لا يجذبوا الانتباه إلى رحيلهم، واتفقوا على اللقاء خارج حدود مكة، والسفر فى مجموعات صغيرة. هاجر عمر مع عائلته، ورحل عثمان بن عفان ورقية مع زيد وحمزة، لكن محمداً (ﷺ) وأبا بكر بقيا حتى هاجر تقريبًا كل مسلم. لكنه لم تمر فترة طويلة حتى ترك هذا الإنشقاق الرئيسى عن مؤسسة قريش فجوات مقلقة فى المدينة، وكشف الجرح المفتوح الذى سببه محمد (ﷺ) لقبيلته، وبدت البيوت الكبيرة فى وسط مكة مقفرة ومنذرة، «أبواب تصفر ذهابًا وإيابًا، فارغة من السكان».

> قال ابن إسحاق: وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله (ﷺ)، فلم يبق بمكة منهم أحد، إلا مفتون أو محبوس، ولم يوعب أهل هجرة من مكة بأهليهم، وأموالهم إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ وإلى رسول الله (ﷺ) إلا أهل دور مسمون: بنو مظعون من بنى جمح، وبنو جحش بن رئاب، حلفاء بنى أمية، وبنو البكير، من بنى سعد بن ليث، حلفاء بنى عدى بن كعب، فإن دورهم غلقت بمكة هجرة، ليس فيها ساكن. [السيرة النبوية: ص ٣٥٢][٣٤].

وفى أغسطس، وقبل فترة قليلة من استعداده للرحيل، مات مطعم، حامى محمد (ﷺ) المكى، فأصبح مباحًا، وحلاً للقتل ؛ فعقدت قريش اجتماعًا خاصًا لمناقشة مصيره فى دار الندوة، وقد تغيب عنه أبو لهب. أراد بعض الشيوخ إخراج محمد (ﷺ) من مكة، ولكن تغلب عليهم الذين رأوا أن السماح له بالانضمام إلى أولئك المنشقين المجردين من المبادئ فى يثرب سيكون خطراً. وجاء أبو جهل بخطة: كل عشيرة تختار شابًا قويًا، ويقومون جميعًا بقتل محمد (ﷺ). لن يكون هناك ثأر، لأن بنى هاشم لن تستطيع مواجهة قريش كلها. وتجمعت فى تلك الليلة فرقة من الشبان المختارين بعناية خارج بيت محمد (ﷺ)، لكنهم انزعجوا لسماع أصوات

سودة وبعض بنات النبى (ﷺ) من الداخل. وكان من المخزى قتل رجل فى حضور نسائه، لذا قرروا الانتظار حتى يترك البيت فى الصباح التالى. نظر أحدهم ورأى محمداً (ﷺ) نائمًا فى فراشه، متغطيًا بعباءته. ولم يعرفوا أنه كان قد خرج من مخرج خلفى، تاركًا عليًا نائمًا على فراشه. وعندما خرج علىٌّ فى الصباح التالى، أدرك الشباب بأنهم قد خدعوا، وقدمت قريش مائة ناقة جائزة لمن يعيد محمداً (ﷺ)، حيًا أو ميتًا.

فى ذلك الوقت، كان محمد (ﷺ) وأبو بكر يختفيان فى غار جبل خارج المدينة، حيث بقيا هناك ثلاثة أيام، ومن وقت لآخر، يتسلل إليهما مؤيدوهما ليجلبوا لهما الأخبار والمؤن. قيل إن مجموعة متعقبين مرت بالكهف، لكن لم يعبأ أحد بالنظر داخله لأن عنكبوت غطت المدخل، وجلست حمامة على بيضها. وكان محمد (ﷺ) هادئًا طوال الوقت، ولديه إحساس قوى بوجود الله. وقد أخبر القرآن كيف طمأن أبا بكر:

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾

[سورة التوبة: ٤٠][٣٥].

يصر القرآن على نحو متكرر بأنه عندما يجد المسلمون أنفسهم فى ظروف صعبة أو مرعبة، فيجب عليهم أن يحافظوا على هدوئهم وسكينتهم، ولا يجب أبدًا أن يقعوا فريسة للغضب الطائش الانتقامى للجاهلية.

عندما خمدت حمى البحث عنهما، تسلق محمد (ﷺ) وأبو بكر خارج الكهف، حذرين أن يزعجا الحمامة، وركبا الناقتين اللتين أعدهما أبو بكر لرحلتهما. أراد أبو بكر إعطاء الناقة الفضلى لمحمد (ﷺ)، والذى أصر على دفع ثمنها. كانت هذه هجرته الشخصية، تضحية إلى الله، وأراد أن يتكفل بكل أعباء الحدث. دعا محمد (ﷺ) ناقته القصواء وقد بقيت ناقته المفضلة لبقية حياته. كانت رحلة خطرة، لأنه ليس فقط كان مهدر الدم، بل كان مطلوبًا حيًا أو ميتًا، لذا أخذ دليلهما طريقًا دائريًا، وتعرجوا ذهابًا وإيابًا ليبددوا آثارهم عمن يقتفيها.

فى تلك الأثناء، كان المسلمون ينتظرون وصولهما للمدينة بقلق. وكان يعيش عدد من مهاجرى مكة فى قباء، أقصى بقعة فى جنوب الواحة، وكانوا كل يوم بعد صلاة الصبح يتسلقون الصخور البركانية، ويمسحون بأنظارهم التضاريس القاحلة خارج المستوطنة بحثًا عن نبيهم. وفى صباح يوم (الاثنين ٨ ربيع الأول ١ هـ/ ٤ سبتمبر عام ٦٢٢م)، رأى أحد اليهود سحابة غبار فى الأفق وصاح بالأنصار: «بنى قيلة! لقد قدم! لقد قدم!» اندفع رجال ونساء، وأطفال المدينة لاستقبال نبيهم، ووجدوهما تحت نخلة للاستراحة.

بقى محمد (ﷺ) وأبو بكر فى قباء ثلاثة أيام، ولكن لم يصبر المسلمون فى «المدينة» (كما كان يدعى الجزء الأكثر كثافة من الواحة) على عدم رؤيته، لذا ذهب إليهم ليقرر أين يقيم. على طول الطريق، سأله الأنصار النزول والإقامة عندهم، لكن محمدًا (ﷺ) رفض بأدب لأنه كان حريصًا على البقاء مستقلاً عن المجموعات المتصارعة فى المدينة، وبدلاً من ذلك، ترك ناقته القصواء، وسأل الله أن يوجهها. فى النهاية بركت الناقة فى مكان لتجفيف التمر يمتلكه أحد الأنصار، ثم نزل محمد (ﷺ) وسمح لأمتعته أن تحمل إلى بيت قريب، ثم بدأ بالتفاوض مع المالك لشراء الأرض. وعندما اتفق على السعر، بدأ كل المسلمين العمل لبناء المسجد والمنزل النبوى. كان هذا شاقًا على المهاجرين؛ لأن قريشًا لم تتعود على العمل اليدوى، وخاصة عثمان المرفه.

لم يكن المبنى الأول فى الإسلام مهيبًا، ولكنه أصبح نموذجًا لكل مساجد المستقبل، حيث كان المسجد فضاء مفتوحًا واسعًا بما يكفى لأداء الصلاة جماعة، ويعبر عن بساطة المثالية الإسلامية المبكرة. كان السقف مدعمًا بجذوع الأشجار، ولم يكن له منبر متقن الصنع، فوقف محمد (ﷺ) على مقعد بسيط لمخاطبة الجمع. وقد عاش محمد (ﷺ) وزوجاته فى الغرف الصغيرة حول المسجد، الذى كان مكانًا للاجتماعات العامة والسياسية، وكذلك دُعى إليه فقراء المدينة لأخذ الصدقة وتناول الطعام، وربما المبيت. عبرت هذه البناية المتواضعة فى المدينة عن فكرة التوحيد[٣٦].

أراد محمد (ﷺ) أن يبين أن المقدس والجنسى والمحلى يمكن، وفى الحقيقة يجب أن تتكامل. بالمثل، يجب أن تجتمع السياسة ورفاهية المجتمع ونظامه الاجتماعى فى

نطاق القداسة. وفى إسكان زوجاته حول المسجد، كان محمد (ﷺ) يعلن ضمنيًا أنه ليس هناك فاصل بين الحياة العامة والحياة الخاصة، ولا تمييز بين الجنسين.

القدسية فى الإسلام شاملة وليست مقصورة على أحد. إذا أراد اليهود والمسيحيون التعبد فى المسجد فلا مانع؛ لأنهم أيضًا جزء من عائلة الله.

اكتمل البناء فى (عام ١ هـ/ إبريل ٦٢٣م)، بعد حوالى سبعة شهور من الهجرة. أشار حجر، فى الحائط الشمالى، إلى اتجاه القبلة: القدس. فى بادئ الأمر، لم يكن هناك دعوة رسمية للصلاة، لكن لم يكن ذلك مرضيًا تمامًا، لأن كل مصلٍّ يأتى فى وقت مختلف. فكر محمد (ﷺ) فى استعمال بوق، مثل اليهود، أو صافق خشبى مثل المسيحيين المحليين، لكن أحد المهاجرين رأى حلمًا هامًا، حيث رأى رجلاً يلبس عباءة خضراء، أخبره بأن شخصًا له صوت رنان عالٍ، يجب أن يعلن الصلاة قائلاً: الله أكبر، للتذكير بالأولوية الأولى للمسلم.

أعجب محمد (ﷺ) بالفكرة، واختار بلالاً، العبد الحبشى سابقًا، جهير الصوت. كان بلال كل صباح يرتقى قمة أعلى بيت بجوار المسجد، ويجلس على السقف فى انتظار الفجر. ثم يتمطى، وقبل بداية الأذان، يدعو: «اللهم إنى أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك».

> قال ابن إسحاق: فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة، فيأتى بسحر، فيجلس على البيت ينتظر الفجر، فإذا رآه تمطى، ثم قال: اللهم إنى أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك. [السيرة النبوية: ص ٣٥٨](٣٧).

ربما غير المسلمون قبلتهم إلى القدس، لكنهم لم ينسوا مكة. عندما علم محمد (ﷺ) بأن العديد من المهاجرين اشتاقوا للوطن، دعا: «اللهم اجعلنا نحب هذه البلدة بقدر ما جعلتنا نحب مكة، وأكثر».

> قال ابن إسحاق: قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله (ﷺ) «اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة، أو أشد». [السيرة النبوية: ص ٤٠٥](٣٨).

كان المعنى الجوهرى للهجرة أن يخلق المسلمون مجتمعًا مختلفًا، وإحدى أفكار محمد (ﷺ) الأولى كانت نظام «المؤاخاة»، حيث جعل لكل مكى «أخًا» من الأنصار

ليتجاوز المسلمون خطوط القرابة التقليدية. سرعان ما سقط الانفصال السياسى للمهاجرين عن الأنصار عندما مات أحد نقباء الأنصار الاثنى عشر، فأخذ محمد (ﷺ) موقعه[٣٩]. كان المسلمون يخلقون وبشكل تدريجى «قبيلة جديدة»، ترجمت علاقات القرابة القديمة بشكل مختلف. أولئك الذين هاجروا اعتبروا أنفسهم متميزين عن المسلمين الذين بقوا فى مكة، بالرغم من أنهم جميعًا يعودون لفصيلة الدم نفسها. ولا ينبغى للمسلمين، مهما كانت قبيلتهم أو عشيرتهم، أن يحارب أحدهم الآخر، فالمهاجرون والأنصار يجب أن يتحدوا بشكل كامل كأى قبيلة تقليدية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)﴾ [سورة الأنفال: ٧٢ - ٧٣][٤٠].

مثل القبيلة، أصبحت الأمة «جالية واحدة لكل الرجال»، وتقوم بـ«التحالف» مع الحلفاء غير المسلمين بالطريق المعتاد:

قال ابن إسحاق: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معه، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفيدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم والمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم...» [السيرة النبوية: ص ٣٥٤، ٣٥٥][٤١].

كزعيم للأمة، يمكن لمحمد (ﷺ) الآن أن يطبق إصلاحات أخلاقية واجتماعية بطريقة كانت مستحيلة فى مكة، كان هدفه أن يخلق مجتمع العدل والحلم، حيث يجب على المؤمنين أن يعبروا عن إيمانهم بطريقة عملية: يجب أن يصلوا، ويتشاركوا فى ثرواتهم، وفى الأمور التى تتعلق بالجماعة: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ

بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى: ٣٨] للحفاظ على وحدة الأمة، ويدافعوا عن أنفسهم إذا ما هوجموا، لكن بدلاً من أن ينتقموا بأسلوب الجاهلية القديم الذى لا يمكن السيطرة عليه، يجب دائمًا أن يستعدوا للعفو، لأن الثأر التلقائى، الواجب الأساسى للمروءة الجاهلية، يمكن أن يكون شرًا عظيمًا؛ حيث أكد القرآن، وكرر بلا كلل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [سورة فصلت: ٣٤]. ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [سورة الشورى: ٤٠] [٤٢].

لكن هذا التحول لا يمكن إنجازه بين عشية وضحاها؛ لأن روح الجاهلية القديمة ترسخت من قبل فى قلوب المسلمين. بعد الهجرة بفترة قليلة، لاحظ أحد اليهود فى المدينة حشدًا من المسلمين، من الأوس والخزرج، يتوادون كما لو أنه لم يسبق بينهم قتال وعداوة فغضب لذلك. بدا بشكل واضح أن الإسلام جعلهم لطافًا خفافًا! طلب من شاب يهودى الجلوس قرب المجموعة وقراءة الأشعار التى تذكرهم بحروبهم المريرة. لم تمر فترة طويلة حتى اندلع التعصب العشائرى الكامن، وأمسك المسلمون بخناق بعضهم البعض. أسرع محمد (ﷺ) إليهم فى ضيق عظيم:

> قال ابن إسحاق: ومر شاس بن قيس، وكان شيخا قد عسا، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله (ﷺ) من الأوس والخزرج. فى مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية. فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار. فأمر فتى شابا من يهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل. فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب، أوس بن قيظى، أحد بنى حارثة بن الحارث، من الأوس، وجبار بن صخر، أحد بنى سلمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة، فغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة. والظاهرة: الحرة. السلاح السلاح. فخرجوا إليها. فبلغ ذلك رسول الله (ﷺ)، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم

الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم؟». فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله (ﷺ) سامعين مطيعين. [السيرة النبوية: ص ٣٨٥، ٣٨٦](٤٣).

لم يلتزم كل مسلمى المدينة بالتغيير. اعتنق البعض الإسلام للمكسب المادى، كانوا يجلسون على السور، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، بين بين، منتظرين نهاية هذه المغامرة الجديدة. أطلق القرآن على هؤلاء اسم «المنافقين»؛ لأنهم لم يكونوا مخلصين واستمروا فى تغيير أفكارهم:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾

[سورة البقرة: ٨ ـ ١٥](٤٤).

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)﴾

[سورة النساء: ١٣٧ ـ ١٤٥](٤٥).

كان زعيمهم ابن أبى، قد صار مسلمًا، لكنه بقى ممتعضًا وناقدًا للدين الجديد. كان محمد (ﷺ) يعامله دائمًا باحترام، ويسمح له بمخاطبة الجماعة كل أسبوع أثناء صلاة الجمعة، لكن من وقت لآخر تظهر على السطح عداوته المدفونة:

> روى ابن إسحاق عن زيد بن حارثة قال: ركب رسول الله (ﷺ) إلى سعد بن عبادة يعوده من شكو أصابه على حمار وأردفنى خلفه، فمر بعبد الله بن أبى وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول الله (ﷺ)تذمم من أن يجاوزه حتى ينزل، فنزل فسلم، ثم جلس قليلاً، فتلا القرآن، ودعا إلى الله عز وجل، وذكر بالله وحذر، وبشر وأنذر.
>
> قال ابن اسحاق: حتى إذا فرغ من مقالته، قال: يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقًا، فاجلس فى بيتك فمن جاء له فحدثه إياه، ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه. وقام رسول الله (ﷺ) فدخل على سعد بن عبادة، وفى وجهه ما قال عدو الله ابن أبى، فقال: والله يا رسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئًا، لكأنك سمعت شيئًا تكره، قال: «أجل»، ثم أخبره بما قال ابن أبى، فقال سعد: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكًا. [السيرة النبوية: ص٤٠٤](٤٦).

أصبح بعض اليهود أيضًا معادين للقادمين الجدد. لم يتوقع محمد (ﷺ) أن يتحول اليهود إلى الإسلام، وعداؤهم له لم يكن دينيًا وإنما سياسيًا واقتصاديًا. تدهور وضعهم فى الواحة، وإذا نجح محمد (ﷺ) فى توحيد الأوس والخزرج، لن تتكرر لهم فرصة استعادة سيادتهم السابقة؛ لذلك اعتقد ثلاث من القبائل اليهودية الكبيرة أنه من العقل دعم ابن أبى والوثنيين العرب فى الواحة الذين بقوا معارضين لمحمد (ﷺ)(٤٧). أخبرنا المؤرخون المسلمون الأوائل أنهم أشعلوا الجدل الدينى [الكلامى] ضد آيات القرآن. ربما يعكس ذلك القول الجدل اليهودى الإسلامى أثناء القرنين الثامن والتاسع(٤٨). كان يهود القرن السابع بالمدينة محدودى المعرفة بالتوراة والتلمود، ولم يكونوا ملتزمين تمامًا، لكنهم تعودوا على أن يروا إيمانهم مخالفًا لدين العرب(٤٩). لم تكن فكرة نبى عربى غريبة عليهم، فقد كان عندهم نبى يدعى ابن صياد، كان مثل

محمد (ﷺ)، يلف نفسه بعباءة، وقرأ أشعارًا ملهمة، وادعى أنه كان من رسل الله[٥٠].

لكن إذا لم يتوفر لليهود جدال على أساس معرفى، فمن المحتمل أن يكون المسلمون قد واجهوا قدرًا كبيرًا من التعصب الدينى فى المدينة. يخبرنا ابن إسحاق بأنه كان بعض اليهود «يضحك ويسخر» من القرآن[٥١]. الكثير من اليهود كانوا ودودين، وربما تعلم محمد (ﷺ) منهم الكثير، لكن كان لدى بعض أهل الكتاب أفكار وجدها غريبة جدًا فى الحقيقة. كانت فكرة دين خاص غريبة على محمد (ﷺ)، وكره النزاعات الطائفية:

﴿وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣)﴾ [سورة آل عمران: ٧٣][٥٢].

وانزعج من فكرة «شعب الله المختار» أو الاعتقاد بأن اليهود أو المسيحيين فقط سوف يدخلون الجنة:

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾ [سورة البقرة: ١١١ـ ١١٣، ١٢٠][٥٣].

ولقد تعجب أيضًا من اعتقاد بعض المسيحيين أن الله ثالث ثلاثة وأن المسيح ابن الله:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦)﴾ [سورة البقرة: ١١٦]، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي

وأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾

[سورة المائدة: ١١٦ ـ ١١٨][٥٤].

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨)﴾ [يونس: ٦٨]، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾ [سورة مريم: ٨٨ ـ ٩٢].

لكنه بقى مقتنعًا بأن هذه الأفكار الغريبة كانت انحرافات لقلة ضلت عن الاعتقاد الصحيح:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾ [سورة المائدة: ٧٣ ـ ٧٧][٥٥].

ذكَّرَ القرآن المسلمين أن العديد من أهل الكتاب كانوا «أمة قائمة بالحق»:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾ [سورة آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥][٥٦].

يجب أن يتذكر المسلمون أن لكل أمة وحيها التشريعى الخاص، لذا يجب ألا يشتركوا فى المنازعات عديمة الجدوى، وإذا هاجم أهل الكتاب دينهم، يجب أن يتصرف المسلمون بحلم، وبأدب يجيبون:

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾ [سورة النحل: ١٢٥]، ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦][٥٧].

لتفادى هذا الخلاف العقيم، قرر محمد (ﷺ) العودة إلى «دين إبراهيم» مثلما فعل الأحناف، إبراهيم الذى لم يكن «يهوديًا» ولا «مسيحيًا» لأنه عاش قبل التوراة والإنجيل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥)﴾ [سورة آل عمران: ٦٥][٥٨].

بعد الهجرة، بدأ القرآن يطلق لفظ «حنيف» و«الحنيفية» على المسلمين والإسلام، لكن أعطاهما معنى جديداً. تعنى الحنيفية عند محمد (ﷺ) ببساطة، استسلامًا كليًا لله. كانت هذه هى الرسالة الأصلية النقية للأنبياء، قبل أن يفسدها التعصب الطائفى. إبراهيم (ﷺ)، على سبيل المثال، لم تكن له طائفة خاصة. كان ببساطة مسلمًا، «سلم نفسه لله» و«رجل الإيمان الصافى» (حنيف): ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾ [سورة آل عمران: ٦٧][٥٩]. عندما أعاد إبراهيم وإسماعيل (عليهما الصلاة والسلام) بناء الكعبة، لم

ينشئا دينًا خاصًا، لكن أرادا ببساطة أن يسلما حياتهما كلية إلى الله. وكان دعاؤهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾ [سورة البقرة: ١٢٨].

طرد المسلمون من مكة بسبب التعصب الديني؛ لذا يجب أن يتفادوا كل احتكار للدين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)﴾ [سورة الأنعام: ١٥٩][٦٠]. بدلاً من أن يصروا على احتكارهم للحقيقة، قال المسلمون الحقيقيون:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [سورة الأنعام: ١٦١ - ١٦٣][٦١].

كان من الشرك الافتخار بتقاليد الدين بدلاً من التركيز على التقرب لله.

قبل نهاية (١٧ شعبان عام ٢ هـ/ ٢٨ يناير ٦٢٤م)، تلقى محمد (ﷺ) الوحى بينما كان يؤم صلاة الجمعة، بأن يجعل الكعبة قبلته بدلاً من بيت المقدس:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)﴾ [سورة البقرة: ١٤٤][٦٢].

لقد كانت رسالة تذكير بأنهم لن يتبعوا أى مؤسسة دينية، لكن الله ذاته، والله فقط. كان هذا إعلان استقلال. لم يكن المسلمون بحاجة لأن يشعروا بأنهم يتتبعوا خطوات الأديان السابقة. قال الله:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)﴾ [سورة البقرة: ١٥٠][٦٣].

ابتهج كل من المهاجرين والأنصار بالقبلة الجديدة، وربطتهم بشدة معًا. أحبوا جميعًا الكعبة، التى كانت لها جذور عميقة فى التقاليد العربية عن مدينة القدس البعيدة. لكن كانت هناك مشكلة؛ لأن الكعبة كانت فى مكة تحت يد الوثنيين، والعلاقات مع قريش أصبحت أكثر توترًا من أى وقت مضى.

***

الفصل الرابع

الجهـاد

تم تغيير القبلة فى نهاية فترة من عدم اليقين. كان محمد (ﷺ) وأصحابه يتقلبون هنا وهناك فى قلق، باحثين عن إرشاد فى اضطرابهم. وقد علم محمد (ﷺ) أن على النبى أن يحدث تغييراً فى العالم، ولا يمكنه ببساطة أن ينسحب من التيار الرئيسى للحياة، فعليه أن يضع المشيئة الإلهية فى حيز التنفيذ، ويقيم مجتمع المساواة والعدل. ولكن الهجرة دفعت المسلمين بعيداً عن مركز الأحداث فى مكة، وإلى وضع شاذ. وبرغم أن محمداً (ﷺ) بدأ فى إرساء قواعد الإصلاح الاجتماعى، فقد عرف أنه ليس بمقدوره أن يترك أثراً باقياً فى بلاد العرب ما دام محصوراً ومعزولاً فى المدينة. كانت مكة «أم القرى» هى الحاسمة فى تطوير العرب، حيث احتاج العرب عبقرية قريش التجارية. أصبحت مكة مؤخراً هى مركز العالم الإسلامى، يتجه المسلمون إليها فى الصلاة، ولكنها بدت بعد الهجرة كما لو كانت الحبيب الغائب صعب المنال[1]. لم يتمكن المسلمون من الحج إلى مكة كبقية العرب، وأدرك محمد (ﷺ) أن مكة هى مفتاح نجاح مهمته. استأصلت عداوة قريش الأمة الإسلامية من انتمائها القبلى، وألقت بها إلى سجن العزلة. ودون مكة، سيكون مثال الإسلام التلاشى. على محمد (ﷺ) إذن أن يبرم سلاماً مع قومه، ولكن بعد الصدمة الأولى للهجرة، بدا أن معظم قريش قد نسى المسلمين.

كان على محمد (ﷺ) قبل أن يبحث عن صلح مع مكة، أن يجعل مكة تشعر به، وكان عليه أيضاً أن يؤمن وضعه فى المدينة حيث عرف أنه بالنسبة لأكثر أهل المدينة، كان محل اختبار. لقد تحدت المدينة جبروت قريش بقبول المهاجرين؛ لأنها توقعت

بعض الميزات المادية(*)، ويجب على محمد (ﷺ) أن يوفر ذلك، أو على الأقل عليه أن يمنع إرهاق المهاجرين لاقتصاد أهل المدينة. ولكن كان من الصعب على المهاجرين أن يكتسبوا أرزاقهم، فمعظمهم كانوا تجاراً وممولين، بمثابة بنوك متنقلة، وفرص التجارة في المدينة قليلة جداً، نظراً لاحتكار أثرياء العرب واليهود التجارة. لم يكن للمهاجرين خبرة بالزراعة، وعلى أي حال، كانت الأراضي الصالحة للزراعة مزروعة بالفعل من قبل أهل المدينة. وبذلك سيصبح المهاجرون عبئاً على الأنصار، ما لم يجدوا مصدراً مستقلاً للدخل، وكانت هناك وسيلة واضحة لتحقيق ذلك.

كان موقع المدينة مناسباً للهجوم على قوافل مكة التجارية في طريقها إلى سوريا، وبعد وصول محمد (ﷺ) إلى المدينة بقليل، بدأ في إرسال عصبات من المهاجرين في حملات للإغارة[2]. لم يكن الهدف إراقة الدماء، ولكن تأمين مصدر للدخل من الجمال والبضائع التي عليها، والإمساك بالقرشيين لأخذ الفدية عنهم. لم يكن أحد ليصدم بمثل هذا التطور، فقد كان الغزو حلاً طبيعياً في أوقات الشدة، ولكن استغرب بعض العرب تهور المسلمين مع قريش الجبارة، خاصة أنهم كانوا، وبوضوح، عديمي الخبرة القتالية.

أرسل محمد (ﷺ) خلال السنتين الأوليين من الهجرة ثماني حملات. لم يكن يخرج بنفسه في تلك الحملات، ولكن كان يفوض أمراء مثل حمزة وعبيدة بن الحارث، ولكن كان من الصعب الحصول على معلومات دقيقة عن خطوط سير قوافل التجارة، ولم ينجح أي من تلك الحملات.

لم تكن قريش قبيلة حرب، فلقد تركت حياة البداوة منذ زمن طويل، وفقدت عادة ومهارة الغزو، ويظهر القرآن أن بعض المهاجرين لم يستحسنوا القتال:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [سورة البقرة: ٢١٦][3].

ولكن لم يثن ذلك محمداً (ﷺ) عن عزمه. ورغم أن المهاجرين كانوا بحاجة ماسة لمصدر دخل، فلم يكن السلب غرضه الأساسي. عاد أولئك المغيرون بأيد

(*) كانت مكة مركز التجارة في بلاد العرب، فكيف يأمل أهل المدينة أن يحصلوا على بعض الميزات المادية بعدائهم لذلك المركز؟.

فارغة، ولكنهم على الأقل لفتوا نظر مكة للمسلمين. انزعجت قريش، واضطرت لاتخاذ احتياطات لم تفكر فيها من قبل، واشتكى التجار من اضطرارهم لتغيير مساراتهم لأنهم أصبحوا عرضة لهجمات المسلمين، وتعطلت التجارة المكية قليلاً. وفى (وفى ربيع أول ٢ هـ/ يوليه ٦٢٣م)، قاد محمد (ﷺ) بنفسه غزوة على قافلة كبيرة يقودها أمية بن خلف، وكانت الغنائم مبشرة حتى أنه تطوع ٢٠٠ مسلم للحملة، ولكن أيضًا أفلتت القافلة، ولم يكن هناك قتال.

لم يكن الغزو بحاجة إلى تبريرات نظرية فى حياة عرب الصحراء، وكان ينظر إليه على أنه ضرورة لا مفر منها أيام الأزمات. ولكن كان محمد (ﷺ) مصممًا على تجاوز الأعراف القبلية القديمة، أمر القرآن المسلمين أن يقولوا «السلام عليكم» للكافرين، ولم يأمر بمهاجمتهم وهم يقومون بتجاراتهم وأعمالهم، ولكن بعد وصول محمد (ﷺ) إلى المدينة بقليل، نزل عليه وحى ذو نزعة أكثرعسكرية:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾ [سورة الحج: ٣٩: ٤١][٤].

بدأ القرآن فى تطوير نظرية للحرب العادلة، حيث كانت الحروب الاعتدائية جديرة بالثناء فى حياة عرب الصحراء، ولكن فى القرآن، كان الدفاع عن النفس هو التبرير الممكن الوحيد لأعمال الحرب، وكانت الحروب الاستباقية مدانة:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)﴾ [سورة البقرة: ١٩٠][٥].

وكانت الحرب دائمًا شرًا فظيعًا، ولكنها ضرورية فى بعض الأحيان للحفاظ على القيم، مثل حرية العبادة. حتى هنا، لم يتخل القرآن عن تعدديته: يجب حماية معابد اليهود وكنائس المسيحيين، تمامًا كحماية المساجد. شعر المسلمون بأنهم عانوا وطأة اعتداء رهيب؛ فاضطرارهم للخروج من مكة ليس له ما يبرره، وإخراجهم من القبيلة انتهك أعمق المقدسات، وأصاب قلب الشخصية المسلمة.

ولكن محمداً (ﷺ) اتخذ مسلكًا خطيرًا. قد كان يعيش فى مجتمع مدمن العنف، ولم ير تلك الهجمات - فى وقت شدة الحاجة - كوسيلة للدخل، ولكن - فى الأساس - طريقة لحل مشاكله مع قريش. ولقد اكتشفنا فى حاضرنا أن شن الحروب لتحقيق السلام هو مغامرة محفوفة بالمخاطر. يمكن لقساوة المعارك أن تزلزل المبادئ الرئيسية التى يتقاتل من أجلها المحاربون، حتى أنه يصبح بغير مقدور أى من الطرفين المتقاتلين أن يزعم سعيه وراء المبادئ الأخلاقية. حاول محمد (ﷺ) أن يجعل لغزواته أرضية أخلاقية، ولكن لم تكن لدية خبرة الحملات العسكرية الطويلة، وسيعلم أنه مع بدء الحروب، تتخذ دائرة العنف قوتها الدافعة المستقلة، ويمكنها أن تتصاعد بشكل مأساوى خارج نطاق السيطرة.

فى البداية، حارب محمد (ﷺ) طبقًا للقواعد التقليدية، ولكن فى (رجب ٢ هـ يناير ٦٢٤م)، قبيل تغيير القبلة، خاض تجربته فى الحرب غير المتوقعة(٦). خلال الشتاء، كانت قريش تبعث قوافلها التجارية إلى اليمن فى الجنوب، فلا تمر على المدينة شمال مكة. ولكن كان محمد (ﷺ) دائمًا متلهفًا لجذب انتباه قريش، فأرسل مجموعة إغارة صغيرة من تسعة رجال(*) للهجوم على إحدى القوافل التجارية. كان ذلك فى نهاية رجب، أحد «الشهور الحرم» التى يمتنع فيها القتال فى بلاد العرب، وفى آخر يوم من رجب، وجد المسلمون قافلة صغيرة مخيمة فى نخلة(**)، ماذا يفعلون؟ إذا انتظروا لليوم التالى، حتى ينتهى الشهر الحرام، دخلت القافلة مكة. قرر المسلمون الهجوم، وقتل أول سهم أحد التجار، وفر الباقون، لكن استطاع المسلمون الإمساك برهينتين(***) أحضروهما مع تجارة القافلة إلى المدينة.

ولكن بدلاً من أن يقابلهم المسلمون استقبال الفاتحين، ارتعب المسلمون من ذلك القتال فى الشهر الحرام، ولعدة أيام، لم يدر محمد (ﷺ) ماذا يفعل. لقد تخلى بالفعل عن معظم الديانة المكية، وربما قد تخيل أنه يستطيع التخلص من بقيتها فى مسألة القتال فى الشهر الحرام. كان الهجوم ناجحًا، لم يكن فقط من ناحية الغنائم، ولكنه أظهر لقريش أنه يستطيع مهاجمتها على أعتاب دارها. ولقد أثار محمد (ﷺ) إعجاب أهل المدينة، ولكن كان هناك التباس وريبة فى العملية كلها. لم يسبق لمحمد

(*) وتسمى بسرية عبد الله بن جحش.

(**) وهو بستان ابن عامر الذى كان قرب مكة.

(***) هما: عثمان بن عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان.

(ﷺ) أن أدان تقليد الأشهر الحرم؛ وبدت المصادر [التاريخية] غير مستريحة للحادث. لقد اكتشف محمد (ﷺ) أنه مهما تكون حربك مثالية فى البداية، فسيشوب تلك المثالية أمر ما، عاجلاً أو آجلاً.

وفى النهاية، تلقى محمد (ﷺ) تنزيلاً جديدًا، كرر المبدأ الأساسى للحرب العادلة. نعم، لقد كان من الخطأ انتهاك الشهر الحرام، ولكن سياسة قريش فى طرد المسلمين خارج دورهم ومدينتهم كانت انتهاكًا أشنع، وأخبر القرآن محمدًا (ﷺ): ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾. أما عن القتال فى الشهر الحرام، فقد أجاب القرآن:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)﴾ [سورة البقرة: ٢١٦][٧].

قبل محمد (ﷺ) الغنائم، وأكد للمسلمين أنه سوف يقسمها بين المهاجرين بالسوية، وبدأ يفاوض قريشًا على تبادل أسرى الطرفين، يعيد لقريش أسراهم، وتفرج قريش عن اثنين من المسلمين اللذين منعتهما من الهجرة.

ولكن راق لأحد المكيين المأسورين ما رآه من المسلمين فى المدينة، فقرر أن يدخل الإسلام ويبقى فى المدينة. ويعطى الحادث نموذجًا واضحًا لكيفية عمل محمد (ﷺ) فى وضعه الجديد، ولم يكن يستطيع الركون إلى الإجراءات التقليدية. لقد كان يتلمس طريقه خطوة بخطوة، حسب ما تتكشف عنه الأحداث. لم تكن لديه خطة رئيسية يعمل وفقها، ولم يكن ـ مثل بعض أصحابه المندفعين ـ متسرعًا فى مواجهة الأزمات، ولكنه كان يأخذ وقته ليتدبر الأمور، وفى بعض الأحيان كان يعرق بشدة نتيجة مجهوده فى التركيز فى التفكير، ثم يخرج بالحل الذى بدا إلهامًا.

بعد شهور قليلة، وخلال شهر (رمضان ٢هـ / مارس ٦٢٤م)، قاد محمد (ﷺ) حملة كبيرة لاعتراض قافلة تجارية يقودها أبو سفيان عائدًا من سوريا إلى المدينة[٨].

لقد كانت تلك القافلة إحدى أهم قوافل العام، وقد تطوع الكثير من المسلمين لتلك المهمة، بعدما رأوا نجاح سرية نخلة. خرج حوالى ٣١٤ مسلمًا من المدينة إلى ماء بدر، قريبًا من شاطئ البحر الأحمر، حيث أملوا أن يكمنوا للقافلة ويهاجموها. مثلت تلك الحملة أحد أهم الأحداث فى تشكيل الإسلام فى بداية تاريخه، رغم أنها بدت فى وقتها مجرد غزوة أخرى، وبقى الكثير من المسلمين المخلصين فى بيوتهم بدلاً من الخروج لها، ومنهم عثمان بن عفان، الذى كانت زوجته رقية بنت النبى (ﷺ)، مريضة.

ظهر فى البداية أن القافلة ستفلت كالعادة، فقد عرف أبو سفيان بخروج المسلمين، وبدلاً من أن يأخذ طريق الحجاز، اتجه بعيدًا عن الساحل، وأرسل لمكة من يستنجد بها. جن جنون قريش مما اعتبرته إهانة محمد (ﷺ) لهيبتها وشرفها، وعزم كل كبارها على الخروج لإنقاذ القافلة. كان أبو جهل بالطبع متلهفًا على معركة، وانحشر أمية بن خلف البدين فى درعه، وحتى بعض أعضاء عائلة محمد (ﷺ) خرجوا للقتال ضده، بعد اقتناعهم أنه فى هذه المرة تجاوز كل الحدود، فخرج ابنا أبى طالب (عقيل وطالب)، وخرج العباس عم محمد (ﷺ)، وخرج ابن أخى خديجة (حكيم بن حزام) فى جيش مكة الألفى إلى بدر لقتال محمد (ﷺ)، ولم يخرج أبو لهب لمرضه.

وفى تلك الأثناء، استطاع أبو سفيان أن يخدع المسلمين ويفلت بقافلته، وأرسل لمكة أنه فى الطريق إليها وعلى الجيش المكى العودة. تبين المصادر التاريخية بوضوح أنه عند ذلك أصبح الكثير من القرشيين يريدون العودة بدلاً من قتال أقاربهم، ولكن لم يكن أبو جهل ليفوت تلك الفرصة:

> قال ابن إسحاق: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدراً - وكان بدر موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم به كل سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجذر ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، بعدها، فامضوا. [السيرة النبوية: ص ٤٢٣][٩]

وحتى كلمات التحدى التى أعلنها أبو جهل، لا تنم عن توقع معركة، فهو يتحدث عن أكل وشرب ورقص، وليس عن أهوال قتال. لقد تركت قريش حياة الصحارى العربية، حتى أصبح القتال بمثابة رفاهية تحفظ هيبة مكة.

كانت الروح فى المعسكر الإسلامى مختلفة تمامًا، فبعد أن عانى المسلمون من أذى وإرهاب الهجرة، لم يعد المهاجرون ينظرون للأحداث بثقة قريش ولا بعدم إدراكها لخطورتها. وشاور محمد (ﷺ) رؤساء العشائر أول ما عرف قدوم جيش مكة. كان المسلمون أكثر بقليل من ثلاثمائة بينما كان المكيون أكثر من ألف. خرج المسلمون لغزوة وليس لمعركة مع جيش، والفرق كبير بين الاثنتين. لم يكن محمد (ﷺ) متمرسًا على قيادة الجيوش، ولم يكن يسعه أن يجبر أهل المدينة على القتال خارجها، ولكن كان قرار القتال نابعًا من الرجال أنفسهم، وروى ابن إسحاق قول سعد بن معاذ باسم الأنصار:

> قال ابن إسحاق: قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل» قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله (ﷺ) بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله ـ تعالى ـ قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم». [السيرة النبوية: ص٤٢١][١٠].

تمرس الأوس والخزرج على القتال فى حروبهما المستمرة فى يثرب، خلافًا لقريش التى تجنبت الحروب لتزدهر تجارتها. ولكن الفرق فى العدد كان هائلاً، وتمنى كل المسلمين ألا ينشب قتال.

طوال يومين، حملق الجيشان كل فى الآخر من طرفى الوادى، وازدانت قريش فى رونقها بملابسها البيضاء وأسلحتها اللامعة، وبرغم خطبة سعد بن معاذ، فقد أراد بعض المسلمين الانسحاب، وكان هناك خوف كبير فى المعسكر. حاول النبى

(ﷺ) أن يرفع معنويات المسلمين، فأخبرهم أن الله وعده بأن يرسل ألف ملك ليحاربوا فى صفه:

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الأنفال: ٥ ـ ٩][١١].

ولكن بينما كانت قريش تحتفل وتشرب، واثقة فى أن المسلمين سوف يستسلمون، كان محمد (ﷺ) يتخذ إجراءات عملية، فقد صف جنوده فى تشكيلات متقاربة، وجعل موقعهم بحيث يمنعون قريشًا ماء بدر، وعندما تبدأ قريش فى قتال المسلمين، تضطر إلى صعود التل والشمس فى أعينها. ومع هذا، فعندما رأى محمد (ﷺ) جيش مكة الكبير، رفع يديه داعيًا:

قال الطبرى: لما كان يوم بدر، ونظر رسول الله (ﷺ) إلى المشركين وعدتهم، ونظر إلى أصحابه نيفًا على ثلاثمائة، استقبل القبلة فجعل يدعو يقول: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض». وقال أيضًا عن ابن عباس، أن النبى (ﷺ) قال وهو فى قبته يوم بدر: «اللهم إنى أسألك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم». [تاريخ الطبرى: ٢/ ٤٤٧][١٢].

إذا سمح المسلمون لقريش بأن تعيدهم إلى المدينة، فلن تستطيع الأمة التأثير فى بلاد العرب، ولابد أن بعضًا من عزيمته المعقودة قد انتقل لرجاله. يصف القرآن السكينة التى نزلت عليهم فى تلك اللحظات الرهيبة، ثم هبوب عاصفة ممطرة، مما اعتبروه فألاً حسنًا:

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [سورة الأنفال: ٨ ـ ١١][١٣].

أصبحت قريش أكثر انتباهًا لخطورة الموقف، فبعثت عمير بن وهب الجمحى، وكان صاحب قداح، فقالوا: احزر لنا محمدًا وأصحابه، فصوب فى الوادى وصعد، ثم رجع فقال: لا مداد لهم ولا كمين، القوم ثلاثمائة، إن زادوا زادوا قليلاً، ومعهم سبعون بعيرًا وفَرَسان. يا معشر قريش، رأيت البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، أما ترونهم خرسًا لا يتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعى؛ والله ما أرى أن نقتل منهم رجلاً حتى يقتلوا منا رجلاً، فإذا أصابوا منكم عددهم فما خير العيش بعد ذلك؟! فروا رأيكم.

وقال عتبة بن ربيعة: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموهم لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا.

ولكن كان أبو جهل ضد أى منطق، واتهم من يعترض على القتال بالجبن، تلك الوصمة التى لا يحتملها أى عربى، فقد أفسد أبو جهل الرأى وحرش بالناس وأمر عامر بن الحضرمى أن ينشد أخاه عمرًا، وكان قد قتل بنخلة، فأشعل بذلك شرارة الحرب، ومقاتل كبار القرشيين:

> قال ابن إسحاق: بعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمى، فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فأنشد خفرتك، ومقتل أخيك. فقام عامر بن الحضرمى فاكتشف ثم صرخ: واعمراه، واعمراه. فحميت الحرب، وحقب الناس، واستوسقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة. [السيرة النبوية: ص ٤٢٦][١٤].

أشعل بذلك أبو جهل شرارة الحرب، وساق كبار القرشيين، وهو من ضمنهم، إلى حتفهم.

ابتدأت قوات قريش فى التقدم على كثبان الرمل نحو المسلمين، ورفض محمد (ﷺ) أن يبدأ الهجوم، وحتى بعيد الاشتباك، لم يكن يريد لجنوده القتال حتى قال أبو بكر له إن عليه تنظيم صفوف رجاله وسوف ينصرهم الله.

ومن أول اشتباك، اكتشفت قريش أنها تتورط من سيئ لأسوأ! فهى تحارب بتكبر وتهور متظاهرة بالشجاعة، كما لو كانت فى استعراض، وبدون خطة، بينما اتبع

المسلمون خطة متقنة، فبدءوا برمى العدو بالسهام، ولم يشتبكوا بالسيوف إلا فى نهاية القتال. على منتصف النهار، كانت قريش ولت هاربة فى فوضى عارمة، تاركة وراءها حوالى خمسين من قادتها(*) - بينهم أبو جهل - قتلى فى ميدان المعركة، ولم يكن هناك بين صفوف المسلمين سوى أربعة عشر قتيلاً. أحاط المسلمون فى ابتهاج بأسراهم وجردوهم من أسلحتهم. فى حرب القبائل، لم تكن هناك رحمة بالمنهزمين، فالمجروحين يمثل بهم، والأسرى بصفة عامة يذبحون أو يعذبون(**). أمر محمد (ﷺ) جنوده أن يمتنعوا عن تلك الأفعال التقليدية، فقد أمره الوحى بأن أسرى الحرب إما أن يعفى عنهم، أو تؤخذ عنهم فدية:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾﴾ [سورة محمد: ٤ - ٥](١٥).

حتى فى الحرب، تجنب المسلمون عادات الماضى. أصر القرآن باستمرار على أهمية الرحمة والعفو، حتى فى الصراع المسلح:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [سورة النحل: ١٢٦](١٦).

وخلال المعركة، على المسلمين أن يقاتلوا بشجاعة وثبات لإنهاء الصراع بأسرع ما يمكن، ولكن إذا طلب العدو السلام، فعلى المسلمين أن يضعوا أسلحتهم:

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [سورة البقرة: ١٩٢](١٧).

عليهم أن يقبلوا عرض السلام أو الهدنة. وبالرغم من أنه من الضرورى محاربة الاضطهاد والظلم، يذكر القرآن - بصفة مستمرة - المسلمين بأن الأفضل دائمًا هو حل المشاكل بالجدال الحسن:

(*) كان إجمالى عدد القتلى من المسلمين أربعة عشر، ومن المكيين سبعون، والأسرى منهم سبعون.

(**) كذلك كان الحال فى كثير من بلاد العالم، وحتى قرنين أو ثلاثة من اليوم.

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)﴾ [سورة الأنفال: ٦١] (١٨).

صحيح أن الله سمح بالقصاص فى التوراة، العين بالعين والسن بالسن، ولكن إن تعفوا وتصفحوا خير لكم، ويكفر الله سيئاتكم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)﴾ [سورة البقرة: ١٧٨]، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾ [سورة المائدة: ٤٥] (١٩).

ويحصر القرآن الانتقام فيمن أجرموا، أو العفو عنهم. يعتبر ذلك تقدمًا كبيراً فى قانون التقليدى الذى كان يسمح بالانتقام من أى عدد من أعضاء قبيلة المعتدى. يذكر القرآن المسلمين بأنهم لا يقاتلون قريشًا كلها، وإنما أولئك الذين اعتدوا عليهم، أما الذين بقوا على الحياد، فلا يجب أن يمسهم المسلمون بسوء:

﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (٩٠)﴾ [سورة النساء: ٩٠]، ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)﴾ [سورة الممتحنة: ٨] (٢٠).

لم يكن محمد (ﷺ) مسالمًا لدرجة رفض الحرب بأى شكل وبأى ثمن، واعتقد أن الحرب فى بعض الأحيان لا مفر منها، بل وحتى ضرورية. بعد معركة بدر، تيقن المسلمون أن قريشًا ستعمل على الانتقام منهم إن عاجلاً أو آجلاً، وأعدوا أنفسهم لجهاد طويل قاس معها. ولكن المعنى الرئيسى لكلمة «جهاد» التى كثيراً ما نسمعها اليوم، ليس هو الحرب المقدسة، ولكنه بذل الجهد، أو الكفاح، الضرورى لممارسة ما أراده الله من المرء. وعلى المسلمين أن يبذلوا وسعهم فى كل المجالات: الثقافية

والاجتماعية والاقتصادية والروحية والعائلية، طبقًا لما أراده الله منهم، وفى بعض الأحيان سيضطرون للقتال، ولكن ليس هذا واجبهم الرئيسى.

وفى طريق العودة من بدر، أرسى محمد (ﷺ) قاعدة مهمة فى حديثه المشهور «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، فإصلاح المجتمع وإصلاح القلوب أكثر أهمية وصعوبة من القتال.

أكسبت بدر محمدًا (ﷺ) وضعًا أعلى فى المدينة، فأبرم ميثاقًا مع قبائل المدينة بما فيها من قبائل اليهود والتى وافقت أن تعيش بسلام مع المسلمين(*)، وعاهدتهم على ألا تعقد أى معاهدات منفصلة مع مكة. كان على كل سكان المدينة أن يدافعوا عنها ضد أى هجوم، وضمن الميثاق الجديد ـ بعناية ـ حرية اليهود الدينية، وتوقع منهم المساعدة «فى أى حرب ضد من دخلوا فى الميثاق»[٢١](**). احتاج محمد (ﷺ) أن يعرف من يقف بجانبه، وغادر المدينة بعض ممن لم يقبلوا الميثاق، ومنهم بعض الحنيفيين الذين أوجب عليهم ولاؤهم للكعبة أن يوالوا قريشًا. ظل محمد (ﷺ) بالنسبة للعرب شخصية مختلفًا عليها، ولكن بعد انتصاره فى بدر، رغبت بعض قبائل البدو فى التحالف معه فى صراعات المستقبل.

كذلك ألمت تغييرات بعائلة محمد (ﷺ)، فقد ماتت ابنته رقية أثناء المعركة، وحزن عليها عثمان حزنًا شديدًا، ولكن عوضه أن يتخذ أختها أم كلثوم زوجة، وأبقى على علاقته الحميمة بالنبى (ﷺ).

كان أبو العاص، زوج زينب بنت محمد (ﷺ) الكبرى، من ضمن أسارى بدر، وقد بقى على دين آبائه. أرسلت زوجته زينب من المدينة فديته، مع سوار فضى كان لأمها خديجة. عرف محمد (ﷺ) السوار ففاضت مشاعره وداهمه الأسى. ترك محمد (ﷺ) أبا العاص يعود إلى مكة طمعًا فى إسلامه، ولكن أصر أبو العاص على الرفض، واشترط عليه محمد (ﷺ) أن يرسل زينب وابنتهما الصغيرة أمامة ليعيشا فى المدينة، فوافق محزونًا. وآن الأوان لزواج فاطمة، فاختار لها محمد (ﷺ) عليًا وبنى الزوجان بيتًا قريبًا من المسجد.

(*) وكان ذلك قبل وقعة بدر.

(*) اتفق أكثر المؤرخين على أن هذه الوثيقة كانت فور هجرته من مكة.

كذلك اتخذ محمد (ﷺ) زوجة جديدة، حفصة بنت عمر، والتى مات زوجها. كانت جميلة وأريبة تقرأ وتكتب مثل أبيها، وكان عمرها عند ذلك حوالى ثمانية عشر عامًا، وكان لها أيضًا طبع عمر الساخن. سعدت عائشة فى الترحيب بحفصة فى عائلة النبى، ولم تغر منها كما غارت من الزوجات الأخريات، فقد جعلت العلاقة المتزايدة الوثاق بين أبى بكر وعمر من ابنتيهما صديقتين، وكانتا تتمتعان بنسج حيل البنات، وبصفة خاصة على سودة، ذات الخيال المحدود والفهم المتأنى.

قد تكون عائشة قد انتقلت لبيت الزوجية فى ذلك الوقت، برغم أن الطبرى قال إنها ظلت فى بيت أبويها لصغر سنها. كان محمد (ﷺ) زوجًا سهل المعشر، وكان يصر على أن تعيش زوجاته فى حجرهن الصغيرة المتواضعة حياة اقتصادية، ولكنه كان يساعدهن فى أعمال المنزل، وكان يقضى حاجاته بنفسه، فيصلح ثوبه، ويرقع نعله، ويعتنى بشياه العائلة. وكان يتبسط أكثر مع عائشة، فيسابقها فى العدو، ومثل ذلك. كان لعائشة لسان فصيح حادٌّ، ولم تكن بأى شكل من الأشكال زوجة خاضعة مستكينة، ولكنها كانت تحب أن تدلل محمدًا (ﷺ). تبلل شعرها بالعطر الذى يحبه، وتشرب من القدح نفسه الذى يشرب منه. وفى يوم من الأيام والنبى (ﷺ) عندها منهمكًا فى إصلاح نعله وهى تراقبه، رأت على وجهه نورًا ساطعًا، فأخبرته بذلك، فقام إليها وقبلها على جبينها قائلاً: «يا عائشة لعل الله يحسن جزاءك، فلست مصدرًا لسعادتك، كما أنت مصدرًا لسعادتى»[٢٢].

عاش محمد (ﷺ) بحميمية وسط عائلته وأصحابه، ولم ير تعارضًا بين حياته العامة وحياته الخاصة[٢٣]. كان يمكن لزوجاته سماع كل ما يقال فى المسجد من حجراتهن. سرعان ما لاحظ المهاجرون أن نساء المدينة يختلفن عن نسائهم، وتحكم أزواجهن فيهن أقل مما أعتادوا عليه فى مكة، واكتشفوا أن زوجاتهم يلتقطن ذلك من نساء المدينة.

غضب عمر عندما أصبحت زوجته تراجعه وترد عليه بعض ما يريد، وعندما نهرها على ذلك، أجابته ببساطة إن النبى يسمح لزوجاته بجداله:[٢٤].

> قال عمر بن الخطاب: كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصحت على امرأتى فراجعتنى، فأنكرت أن تراجعنى، فقالت: ولم تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبى (ﷺ) ليراجعنه.

وكنا تحدثنا أن غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبى يوم نوبته، فرجع عشاء، فضرب بابى ضربًا شديدًا، وقال: أنائم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم، قلت: ما هو، أجاءت غسان؟(*)

كانت المشاكل تتخمر، ومَثَّل دمج محمد (ﷺ) المتعمد لحياته الخاصة مع حياته العامة ضربة للمجتمع العربى الذكورى، والذى لا يرضى إلا بالمحافظة على مثل هذه التفرقة بين الرجل والمرأة.

بعد خمود فورة الانتصار، وجد محمد (ﷺ) أنه بالرغم من ارتفاع مكانته فى جزيرة العرب كلها، فإن الخوف من هجوم مكى وشيك، نفخ فى روح المعارضة المدنية لمحمد (ﷺ). دعمت ثلاث قبائل يهودية كبيرة ابن أبى وجماعته: بنو النضير، وبنو قريظة وبنو قينقاع، والتى اعتمدت على تجارتها مع قريش، ولم ترد أى دور فى الحرب ضد مكة. وبعد بدر بحوالى عشرة أسابيع، قاد أبو سفيان غزوة رمزية من مائتى رجل إلى قرب المدينة، وتسلل تحت ستار الليل إلى أراضى بنى النضير، حيث استضافه رئيسهم سلام بن مشكم، والذى أطلعه على أسرار المسلمين، طبقًا لرواية ابن إسحاق:

قال ابن إسحاق: غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق فى ذى الحجة، وولى تلك الحجة المشركون من تلك السنة، فكان أبو سفيان، كما حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير، ويزيد بن رومان، ومن لا أتهم، عن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان من أعلم الأنصار، حين رجع إلى مكة، ورجع فل قريش من بدر، نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً (ﷺ)، فخرج فى مائتى راكب من قريش، ليبر يمينه، فسلك النجدية، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له ثيب، من المدينة على بريد أو نحوه، ثم خرج من الليل، حتى أتى بنى النضير تحت الليل، فأتى حيى بن أخطب، فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له بابه وخافه، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بنى النضير فى زمانه ذلك، وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه، فأذن له، فقراه وسقاه، وبطن له(**) من خبر الناس. [السيرة النبوية: ص ٥١٢](٢٥).

داومت عيون محمد (ﷺ) على اطلاعه بمجريات الأمور، ومثلت القبائل اليهودية الثلاث خطورة أمنية. فلكل منها جيشها الكبير وجنودها المدربون، فإذا عسكر

(*) رواه البخارى فى: المظالم: حديث (٢٤٦٨)، والنكاح: حديث (٥١٩١)، ويبين الحديث أن قبائل غسان المسيحية بالشام، كانت تعد مع القوات البيزنطية لغزو المدينة، وهذا أحد أسباب غزوة مؤتة.

(**) بطن له: أعلمه.

جيش مكى جنوب المدينة حيث أراضى بنى النضير وقريظة، فما أسهل أن تتحد قواهم ويخترقوا دفاعات المدينة. وإذا هاجمت قريش من الشمال، وهذا هو الأفضل لهم، يمكن لبنى النضير وبنى قريظة أن يهاجموا المسلمين من الجنوب. ولكن كان القلق الأكثر إلحاحًا هو بنى قينقاع، أغنى القبائل اليهودية، والحليف السابق لابن أبى، الذى يتحكم فى سوق وسط المدينة(٢٦). أسس المسلمون سوقًا صغيرًا لا يتقاضى فائدة، مما اعتبرته بنو قينقاع تحديًا مباشرًا لهم، فقررت إنهاء معاهدتها مع النبى (ﷺ) والانضمام لمعارضته فى المدينة. زارهم محمد (ﷺ) فى حيهم، وسألهم باسم ديانتهم المشتركة أن يحافظوا على السلام:

> قال ابن إسحاق: إن رسول الله جمع بنى قينقاع بسوقهم، ثم قال: «يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم»، قالوا: يا محمد، إنك ترانا كقومك! لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس. [السيرة النبوية: ص ٥١٣، ٥١٤](٢٧).

انسحب محمد (ﷺ)، وانتظر متجهمًا تطور الأحداث معهم. بعد أيام قليلة، ثار اشتباك فى سوق بنى قينقاع عندما أهان أحد الصاغة امرأة مسلمة، وطلب من محمد (ﷺ) التحكيم، ولكن رفض رؤساء بنى قينقاع حكمه، وتترسوا فى حصونهم، ودعوا حلفاءهم العرب لمساعدتهم. كان لبنى قينقاع جيش من سبعمائة مقاتل، ولو استجاب لهم حلفاؤهم، لكان بمقدورهم هزيمة جيش المسلمين، بل واستئصال الأمة الإسلامية كلها.

ولكن صمد العرب بجانب محمد (ﷺ)، ووجد ابن أبى نفسه وحيدًا عاجزًا عن نصر حلفائه، وبعد أسبوعين من حصار المسلمين لبنى قينقاع، اضطروا للاستسلام دون قيد ولا شرط، وكان المتوقع من محمد (ﷺ) أن يذبح الرجال ويسبى النساء والأطفال، طبقًا للعقاب التقليدى المتبع، ولكنه استجاب لمناشدة ابن أبى، فأطلقهم جميعًا بشرط أن تغادر القبيلة كلها المدينة فورًا. كانت قينقاع مستعدة للرحيل، بعد أن خاطرت بعداوة محمد (ﷺ)، ولم تقدر شعبيته الجديدة فى المدينة. لم يحتج على ذلك لا العرب من حلفاء قينقاع، ولا حتى اليهود الباقون، فقد كان من المعتاد طرد إحدى القبائل من المدينة إثر الحروب الداخلية الضروس قبل

الهجرة، ولم يمثل خروج قينقاع إلا استمراراً للعملية التى سبقت هجرة محمد (ﷺ)[٢٨] . لم يتم سفك دماء، ولكن وقع محمد (ﷺ) فى مأزق أخلاقى مأساوى، فقد تم تبرير الجهاد ضد قريش على أساس أنها طردت المسلمين من ديارهم، الأمر الذى أدانه القرآن على أنه شر كبير، والآن، اضطر محمد (ﷺ) لأن يطرد قبيلة من موطنها، فوقع بذلك فى فخ التقاليد العربية[*] .

توقع أهل المدينة الهجوم المكى الذى لا مفر منه. والآن، وقد مات أبو جهل فى بدر، وبعده بقليل أبو لهب، أصبح أبو سفيان هو قائد قريش، وما أهوله من عدو.

فى آخر الصيف، استولت حملة مسلمين على قافلة مكية كبيرة. لو كان أبو جهل حيّا، لرد فوراً، ولكن أبا سفيان لم يسمح لشىء أن يفسد عليه تخطيطه طويل المدى. كثف أبو سفيان إعداده للمعركة، فبنى تحالفًا كبيراً مع قبائل البدو. وما أن انتهى موسم أمطار الشتاء، حتى تحرك جيش مكى من أكثر من ثلاثة آلاف رجل، وثلاثة آلاف جمل، ومائتى حصان، فى (شوال ٣هـ/ ١١ مارس ٦٢٥م) شمالاً قاصداً المدينة، فبلغها بعد أكثر قليلاً من أسبوع، وعسكر فى شمال غرب المدينة فى السهل المقابل لجبل أحد[٢٩] .

لم يعلم أهل المدينة بذلك الغزو إلا قبله بأسبوع، ولم يتمكنوا من جنى محاصيلهم الزراعية، ولكن استطاع محمد (ﷺ) والقادة الذين معه من إحضار الناس من المناطق المحيطة، وتحصنوا فى المدينة. حث أصحاب الخبرة على الحذر. كان من الصعب تحمل حصار فى بلاد العرب، ولكنهم نصحوا بالبقاء، داخل حصون المدينة، وألا يتورطوا فى قتال خارجها مع قريش، والتى ستضطر حينذاك إلى العودة لمكة. من الناحية الأخرى، تحمس الشباب بعد انتصار بدر للخروج لملاقاة قريش، وكانت لهم الغلبة فى النهاية، واضطر محمد (ﷺ)، الذى لم يكن قائداً عامّا، إلى النزول لرأيهم الكارثى. رفضت قبائل اليهود قتال قريش، كذلك رجع ابن أبى بقواته ليواجه محمد (ﷺ) قريشًا بأقل من ثلث عدد قواتها. وعندما بدأ الجيشان التقدم للقتال، مشت هند زوجة أبى سفيان مع القرشيات يحمسن الجيش على القتال بأشعار الحرب والضرب بالدفوف.

(*) من الصعب مقارنة اضطهاد وقمع قريش لمحمد ﷺ والمسلمين، مما أجبرهم على الهجرة، تاركين بيوتهم وتجاراتهم، وموقف محمد ﷺ من بنى قينقاع التى انتهكت ميثاقها مع محمد ﷺ وبادأته بالعداوة.

هزمت مكة المسلمين بحيلة من فرسانها، وأصيب محمد (ﷺ) حتى فقد الوعى، وانتشرت إشاعة قتله. وفى الواقع، أصيب بالذهول، ولكن لم تتحر قريش الإشاعة، وفشلت فى استكمال ما بدأته. استطاع من بقى من المسلمين أن يتراجع بنظام. وأسفرت المعركة عن اثنين وعشرين قتيلا مكيًا، وخمسة وستين مدنيًا(*)، بما فيهم حمزة عم محمد (ﷺ) المشهود له فى ساحات القتال. وقد مثلت قريش بجثث المسلمين، وأخرج حبشى كبد حمزة ليعطيه لهند التى قضمت جزءًا منه انتقامًا من قتل حمزة لأخيها شيبة يوم بدر، ثم جدعت أنفه وأذنيه وأعضاءه التناسلية، وحثت نساء قريش على تقليدها، واتخذن من الأجزاء المبتورة خلاخيل وقلائد، مما أثار اشمئزاز بعض حلفاء قريش من البدو.

وقبل عودة جيش مكة، عرف أبو سفيان ما خيب أمله، فقد كان محمد (ﷺ) ما زال حيًا:

> قال ابن إسحاق: ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام القابل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «قل: نعم، هى بيننا وبينك موعد». [السيرة النبوية: ص ٥٤٢](٣٠).

كان من الممكن للهزيمة أن تكون أسوأ لو أن قريشًا أكملت مهمتها لإبادة المسلمين. ومع هذا، كان لهزيمة أحد ضرر نفسى فاجع. وعندما عاد محمد (ﷺ) من المعركة مريضًا ومزلزلاً، سمع نواح نساء الأنصار على قتلاهم. استاء المسلمون بشدة من ابن أبى لرجوعه عن القتال، وعندما أراد التكلم فى المسجد فى يوم الجمعة التالى لأحد، قام إليه رجل من الأنصار فأمسك به، وأخبره أن يصمت، فهرول خارجًا من المسجد فى غضب، ورفض أن يسأل محمدًا (ﷺ) العفو، وبعد أن كان المنافقون من أتباع ابن أبى مذبذبين، صاروا بعد أحد على عداوة مكشوفة مع المسلمين، وزعموا أن انتصار محمد (ﷺ) فى بدر إنما كان فلتة، وأنه جلب الموت والخراب إلى المدينة.

(*) جاء فى الرحيق المختوم أنه قد قتل خمسة وستون من الأنصار، ومخيريق اليهودى الذى قال عنه النبى ﷺ: مخيريق خير يهود، وأربعة من المهاجرين، وسبعة وثلاثون من جيش المكيين، بينما جاء فى سيرة ابن إسحاق أن جميع من استشهد من المسلمين من المهاجرين والأنصار خمسة وستون رجلاً.

ترك المسلمون الذين ماتوا فى أحد خلفهم زوجات وبنات بدون عائل، ونزل الوحى بعد الهزيمة يسمح للمسلمين باتخاذ أربع زوجات، وعلى المسلمين أن يتذكروا بأن الله خلق الناس من نفس واحدة، فكل من الذكر والأنثى متساويان أمام الله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيراً (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا (٣)﴾ [سورة النساء: ١ ـ ٣] (٣١).

كثيراً ما تعرض تعدد الزوجات لنقد شديد، على أنه السبب فى معاناة نساء المسلمين، ولكن فى وقت نزول الآيات، كان يعتبر تقدمًا اجتماعيًا(٣٢). قبل ظهور الإسلام، كان كلٌ من الرجال والنساء يتخذ عدة أزواج، فكان يمكن للمرأة بعد الزواج أن تظل فى بيت العائلة، حيث يمكن لكل أزواجها أن يزوروها. كان ذلك فى واقع الأمر دعارة مقننة، ولذلك لم يكن النسب مؤكداً، وكان الأطفال فى العادة ينسبون لأمهاتهم. لم يكن الرجال مضطرين للإنفاق على زوجاتهم، ولم يتحملوا مسئولية أطفالهم(*)، ولكن كانت تلك فترة تحول فى بلاد العرب. أدت فترة الفردية الجديدة إلى أن يصبح الرجال أكثر اهتمامًا بأولادهم، وبأملاكهم الشخصية، وأرادوا أن يرثها أولادهم. شجع القرآن الاتجاه إلى مجتمع أكثر أبوية، وصدق محمد (ﷺ) على ذلك عمليًا بأن يجمع زوجاته فى بيوته، وينفق عليهن، وضمنت آيات تعدد الزوجات فى سورة النساء أن يفعل رجال المسلمين ذلك. كان القرآن مدركًا المشاكل الاجتماعية التى خاطبتها تلك الآيات.

لم تكن النساء قبل الإسلام تستطيع أن تمتلك شيئًا فى بلاد العرب، فكل الثروات لدى ذكور العائلة، إلا فى مكة حيث كان الناس مختلفين قليلاً عن بقية الجزيرة، فاستطاعت بعض النساء الحصول على المواريث والاحتفاظ بالثروات وإدارتها بالتجارة أو غير ذلك، وكانت خديجة مثالاً على ذلك، وإن كان نادراً فى مكة، وليس له مثيل فى المدينة. سخر معظم الرجال من فكرة أن ترث المرأة، أو تدير

(*) يبدو أن الكاتبة تتحدث عن انتشار الزنا، وليس الزواج، فالعرب كانوا يقتلون أطفالهم من البنات خوفًا من أن يجلبن عليهن العار عندما يكبرن.

أموالها. ليس للنساء حقوق شخصية، كيف يكون لهن؟ وباستثناءات قليلة، لم يفعلن شيئًا لمصلحة الاقتصاد، ولم يشاركن فى الغزو، فهن لم يجلبن أى ثروات للمجتمع. تقليديًا، كانت المرأة جزءًا من أملاك الرجل، وبعد وفاته، تؤول زوجاته وبناته إلى وريثه الذكر، والذى عادة ما يبقيهن بدون زواج، حتى يتحكم فيما لديهن، ويغتنى على حساب فقرهن. جاء نظام تعدد الزوجات ـ طبقًا للقرآن ـ بمثابة قانون اجتماعى، ليس بغرض مكافئة الشهية الجنسية للرجال، ولكن لرفع الظلم عن الأرامل واليتامى، وبصفة عامة عن النساء اللاتى كن معرضات للظلم. كثيرًا ما يستحوذ بعض الأنانيين على كل شىء على حساب الضعفاء[٣٣]. كذلك كان كثير من النساء يتعرضن للاعتداء الجنسى ممن يُفترض أن يكونوا حماتهن من الوارثين الذكور، أو حتى يتحولن إلى أملاك تباع فى سوق العبيد، وكان ابن أبى، على سبيل المثال، يجبر إماءه على الدعارة لحسابه. رفض القرآن ذلك بحسم، وضمن للمرأة نصيبًا فى الميراث. كان الهدف من تعدد الزوجات ضمان حماية المرأة بأن تتزوج بكرامة، وحدد التعدد المفتوح السابق[*] بأربع زوجات، مع وجوب معاملتهن بالعدل، مع الامتناع عن سلبهن ممتلكاتهن.

كان القرآن يحاول إعطاء النساء حقوقًا لم تتمتع بها نساء الغرب إلا فى القرن التاسع عشر. كان تحرير المرأة مشروعًا عزيزًا على قلب النبى (ﷺ)، ولكن عارضه بشدة كثير من الرجال فى الأمة، ومنهم بعض المقربين إليه. احتاج تعدد الزوجات المسئول فى ذلك المجتمع قليل الموارد، إلى كثير من الشجاعة والحب، ليتحمل الرجل مسئولية أربع زوجات بأطفالهن. كان المسلمون يثقون فى مساعدة الله لهن:

> ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة النور: ٣٢ـ٣٣][٣٤].

أخذ محمد (ﷺ) زمام المبادرة، فتزوج زينب بنت خزيمة [أم المساكين]، وكانت

(*) ليس فى نصوص الكتاب المقدس، بعهديه القديم والحديث، ما يحدد عدد الزوجات.

قد فقدت زوجها فى بدر [أو بعد ذلك]. لم يعامل النبى (ﷺ) زوجاته كقطيع، بل كن صاحباته، مثلما كان الرجال أصحابه، وعادة ما كان يأخذ إحداهن فى غزواته، ويخيب آمال أصحابه عندما يقضى المساء كاملاً معها. ولم تكن النساء تقبعن خانعات، بل كن تتحركن فى المعسكر بكل حرية، تعاينَّ كل ما كان يحدث. كانت تلك الحرية مألوفة لنساء الطبقة العليا قبل الإسلام، ولكن أثار ذلك حنق عمر، فصاح مرة فى عائشة وهى فى طرف المعسكر قريبًا من العدو: «جرأتك تجاوزت الحد. ماذا يحدث لك لو حاقت بنا مصيبة أو أخذوك أسيرة؟»(٣٥).

أعطت حياة محمد (ﷺ) العائلية فرصة لزوجاته لدخول عالم السياسة، وأحسسن بالألفة فى ذلك. لم يمر وقت طويل حتى بدأت النساء الأخريات الإحساس بذواتهن وقدراتهن، واعتبر أعداء محمد (ﷺ) ذلك أمرًا معيبًا تجدر مهاجمة محمد (ﷺ) عليه.

كان على محمد (ﷺ) أن يستعيد هيبته بعد أحد، لم يكن يستطيع أن يخاطر بمواجهة أخرى مفتوحة مع قريش، ولا أن يظهر ضعفه. وأظهرت حادثتان فى عام (٤هـ/ ٦٢٥م) ضعف وضعه. سألت قبيلتان من نجد محمدًا (ﷺ) أن يرسل من يعلمهما الإسلام، فأرسل ستة من أقدر الصحابة على ذلك، ولكن خلال رحلتهم، هاجمهم رجال من قديد، مدينة مناة، إحدى الغرانيق. قتل ثلاثة من المسلمين، وأسر الثلاثة الآخرون، وحين حاول أحدهم الفرار رموه بالحجارة حتى قتلوه، وبيع الاثنان كعبيد فى مكة، ثم تم قتلهما خارج الحرم.

وفى الوقت نفسه تقريبًا، طلب، أبو براء رئيس قبيلة عامر من النبى (ﷺ) أن يرسل من أصحابه من يدعو أهل نجد للإسلام. أرسل محمد (ﷺ) أربعين مسلمًا، ذبحتهم كلهم تقريبًا قبيلة سليم، وأثناء هروب أحد المسلمين، مر على رجلين نائمين من بنى عامر، فقتلهما مفترضًا أن قبيلتهما مسئولة عن قتل رفاقه، آخذًا بالثأر طبقًا للتقاليد القديمة.

وعندما عاد إلى المدينة، أخبره محمد (ﷺ) بخطئه، ولكن كانت عادة الثأر متأصلة فى العرب، حتى أنه كان من شبه المستحيل التخلى عنها. أصر محمد (ﷺ) على دفع الدية كاملة للقتيلين، وأدى تصميم محمد (ﷺ) على دفع الدية، برغم حقيقة أن الفاعل الحقيقى للجريمة هو قبيلة سليم، إلى ميل بعض البدو إلى المسلمين. كذلك أدت شجاعة المسلمين الذين قتلتهم سليم إلى أن أسلم بعض أفرادها.

ظل وضع محمد (ﷺ) فى المدينة محفوفًا بالمخاطر، ولم يستطع التخلى عمن يحرسه. وعندما طلب من بنى النضير مساعدته فى جمع مال دية قتيلى بنى عامر، كادت مؤامرة دبرها بعض أفرادها، بإلقاء صخرة ضخمة فوقه، أن تقضى عليه. وعدهم ابن أبى بمساعدتهم، وظنوا أن محمدًا (ﷺ) أصبح بلا تأييد فى المدينة، وأن أهلها سيقفون وراءهم. ولذلك أدهشتهم رسالة مقيتة من قبيلة الأوس، حليفتهم السابقة، بأن نضير نقضت عهدها مع النبى (ﷺ)، ولذلك فإن عليها مغادرة المدينة.

تصرف بنو النضير كما تصرف بنو قينقاع من قبل، فتترسوا فى حصونهم، وانتظروا مساعدة حلفائهم، ولكن دون جدوى. بل إنه حتى بنو قريظة أخبروهم أن عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم ولا ينتظروا منهم المساعدة. وبعد أسبوعين، تيقن بنو النضير أنهم لا يستطيعون الاستمرار تحت الحصار أكثر من ذلك، وعندما أعطى محمد (ﷺ) أوامره ببدء قطع نخيلهم - فى إشارة أكيدة للحرب عند العرب - استسلموا متوسلين النجاة فقط بأرواحهم. وافقهم محمد (ﷺ) بشرط أن يغادروا المدينة فورًا، آخذين فقط ما يمكن أن تحمله جمالهم.

حزم بنو النضير ممتلكاتهم، حتى عتبات بيوتهم، بدلاً من تركها لمحمد (ﷺ)، وغادروا المدينة فى موكب يتباهى كما لو كان منتصرًا. لبست النساء أفضل ما لديها وتحلت بكل جواهرها، يغنين مع الدق على الدفوف والطبول، شاقين طريقهن شمالاً إلى الشام، وبقى بعضهم فى واحة خيبر اليهودية، حيث ساعدوا أبا سفيان على بناء تحالف جديد يحث قبائل الشمال للانضمام إليهم فى غزوة الأحزاب التى أرادت استئصال المسلمين[٣٦].

على مدى سنتين فقط، طرد محمد (ﷺ) قبيلتين قويتين من المدينة، ونظم المسلمون السوق الذى خلا من بنى قينقاع. كما رأينا، لم تكن تلك نية محمد (ﷺ)، فقد أراد أن يوقف دائرة العنف والطرد، وليس أن يستمر فيها. أظهر محمد (ﷺ) أنه ما زال شخصًا يحسب حسابه، ولكن لا بد أنه فكر فى عقم مثل هذا النجاح من الناحية الأخلاقية والسياسية أيضًا، فقد بقى خطر بنى النضير فى خيبر القريبة.

كان من المناسب الاستفادة من دعوة أبى سفيان للقتال «فى العام القادم فى بدر» ولكن كان محمد (ﷺ) يغامر بلعبة خطيرة. عليه أن يستعرض القوة، ولكن كانت

قواته مثبطة الهمة عن أن تخوض معركة كبيرة. ومع ذلك، ذهب إلى بدر ومعه ألف وخمسمائة رجل، ومن حسن حظه، أن أبا سفيان لم يحضر بقواته. لم يتوقع أبو سفيان أن المسلمين سيذهبون إلى بدر، وخرج مع جيشه للخروج فقط وليس للقتال، عازمًا على الرجوع سرعان ما يعرف أن محمداً (ﷺ) لم يخرج من المدينة. كانت سنة شديدة القحط، ولم يكن هناك من الحشائش ما يطعم الجمال فى رحلتها، ولذلك مع طعام يكفى أيام قليلة، عاد أبو سفيان برجاله إلى مكة.. وبخه المكيون بمرارة، فقد جعل البدو يعجبون بشجاعة المسلمين(٣٧).

فى المدينة، كان وضع محمد (ﷺ) ما زال ضعيفًا:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة النور: ٥٣](٣٨).

ولكن فى الجزيرة العربية ككل، بدأ المد لصالحه. كلما سمع عن قبيلة بدوية انضمت للتحالف المكى، أرسل إليها حملة للإمساك بأفرادها وقطعانها، حتى لو فى رحلة لمسافة خمسمائة ميل إلى تخوم الشام. فى (جماد أول ٤هـ/ ٩ أكتوبر ٦٢٥م)(*)، علم أن بعض عشائر غطفان تخطط لهجوم على المدينة، فعمل على منع ذلك، بأن قاد المسلمين حتى أصبحوا فى مواجهة العدو، فى ذات الرقاع، وتجنب القتال مرة أخرى، ولكن ظل المسلحون ثلاثة أيام فى تلك المواجهة. يوضح كل من الطبرى وابن كثير أن المسلمين كانوا خائفين، ولكن يبدو أن غطفان كانت خائفة أيضًا. وفى ذلك الجو الرهيب، نزلت آيات صلاة الخوف:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة النساء: ١٠٢](٣٩).

(*) هكذا جاء فى سيرة ابن إسحاق، ويخالفه فى ذلك المباركفورى فى الرحيق المختوم، ويذكر أن غزوة ذات الرقاع كانت عام سبعة هجريًا، ويقول إن ذلك على خلاف ما قاله عامة أهل المغازى، ويدلل على صحة تأريخه بحضور أبى هريرة، وأبى موسى الأشعرى تلك الغزوة.

سمحت الآية للمسلمين أن يغيروا من هيئة الصلاة، وأن يصلوا فى أكثر من جماعة. وفى النهاية، انتهت المعركة قبل أن تبدأ حين انسحبت غطفان، وعاد محمد (ﷺ) إلى المدينة ظافراً بانتصار رمزى. بينت صلاة الخوف كيف أصبحت الديانة الجديدة محاصرة وفى وضع دفاعى، وفى هذا السياق، يجب أن نتعرف على تراجع القرآن الظاهرى عن المساواة الجنسية.

ففى (٤هـ/ يناير٦٢٦م)، توفيت زوجته زينب، بعد ثمانية شهور من زواجها. وبعد ذلك بقليل، تقدم محمد (ﷺ) إلى هند بنت أبى أمية، أرملة ابن عمته أبى سلمة، وأخيه من الرضاع الذى مات بعد أحد تاركًا لها أربعة أطفال.

كانت هند ـ أو أم سلمة كما كانت تعرف ـ فى التاسعة والعشرين من عمرها، جميلة، محنكة وفائقة الذكاء. كانت كفيلة بتوفير الصحبة التى فقدها النبى (ﷺ) بوفاة خديجة، وكذلك كانت شقيقة أحد قادة بنى مخزوم، إحدى أقوى القبائل المكية. وكانت هند فى البداية متمنعة عن الزواج بمحمد(ﷺ)، فقد أحبت زوجها حبّا شديداً، وهى لم تعد صغيرة، تتملكها الغيرة، كما أنها ليست واثقة من قدرتها على الاندماج فى عائلة محمد (ﷺ)، هكذا قالت له. رد عليها محمد (ﷺ) بابتسامته العذبة، التى يستسلم لها كل الناس تقريبًا، مطمئنًا بأنها إذا كانت كبيرة فهو أكبر منها، وأن الله سيذهب عنها غيرتها.

كان لها الحق فى أن تقلق، فالحياة فى المسجد [أى فى حجرات زوجات النبى (ﷺ)] ليست سهلة(٤٠). لقد كانت الحجرات صغيرة جدّا، وسقوفها منخفضة حتى أنه بالكاد يستطيع النبى (ﷺ) فرد قامته فيها، وكان يقضى مع كل زوجة ليلة بالدور، وكانت حجرة صاحبة الدور بمثابة المقر الرسمى له. لم تكن هناك خصوصية كافية، فزواره لا ينقطعون من المدينة، ثم من كافة أنحاء بلاد العرب، كذلك كانت زيارات بناته وأحفاده. وكان النبى (ﷺ) مغرمًا بالحسن والحسين ولدَىْ على وفاطمة، كذلك بأمامة بنت زينب، والتى كان يحملها على كتفيه إلى المسجد ويصلى بها. كذلك كان دائمًا ما يختلى بأصحابه المقربين: أبى بكر، وزيد، وعلى، وبشكل متزايد عمر.

وبعد أن كان ينتهى من صلاته فى المسجد، يتقاطر الناس حول نبيهم، كل لشأنه، ومنهم من يمسك بتلابيبه، أو حتى يجذبه منها، ومنهم من يصرخ فى وجهه، ومنهم من يتبعه داخل بيته:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [سورة الحجرات: ٢، ٤، ٥] (٤١).

وحتى داخل بيته كانوا يتزاحمون، وفى بعض الأحيان على الطعام، أو انتظاراً له:

قال ابن سعد: كان رسول الله ﷺ إذا نهض إلى بيته، بادروه فأخذوا المجالس فلا يعرف ذلك فى وجه رسول الله ولا يبسط يده إلى الطعام استحياء منهم، فعوتبوا فى ذلك فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾. [الطبقات: ١٠/ ١٦٧](٤٢).

مَثَّلَ ذلك ضغطًا على النبى (ﷺ) الذى كان حييًا خجولاً شديد الحساسية، غير مطيق لروائح الأجساد والأفواه غير اللطيفة. كان يتقدم فى العمر، وبدأ الشيب يظهر فى شعر رأسه، ومع ذلك كان يمشى بنشاط حتى يكاد من يراه يظن أن قدميه لا تلامسان الأرض، وهو قريب من الستين، وذلك ليس بالعمر الصغير فى بلاد العرب، ولقد أصيب فى أحد، وبدأ الضغط المستمر يلوح عليه عندما كانت المدينة تترقب فى خوف العودة - التى لا مفر منها - للجيش المكى للانتقام، وانقسمت الأمة كما لم تنقسم من قبل(٤٣).

ظهر الشقاق الداخلى بمجرد دخول أم سلمة، المرأة المتميزة، بيت النبوة. استاءت عائشة بشدة، ونما الصدع بين نساء النبى (ﷺ)، والذى انعكس على الأمة. مثلت أم سلمة الطبقة العليا من المهاجرين، بينما كانت كل من عائشة وحفصة أقرب للطبقة الشعبية. واتخذت كل زوجة للنبى أحد الجانبين المتنافسين، وعادة ما اعتمدت أم سلمة على دعم أهل البيت. كان ذلك الانشقاق فى بدايته عند زواج أم سلمة بالنبى (ﷺ)، ولكن سرعان ما ظهر أن الأمة ليست وحدة واحدة، وأن الناس الذين دخلوا الإسلام، توقعوا منه ثماراً مختلفة.

سرعان ما أصبحت أم سلمة المتحدث باسم نساء المدينة(٤٤).

قالت أم سلمة زوج النبى (ﷺ): ما للنساء لا يذكرن مع الرجال فى الصلاح؟ [تفسير الطبرى: ١٠/ ٣٠٠].

جعلت طريقة عيش محمد (ﷺ) وزوجاته فى حجرات مجاورة للمسجد، الذى هو محور حياة المسلمين، زوجات النبى (ﷺ) فى مركز اهتمام المجتمع. كانت كل من عائشة وحفصة ما زالت صغيرة، وفى بعض الأحيان سريعة الانفعال وأنانية لحد ما، بينما كانت أم سلمة مختلفة تمامًا.

بعد زواج أم سلمة بفترة قصيرة، جاءها وفد من نساء المدينة يسألنها: لماذا لا يذكر القرآن النساء إلا قليلاً؟. توجهت أم سلمة بالسؤال للنبى (ﷺ)، والذى، كعادته، استغرق وقتًا يتفكر فى السؤال بجدية. وبعد أيام قليلة، كانت أم سلمة تصفف شعرها فى حجرتها، فسمعت محمداً (ﷺ) يرتل آيات ثورية فى المسجد:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)﴾ [سورة الأحزاب: ٣٥](٤٥).

بكلمات أخرى، ستبدأ المساواة الكاملة بين الجنسين، فلكل منهما الواجبات والمسئوليات نفسها، وعندما استمعت نساء المدينة لتلك الآيات، عزمن على تطبيق تلك الثورة فى حياتهن اليومية(*).

بدا أن الله فى صفهن، فبعد زمن قصير، نزلت سورة كاملة عن النساء. لم تعد النساء تورث للمواريث الذكور، كالجمال أو نخيل التمر، بل من حق النساء أن يرثن مع الرجال فى تركات المتوفين:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧)﴾ [سورة النساء: ٧](٤٦).

ليس على اليتيمة أن تتزوج بالإكراه من الوصى أو القيم عليها، كما لو كانت جزءاً من الممتلكات المتحركة:

(*) ولذلك هناك قاعدة فقهية بتساوى النساء مع الرجال، إلا فيما جاء فيه نصح صحيح صريح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [سورة النساء: ١٩] (٤٧).

وكما كان قبل الإسلام، حافظت المرأة على حقها فى الطلاق، برغم أن من حق الزوج رفض ذلك. كان الزوج فى بلاد العرب يدفع مهرًا لزوجته، ولكن كانت عائلة الزوجة تأخذ المهر، والآن أصبحت الزوجة تحتفظ بمهرها، ولا يؤخذ منها حتى بالطلاق، وبذلك تم تأمينها. أصرت شريعة القرآن على أن الناس أحرار ولهم حقوق، وينطبق ذلك على النساء:

﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا

فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴿٢٣٣﴾ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهرٍ وعشرًا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير ﴿٢٣٤﴾ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرًا إلا أن تقولوا قولاً معروفًا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم ﴿٢٣٥﴾ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعًا بالمعروف حقًا على المحسنين ﴿٢٣٦﴾ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴿٢٣٧﴾ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴿٢٣٨﴾ فإن خفتم فرجالاً أو ركبانًا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿٢٣٩﴾ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا وصية لأزواجهم متاعًا إلى الحول غير إخراجٍ فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروفٍ والله عزيز حكيم ﴿٢٤٠﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٢٥ ـ ٢٤٠] ﴿وإن أردتم استبدال زوجٍ مكان زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا أتأخذونه بهتانًا وإثمًا مبينًا ﴿٢٠﴾﴾، [سورة النساء: ٢٠]، ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشةٍ مبينةٍ وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا ﴿١﴾ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروفٍ أو فارقوهن بمعروفٍ وأشهدوا ذوي عدلٍ منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ﴿٢﴾ ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيءٍ قدرًا ﴿٣﴾ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهرٍ واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرًا ﴿٤﴾ ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا ﴿٥﴾ أسكنوهن

مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [سورة الطلاق: ١ ـ ٧] (٤٨).

مَثَّلَ ذلك صدمة لرجال الأمة فى القرن السابع الميلادى فى بلاد العرب، أثارت غضبهم. لقد سحب الله امتيازاتهم! لقد كانوا على استعداد للقتال فى سبيله حتى الموت! وغضب رجال الأنصار بصفة خاصة، إذ هل ينتظر منهم أن يقسموا مزارعهم ليعطوا أنصبة لزوجاتهم؟ كيف يمكن لنا أن نعطى جزءاً من ميراثنا للنساء والأطفال الذين لا يعملون ولا يعرفون أن يكسبوا أرزاقهم؟ وهل كان النبى جاداً عندما أخبرهم أنه حتى الفتاة القبيحة يمكن أن ترث ثروة؟ أجابهم النبى (ﷺ) بنعم مطلقة:

قال الطبرى: نزلت آية ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ فى أم كحلة وابنة كحلة وثعلبة وأوس بن سويد، وهم من الأنصار. كان أحدهما زوجها والآخر عم ولدها، فقالت: يا رسول الله، توفى زوجى وتركنى وابنته، فلم نورث. فقال عم ولدها: يا رسول الله، لا تركب فرساً ولا تحمل كلا، ولا تنكى عدواً، يكسب عليها ولا تكتسب، فنزلت «للرجال نصيب». [تفسير الطبرى: ٣/ ٦٠٤] (٤٩).

حاول البعض أن يجد ثغرة فى التشريع، ولكن اشتكت النساء للنبى (ﷺ)، وأيدهن القرآن.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ

وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)﴾ [سورة النساء: ١١، ١٢][٥٠].

سألت النساء مطلبًا آخر: ما دام الغزو هامًا بشكل حاسم للاقتصاد، فلماذا لا تتسلح النساء له؟ مرة أخرى، أخبرت أم سلمة محمدًا (ﷺ) بذلك:

قال الطبرى: قالت أم سلمة: أى رسول الله، أتغزوا الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث؟ فنزلت ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. [تفسير الطبرى: ٤/ ٤٩][٥١].

أصاب ذلك المطلب اقتصاد الغزو فى قلبه. فقد مثلت المرأة التى تؤسر غنيمة ثمينة، يمكن بيعها، أو الزواج منها، أو استغلالها كخادمة، أو حتى إجبارها على الدعارة. فإذا سمح للنساء بالقتال بدلاً من الانتظار السلبى للأسر، فستنخفض بشكل كبير غنائم الحرب واقتصادها. شق الخلاف الأمة، وحوصر محمد (ﷺ) بالرجال الغاضبين، والذين أحسوا أن الله يسلبهم ذكوريتهم. ولم يفهم عمر ـ بصفة خاصة ـ لين النبى (ﷺ) الزائد مع النساء. ولكن وقف محمد (ﷺ) بحزم، وأعلن أن الله وضح مشيئته.

ولكن النساء اخترن الوقت الخاطئ للتحرك. لم تكن هناك أى فرصة لأن يقبل الرجال ذلك فى وقت تتعرض فيه الأمة للاستئصال. وجد محمد (ﷺ) أن أعداءه فى المدينة يحرزون مكاسب سياسية من تلك التشريعات الثورية فى إنصاف النساء، ووجد أن بعض أصحابه المقربين يعارضون تلك التشريعات، فى تلك الفترة الحاسمة. وصلت الأمور لذروتها فى مسألة ضرب الزوجات[٥٢]. منع القرآن المسلمين من إيقاع الأذى بالآخرين، وبدأت النساء فى الشكوى من ضرب أزواجهن لهن، بدعوى أنه يتم عقابهن كما بين القرآن، وبدأت بعض النساء فى رفض معاشرة أزواجهن الذين يضربونهن؛ بل إن فكرة تعرض النساء للضرب دون وجه حق أثارت استياءه (ﷺ):

قال ابن سعد: ما ضرب رسول الله (ﷺ) بيده امرأة قط ولا خادمًا، ولا ضرب شيئًا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله، ولا نيل منه شيء قط فيكون هو

الذى ينتقم من صاحبه حتى ينتهك حرمات الله فينتقم لله . [الطبقات : ١٠/ ١٩٣](٥٣) .

ولكنه كان سابقًا لزمانه . رجال مثل عمر ، وابن أبى ، بل حتى أبى بكر الرقيق ، كانوا يضربون زوجاتهن دون تردد .

عالمًا أن أبا سفيان يحزب الأحزاب لاستئصال المسلمين بالمدينة ، كان على محمد (ﷺ) أن يهيئ الحال لتعبئة الرجال : «حسنًا ، اضربوهن ولكن أسوأكم هو من سيلجأ إلى ذلك» .

قال ابن سعد : إن رسول الله (ﷺ) نهى عن ضرب النساء ، فقيل : يا رسول الله إنهن قد فسدن . قال : «اضربوهن ولا يضرب إلا شراركم» . [الطبقات : ١٠/ ١٩٤](٥٤) .

نزل وحى يبدو أنه يعطى الأزواج الإذن بضرب زوجاتهن ، ولم يتوقع ذلك محمد (ﷺ) :

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)﴾ [سورة النساء : ٣٤ ـ ٣٥] (٥٥)(*) .

(*) لا تعمم الآية ضرب النساء ، ولكن تتحدث عن النساء اللاتى يخاف أزواجهن نشوزهن ، أى تعاليهن على أزواجهن فعلى الزوج معالجة ذلك : أولاً بالعظة ، وثانيًا بالهجر فى المضاجع ، فإذا لم يستقم الحال بعد ذلك ، فيمكن للأزواج ضربهن ضربًا غير مبرح ، وكفلت الشريعة للنساء الناشزات طلب الطلاق والخلع .
وجاء فى الحديث الصحيح : «خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى» الترمذى (٣٨٩٥) ، وابن ماجه (١٩٧٧) ، واقرأ خطبة الوداع فى صفحة ١٨٥ ، ١٨٦ ، وفيها بين النبى (ﷺ) أن ذلك عقاب لمن تجعل رجلاً يكرهه الزوج يطأ سريرها ، أو لمن تأتى بفاحشة مبينة . وفى «صحيح مسلم» عن جابر أن النبى (ﷺ) قال فى حجة الوداع : «واتقوا الله فى النساء ، فإنهن عندكم عوان ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه ، فإذا فعلن فاضربوهن ضربًا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف» .
وقد سألنا المؤلفة عن مصدرها فى أن آية ضرب النساء نزلت قبل غزوة الأحزاب ، فلم تذكره . وجدير بالذكر هنا أن بعد حادثة الإفك ، خاض المنافقون فى السيدة عائشة لمدة تقرب من شهر ، ولا يجد النبى (ﷺ) ما يقوله أى تعرض شرفه وشرف أحب زوجاته ، وبنت أبى بكر الصديق ، أقرب صحابته ، لذلك الإفك شهرًا كاملاً ، والوحى صامت ، فلو كان لمحمد (ﷺ) أن يأتى بشىء من عنده فى القرآن لما سكت كل ذلك . ولقد توفت أم عائشة بعد وقت قليل من حادثة الإفك ، متأثرة بها .

وقال: «لا أتحمل رؤية رجل يضرب زوجته فى فورة غضب».

قال ابن سعد: عن النبى (ﷺ)، قال: «ما أحب أن أرى الرجل ثائراً فريص عصب رقبته على مريئته يقاتلها». [الطبقات: ١٠/ ١٩٤][٥٦].

أجبره الصراع مع مكة على اتخاذ رؤية وسط، وأن يسلك مساراً كان سيتجنبه فى الأحوال الطبيعية. لقد نزلت آيات النساء مع آيات الحرب، والتى - بلا مفر - أثرت على كل الأحداث فى المدينة فى تلك الفترة(*).

لقد عرف محمد (ﷺ) أنه لن يكون لديه أمل فى الإفلات من الاستئصال المكى إذا كانت قواته محبطة.

فى (٥هـ/ مارس عام ٦٢٧م)، تحركت الأحزاب التى جمعها المكيون بجيش جرار قوامه عشرة آلاف رجل نحو المدينة[٥٧]. لم يستطع محمد (ﷺ) أن يجمع سوى ثلاثة آلاف مقاتل من المدينة وحلفائه البدو. لم يكن الموقف يسمح هذه المرة بالتهور بالشجاعة، بل حصن المسلمون أنفسهم فى المدينة، فى منتصف الواحة. لم يكن من الصعب الدفاع عن المدينة، فهى محصنة من ثلاث جهات بالأجراف والسهول ذات الصخور البركانية، وكانت مفتوحة فقط من الشمال.

تبنى محمد (ﷺ) خطة سلمان الفارسى، فجمع المسلمون المحاصيل من الحقول المحيطة بالمدينة حتى لا تستطيع الأحزاب تغذية حيواناتها، ثم بدءوا فى حفر خندق أمام الجزء الشمالى المفتوح من المدينة. لقد كان ذلك الخندق مدهشاً، إن لم يكن صادماً للمفاهيم العربية. لم يكن أى مقاتل جاهلى يحلم بأن يضع حاجزاً يمنع القتال بينه وبين عدوه، ناهيك عن احتقاره لحفر الأرض كالعبيد، ولكن عمل محمد (ﷺ) بين أصحابه، ضاحكًا، ومتندراً بالنكات، ومنشداً معهم، ساعد على ارتفاع المعنويات.

عندما وصلت قريش بجيشها، تطلعت إلى الخندق فى ذهول. استغل المسلمون ما استخرجوه من الخندق لبناء سد مرتفع فى جانبهم، أعطاهم ارتفاعه ميزة إطلاق القذائف لأسفل على من يهاجم. تحيرت قريش، فهى لم تر مثل تلك الحيلة من قبل، وأصبح فرسانها - مثار فخرها وابتهاجها - عديمى الفائدة. من آن لآخر كان أحد الفرسان يحاول اجتياز الخندق بفرسه، ولكن دون جدوى.

(*) ليس هناك دليل قطعى على نزول تلك الآية قبيل غزوة الأحزاب، واقرأ فى خطبة الوداع ما قاله النبى (ﷺ) عن النساء.

قال ابن سعد : ثم أجمع رؤساؤهم أن يغدوا يومًا ، فغدوا جميعًا ومعهم رؤساء سائر الأحزاب وطلبوا مضيقًا من الخندق يقحمون منه خيلهم إلى النبى (ﷺ)، وأصحابه فلم يجدوا ذلك ، وقالوا: إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تصنعها . [الطبقات : ٢/ ٦٤](٥٨) .

استمر الحصار لمدة شهر واحد ، ولكن بدا هذا الشهر وكأنه لا ينتهى ، فإطعام أهل المدينة ، فضلاً عن حلفائهم ، كان عبئًا كبيراً . اتهم ابن أبى وحلفه محمداً (ﷺ) بأنه جلب الخراب على المدينة :

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢)﴾ [سورة الأحزاب : ١٢](٥٩) .

دعمت بنو قريظة قريشًا جهاراً ، بينما أمد يهود خيبر قريشًا بسرية كبيرة ، بها عدد كبير من يهود بنى النضير . حاول حيى بن أخطب ، رئيس بنى النضير ، إقناع بنى قريظة إما بالهجوم على المسلمين من الخلف ، أو السماح بتسريب ألفين من بنى النضير داخل المدينة ليقتلوا النساء والأطفال المختبئين فى الحصون . فى البداية ، ترددت بنو قريظة ، ولكن لما رأت الجيش المكى بعدده الهائل ، وافق رئيسهم على مساعدة الأحزاب ، وإمدادهم بالسلاح والمؤن . عندما علم محمد (ﷺ) بتلك الخيانة ، تغير وجهه ، وأرسل سعد بن معاذ ، الذى كان الحليف الرئيسى لبنى قريظة ليتفاوض معهم ، ولكن ذلك لم يجد ، وفى وقت ما ، بدأت قريظة هجومًا فعليًا على الحصون فى جنوب شرق المدينة ، ولكن جهودها أخفقت ، ولمدة ثلاثة أسابيع ، لم يكن واضحًا أى جانب ستتخذه .

خاف المسلمون لدرجة الرعب فى غزوة الخندق ، وصفت سورة الأحزاب ذلك :

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١)﴾(٦٠) .

كذلك كان أهل المدينة يرتعدون من الخوف داخل حصونهم .

وعلى الجانب الآخر ، بدأت أحوال قريش ومن معها من الأحزاب فى الانحدار .

لم تكن لديهم مؤن كافية ، وأدت قلة خبرتهم العسكرية إلى سهولة انهيار معنوياتهم . وأخيراً ، تحطمت عزيمتهم بواسطة عاصفة عنيفة من الرياح دمرت معسكرهم . أدرك أبو سفيان أن الهزيمة لحقتهم ، كانت الجمال والخيل تموت ، وفشلت قريظة فى إمدادهم بالمؤن الكافية ، ولم يعد لقواته خيام ولا نيران ولا أوعية لطهى الطعام .

قال أبو سفيان لرجاله: «اجمعوا حاجاتكم فإنى راحل». وفى اليوم التالى، حين نظر المسلمون من فوق السد الذى بنوه، وجدوا معسكر الأحزاب خاليًا، فقد رحلوا جميعًا.

> قال ابن إسحاق: قال أبو سفيان: يامعشر قريش، إنكم والله ماأصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذى نكره(*)، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولاتقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإنى مرتحل. [السيرة النبوية: ص ٦٣٢](٦١).

ماذا سيفعل محمد (ﷺ) مع قريظة؟ لم يوهن رحيل قريش المعارضة المريرة لمحمد (ﷺ) فى المدينة، والتى اقتنعت أن قريشًا ولا بد عائدة للانتقام من الإذلال الذى تعرضت له، وبالتالى كثفت المعارضة حملاتها ضد محمد (ﷺ). كانت المدينة على أعتاب حرب أهلية، وفى هذا المناخ القابل للتفجير، لم تكن بنو قريظة لتفلت من العقاب. فى اليوم التالى لرحيل الأحزاب، أحاطت قوات محمد (ﷺ) ببنى قريظة، والذين سألوه الخروج بشروط قينقاع أو النضير، ولكن محمداً (ﷺ) رفض هذه المرة، فقد أثبتت بنو النضير أنها خطر على الأمة، حتى وهى بعيدة عن المدينة. وافق كبار بنى قريظة على قبول تحكيم حليفهم السابق سعد بن معاذ، والذى جرح بشدة فى المعركة(**)، فحمل على محفة إلى حيث كان محمد (ﷺ) وكبار بنى قريظة، ليحكم فى الأمر. سألته بعض القبائل أن يكون رحيمًا بشأن بنى قريظة، ولكنه رآهم خطراً لا يؤمن شره، وقضى بأن يقتل رجالهم السبعمائة، وتباع زوجاتهم وأبناؤهم فى سوق الرقيق، وتقسم أملاكهم بين المسلمين. عندما سمع محمد (ﷺ) ذلك الحكم قال: «لقد حكمت عليهم بحكم الله من فوق سبع سماوات». وتم تنفيد الحكم فى اليوم التالى.

> قال ابن إسحاق: قال رسول الله (ﷺ) لسعد «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة». [السيرة النبوية: ص ٦٣٦](٦٢).

ذلك الحكم الذى تقشعر له الأبدان اليوم، كان يتوقعه الجميع فى بلاد العرب فى ذلك الوقت، بل إنه طبقًا للمراجع التاريخية، حتى بنو قريظة لم يفاجئهم الحكم(***). أرسل الحكم إشارة مروعة ليهود خيبر، وأدرك البدو أن محمداً (ﷺ) لن يتقاعس عن الانتقام. لقد أظهر قوته فى عرض للتحدى، على أمل أن يردع أى

(*) كان ذلك حيلة نعيم بن مسعود الذى خدع قريشًا وبنى قريظة عندما أخبر كلاً منهما أن الآخر يخطط لما يضره.

(**) توفى بعد غزوة بنى قريظة بأيام قليلة، متأثراً بجراحه.

(***) علم بنو قريظة أن الأحزاب جاءت لاستئصال المسلمين كلهم، وما يتبع ذلك من استرقاق نسائهم وأطفالهم، ومع ذلك انتهكت ميثاقها مع المسلمين لحساب الأحزاب.

قوى عن محاربته. كان التغيير قادمًا على ذلك المجتمع البدائى البائس، ولكن كان العنف والقتل بذلك المستوى، هو العرف السائد، وإلى حين[٦٣].

ولكن أظهرت الحادثة كيف سيكون محمد (ﷺ) فى المستقبل. ومن المهم ملاحظة أن قتل بنى قريظة لم يتم على أسس دينية أو عرقية، ولم تعترض قبائل اليهود الأخرى فى المدينة على القتل، ولم تحاول التدخل لمنعه، فقد رأته عملية سياسية وقبلية بحتة، ولقد أعدم عدد معتبر من قبيلة كلاب، حلفاء بنى قريظة معهم. لم يكن لدى محمد (ﷺ) معركة ثقافية ضد الشعب اليهودى، فقد قال: «من آذى يهوديًا أو مسيحيًا، فأنا خصيمه يوم القيامة» وقال: «من آذى ذميًا فقد أذانى». فقد أدينت قريظة بتهمة الخيانة، وظلت القبائل اليهودية السبع عشرة تعيش فى المدينة فى أجواء ودية مع المسلمين ولعدة سنوات، واستمر القرآن فى إصراره على تذكير المسلمين بقرابتهم الروحية لأهل الكتاب:

﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦][٦٤].

بعد ذلك، وطوال تاريخ الإمبراطوريات الإسلامية، تمتع اليهود بالحرية الدينية، ولم تصبح معاداة السامية(*) رذيلة لدى المسلمين إلا فى منتصف القرن العشرين عندما اشتعل الصراع العربى الإسرائيلى.

ربما قد بدت مأساة قريظة أمرًا ملائمًا للعرب فى زمن محمد (ﷺ)، ولكنها ليست مقبولة اليوم، ولا كانت ما أراد محمد (ﷺ) إنجازه. كان يريد إنهاء عنف الجاهلية، ولكنه أصبح يتصرف مثل باقى قادة القبائل العربية. لقد أحس أن الحرب فرضت عليه حتى يتمكن من إنجاز سلام دائم، ولكن القتال أشعل قتالاً، وأفرزت دائرة العنف شراسة وفظائع انتهكت تعاليم الإسلام الأساسية.

وعندما ركب ناقته مغادرًا قريظة ومتجهًا إلى مدينة تموج بالاستياء، فلا بد أنه أدرك أن عليه إيجاد طريقة أخرى لإنهاء الصراع. عليه أن يتخلى كلية عن أسلوب الجاهلية، ويبتكر حلاً جديدًا ومختلفًا، تمامًا.

(*) معاداة المسلمين للسامية مصطلح حافل بالأخطاء السياسية والدينية. فطبقًا للكتاب المقدس، العرب ساميون، وكرهت أوروبا ـ التى ظهر فيها المصطلح ـ اليهود لأنهم يهود، والعرب يعادون الصهيونية والظلم الذى أوقعته الدولة اليهودية على الفلسطينيين، ودفعت المنطقة العربية ثمنًا فادحًا لقيام دولة إسرائيل، أو دولة اليهود، لمدة تزيد على سبعة عقود، وما زال الدفع مستمرًا ومتزايدًا.

الفصل الخامس

السـلام

عزز انتصار محمد (ﷺ) على قريش من وضعه فى الجزيرة العربية، واستفاد خلال الشهور القليلة التالية من ذلك النصر، فأرسل فرقًا هجومية على القبائل التى تحالفت مع قريش فى غزوة الأحزاب، على أمل تشديد الحصار الاقتصادى على قريش، والذى كان يدمر تجارتها، مع جذب بعض القوافل التجارية الشامية إلى المدينة. وجعل نجاحه المستمر كثيراً من العرب يتساءلون عن جدوى إيمانهم التقليدى. لقد كانوا أناسًا عمليين، لايهتمون بالفكر التجريدى قدر اهتمامهم بفعالية نظامهم الدينى.

وبعد عودة الجيش المكى من المدينة، قال القائد خالد بن الوليد «كل رجل ذو عقل، يعرف الآن أن محمداً (ﷺ) لم يكن يكذب»:

> قال الواقدى: لما انصرف عمرو بن العاص قال: قد علم كل ذى عقل أن محمداً لم يكذب: فقال عكرمة بن أبى جهل: أنت أحق الناس ألا يقول هذا. قال عمرو: لم؟ قال: لأنه نزل على شرف أبيك وقتل سيد قومك. ويقال: الذى تكلم به خالد بن الوليد، ولا ندرى. لعلهما تكلما بذلك جميعًا. قال خالد بن الوليد: قد علم كل حليم أن محمداً لم يكذب قط. قال: أبو سفيان ابن حرب: إن أحق الناس ألا يقول هذا أنت قال: ولم؟ قال: نزل على شرف أبيك وقتل سيد قومك أبا جهل. [مغازى الواقدى: ٢/ ٤٩١][1].

وحتى أكثر المتمسكين بالدين القديم بدءوا يوافقون على ذلك. وأسرت إحدى الهجمات على قافلة تجارية مكية، أبا العاص زوج زينب، والذى تخلى عن عائلته بعد

بدر بدلاً من أن يقبل الإسلام، أمر محمد (ﷺ) بإطلاق سراحه وإعادة تجارته له.
وقد أسر كرم محمد (ﷺ) أبا العاص حتى أنه بعد أن سلم تجارته فى مكة، هاجر إلى المدينة، وأعلن إسلامه، ومن ثم استعاد عائلته ثانيًا، زينب وابنتها أمامة.

كانت ريح محمد (ﷺ) فى صعود فى الجزيرة العربية كلها، أما فى المدينة، فكان العكس هو الصحيح. أصبح الصراع مسمومًا أكثر من قبل، ولا يمر يوم إلا ويدس ابن أبى أنه لو ترأس يثرب، لما تعرضت للعداوة المميتة لأقوى مدينة فى بلاد العرب. كان أعداء محمد (ﷺ) لا يهاجمونه علانية إلا نادراً، ولكنهم شنوا عليه حملة تشهير. كانت محاولته ـ المختلف عليها بين عرب عصره ـ لتحسين حال المرأة، بمثابة هدية لهم، لترويج الإشاعات الحقودة والمنحطة على زوجاته. أعلن بعضهم أنه سيتزوج من إحدى زوجاته بعد وفاته، وانطوى ذلك على تلميح باغتياله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)﴾ [سورة: الأحزاب: ٥٣][٢].

سرت همسات بأنه أصبح عجوزاً لا يشبع زوجاته، وأنه مصاب بفتق فى الخصية[٣].

وعندما كان الناس يتزاحمون داخل بيته لسؤاله أو الشكوى من أمر أو سؤال أمر، كاد بعضهم يهين زوجاته أمام عينيه، وكاد الأمر يفلت من السيطرة. فى الليل، عندما يتلطف الجو، تنبعث الحياة فى المدينة، ويخرج الناس إلى الطرقات، ويجتمعون للمسامرة، ولكن منذ حصار الأحزاب، أصبحت النساء تهاجم فى الطرقات. وعندما كانت نساء النبى (ﷺ) تخرجن، كان المنافقون يتبعونهن ويُضايقونهن بأبشع وأحط الأقوال، وعندما يواجهون بذلك يقولون لم نكن نعرفهن فى ظلام الليل، وكنا نحسبهن بعض الإماء:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ

﴿أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً (٦٠)﴾ [سورة الأحزاب: ٥٩ ـ ٦٠][٤].

استهلكت أحداث السنوات الأخيرة محمداً (ﷺ) عاطفيًا وبدنيًا، وكان دائمًا يعتمد عاطفيًا على نسائه، الأمر الذى جلعه عرضة للانتقاد، وعندما قرر أن يتخذ زوجة جديدة، بدأت الألسنة تلوكه ثانيًا[٥]. كانت زينب بنت جحش قريبة دائمًا من محمد (ﷺ)، فهى ابنة عمته، وهى أيضًا زوجة زيد، ابنه بالتبنى.

لقد رتب محمد (ﷺ) زواج زينب بزيد، ولم تكن زينب متحمسة لزيد، فهو لم يكن جذابًا، وربما كانت مهتمة بمحمد (ﷺ) نفسه. زينب الآن فى أواخر الثلاثينيات من عمرها، ولكنها ذات جمال أخاذ، وهى امرأة تقية، ماهرة فى المشغولات الجلدية، وكانت تعطى ما تحصل عليه من مكسب للفقراء. ويبدو أن محمداً (ﷺ) رآها بعين جديدة وأحبها فجأة عندما ذهب بعد الظهيرة إلى منزل زيد ليتكلم معه، ولكن لم يكن زيد بمنزله. لم تكن زينب تنتظر أى زوار، فذهبت للباب بملابس المنزل الكاشفة، وعندما رآها محمد (ﷺ) حول وجهه عنها قائلاً «سبحان الله مغير قلوب الرجال»[*]. بعد فترة قصيرة، تم طلاق زينب من زيد وزواجها بمحمد (ﷺ). لم يكن زواجها بزيد سعيداً، وكان زيد سعيداً بطلاقها. صدمت القصة بعض منتقدى محمد (ﷺ) من الغربيين الذين اعتادوا أكثر على الأبطال المسيحيين الزاهدين، ولكن يبدو أن المصادر الإسلامية لم تجد ما يسىء فى فحولة نبيها، كذلك لم تنزعج من أن يكون لنبيها أكثر من أربع زوجات. لماذا لا يعطى الله لنبيه بعض الميزات؟ ما اعتبره معارضوه فى المدينة فاضحًا هو زواجه من زوجة ابنه بالتبنى زيد، فالابن بالتبنى هو كالابن، حتى أنهم اتهموا محمداً (ﷺ) بزنا المحارم. أيد الوحى محمداً (ﷺ) بأن الله أراد هذا الزواج لأنه ليس من الخطأ الزواج من زوجة الابن بالتبنى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى

(*) هذه الرواية عند علماء الحديث معلولة بثلاث علل تجعلها غير صحيحة، وقد انفرد بها ابن سعد، ومع هذا لا يكاد يخلو كتاب لمستشرق ـ عن النبى محمد ﷺ ـ منها.

النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)﴾ [سورة الأحزاب: ٣٦ ـ ٤٠][٦].

كان محمد (ﷺ) لدى عائشة عندما جاءه الوحى بذلك، فقالت عائشة ـ الجانحة للغيرة دائمًا ـ بأسلوب لاذع: «ما أسرع ربك فى تلبية هواك»(*). وكالعادة، انعكس التوتر بين نساء النبى (ﷺ) على المجتمع كله: زواج محمد (ﷺ) من إحدى قريباته، سوف يمد المجال السياسى لعائلة النبى (ﷺ)، داعيًا لقضية أهل البيت.

بسبب الفضيحة، أصر محمد (ﷺ) أن يحضر كل المجتمع حفل الزفاف. امتلأ الفناء بالضيوف، وكثير منهم معادون له، ولم يكن الجو العام سارًا. انتهى الحفل وبدأ الناس فى الانصراف، ولكن بقيت مجموعة صغيرة، سعيدة بالزفاف، ولكن غير مقدرة أن عليها الانصراف لترك الزوجين الجديدين. انصرف محمد (ﷺ) وذهب لزوجاته على أمل أن ينتبه الضيوف الغافلون لذلك فينصرفوا. سألته عائشة بحدة: كيف وجدت صاحبتك الجديدة؟ عاد محمد (ﷺ) بعد ذلك لزينب، ولكن بعد أن صرف أنس بن مالك الضيوف.

عندما دخل محمد (ﷺ) الغرفة، مد ستارة بينه وبين أنس، مرتلاً تنزيلاً جديدًا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)﴾.
[سورة الأحزاب: ٥٣][٧].

استمر التنزيل، ناهيًا نساء النبى (ﷺ) عن الزواج من أحد بعد موته، وأمرهن أن

(*) كذلك جاء عن عائشة أنها قالت: لو كان محمد ﷺ خافيًا شيئًا من الوحى لأخفى تلك الآية. البخارى فى كتاب التوحيد، حديث (٧٤٢٠).

يدنين عليهن من جلابيبهن - هن ونساء المؤمنين - حتى لا يعرفن ولا يؤذين من أحد:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩)﴾ [سورة الأحزاب: ٥٣ - ٥٩][8].

أصبحت آيات الحجاب مثار خلاف شديد[9]، وستستخدم بعد ثلاثة أجيال من بعد وفاة النبي (ﷺ) لتبرير تحجب كل النساء(*)، وفصلهن في أجزاء خاصة من المنزل. ولكن يجب رؤية الآيات في سياقها. نزلت الآيات في السورة ٣٣ [سورة الأحزاب]، والتي تتكلم عن أحداث الأحزاب، وما يمثله رعبها من خلفية للسورة. ولم توجه تلك الأوامر لكل النساء المسلمات ولكن لزوجات محمد (ﷺ). لقد جلبتها تهديدات أعداء محمد (ﷺ) الضمنية لحياته، وتجاوزاتهم وتعدياتهم شبه اليومية على زوجاته وعلى سكنه. لقد أجبر المناخ المسموم للمدينة محمداً (ﷺ) على تغيير ترتيباته الشخصية. لم يعد سكنه مجالاً عاماً، وعلى من يريد التحدث إلى

(*) من يقولون بوجوب ارتداء النساء الحجاب، وهم التيار الرئيسي من علماء المسلمين، يؤسسون ذلك على آية وحديث: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾ [سورة النور: ٣١]، وحديث عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله ﷺ، وقال: «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا»، وأشار إلى وجهه وكفيه. أبو داود في: اللباس حديث (٤١٠٤).

زوجاته أن يخاطبهن من وراء حجاب، وكلمة حجاب أصلها حجب. مثلت الستارة المضروبة كحجاب نوعًا من الحماية عن «الحرم»، مثل أستار الكعبة. فى أيام التعرض للهجوم، غالبًا ما ترمز أجساد النساء لمكمن الخطر على الأمة، وفى أيامنا الحالية، اكتسب الحجاب أهمية جديدة، فيما يبدو لحماية الأمة من تهديد الغرب.

لم يكن محمد (ﷺ) يريد أن يفصل حياته الخاصة عن حياته العامة. استمر فى اصطحاب زوجاته فى حملاته العسكرية، ولكن سيبقين فى الخيام، واستمرت بقية النساء المسلمات فى التحرك بحرية فى كل مكان. لم يكن المقصود من الحجاب فصل الجنسين، وفى واقع الأمر، عندما نزلت آية الحجاب، تم الفصل بين رجلين، محمد (ﷺ) وأنس، وكانت لفصل الزوجين محمد (ﷺ) وزينب، أو أى من زوجاته، فى منزله عن المجتمع العام. وكان نزول آية الحجاب نصرًا لعمر الذى كان يحث النبى (ﷺ) على حجب زوجاته لفترة ما، وكان ذلك حلاً سطحيًا لحد ما لمشكلة معقدة.

كان محمد (ﷺ) يريد تغيير سلوك الناس، وكان فرض ذلك الحاجز الخارجى حلاً وسطًا، لأنه لا يستلزم من المسلمين ممارسة الضبط الذاتى لأفعالهم، وإنما جاء الحل موافقة لعمر نظرًا للأزمة التى كانت تمزق المدينة.

ولكن الوضع لم يتحسن، فبعد أسابيع قليلة من آيات الحجاب، شن أعداء محمد (ﷺ) هجومًا شريرًا على عائشة لتدمير محمد (ﷺ) وكادت تُقسِّم الأمة(١٠). مثلت عائشة هدفًا سهلاً، فهى المفضلة لدى محمد (ﷺ)، وجميلة، مفعمة بالحيوية، فخورة بوضعها، وغيورة، ومفوهة، وليست كاملة من حب الذات، وبلا شك فقد صنعت عداوات كثيرة. اختار محمد (ﷺ) عائشة لمصاحبته فى حملة ضد أحد حلفاء قريش والذى عسكر بجنوده قريبًا من المدينة بشكل يمثل تهديدًا لها. وطبقًا لجواسيس محمد (ﷺ)، كانت قريش وراء ذلك، حيث أقنعت حليفها بمهاجمة المدينة. نجحت الحملة: اعترضهم المسلمون عند عين المريسيع على شاطئ البحر الأحمر، فاستولوا على مائتى ناقة، وخمسمائة من الغنم، ومائتى من نسائهم، وكانت جويرية بنت الحارث، ابنة رئيس القبيلة بينهم. توقف قلب عائشة فور أن رأت جويرية، فقد كانت جميلة، وحين بدأت المفاوضات إثر الهجوم، عرض محمد (ﷺ) الزواج منها لعقد تحالف مع أبيها.

عسكر المسلمون فى المريسيع ثلاثة أيام، وبرغم النتائج الإيجابية للغزو، فالتوتر الذى يغلى بين المهاجرين والأنصار فجر حادثة خطيرة. فبينما كانوا يسقون جمالهم،

نشب شجار بين أجيرين، أحدهما لعمر بن الخطاب والثانى من حلفاء الخزرج، وسرعان ما نادى الأول على المهاجرين والثانى على الأنصار، الذين احتشدوا، وبخلاف ما أمر القرآن، بدءوا يتقاتلون. سمع عمر وبعض صحابة محمد (ﷺ) الآخرين بذلك، فهرعوا ليوقفوا القتال، مما أثار غضب ابن أبى:

> قال ابن إسحاق: «فبينا رسول الله (ﷺ) على ذلك الماء، وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار، يقال له جهجاه بن مسعود، يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان ابن وبر الجهنى، حليف بنى عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهنى: يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبى بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم زيد ابن أرقم، غلام حدث، فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، وأما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم! أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله (ﷺ) وذلك عند فراغ رسول الله (ﷺ) من عدوه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله (ﷺ): «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا ولكن أذن بالرحيل». وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله (ﷺ) يرتحل فيها، فارتحل الناس. [السيرة النبوية: ص٦٧٠ - ٦٧١](١١).

وفى إحدى مرات التوقف، تسللت عائشة لتقضى حاجتها، وعندما عادت، اكتشفت أنها فقدت قلادتها. وكانت القلادة هدية الزفاف من أمها، ولم تكن تتحمل فقدها، فذهبت تبحث عنها، وأثناء ذلك، حمل الناس هودجها على الجمل وساروا به ظنّا أنها داخله. عادت عائشة فوجدت القافلة تحركت، فجلست مكانها منتظرة أن يكتشف أحد غيابها فيعودوا ليأخذوها. ظهر صفوان بن المعطل، الذى كان قد تأخر

لبعض شئونه، فوضعها على ظهر جمله، ثم سار حتى لحقا بالقافلة. بدأت الإشاعات عن علاقة عائشة بصفوان، لاكتها ألسن المعارضين لمحمد (ﷺ). علق ابن أبى بابتهاج قائلاً إنه من الطبيعى أن تميل عائشة لصفوان، فهو أصغر وأوسم من زوجها. زلزلت الفضيحة المدينة، وبدت القصة كما لو كانت حقيقية، حتى أن بعض المهاجرين بدءوا فى تصديقها، بل إن أبا بكر بدأ يشك فى صحة القصة. والأخطر من ذلك، أن محمدًا (ﷺ) نفسه بدأ يداخله الشك فى براءة عائشة، وتلك علامة على تآكل ثقته فى تلك الفترة الصعبة، ولأيام قليلة، بدا مضطربًا وغير واثق، لقد كانت حاجته لعائشة كبيرة، وكان يخشى فقدانها، ولذلك بدا مضطربًا ومترددًا. لم ينزل عليه وحى، ولأول مرة منذ بداية النبوة، يصمت عنه الوحى طويلاً. استمرابن أبى فى استغلال الموقف، واشتعلت الأحقاد القبلية القديمة عندما هددت الخزرج، قبيلة ابن أبى، بمحاربة الأوس الذين طالبوا بقتل من يسعر الفتنة. كان الوضع خطيرًا حتى أن محمدًا (ﷺ) اضطر لجمع رؤساء المدينة ليطلب منهم دعمهم إذا وجد أنه من الضرورى اتخاذ إجراء ضد ابن أبى الذى يهاجم عائلته.

فى النهاية، ذهب محمد (ﷺ) إلى عائشة، التى ذهبت إلى منزل أبويها فلبثت يومين تبكى، بعد أن عرفت ما يقال عنها، لا يغمض لها جفن ولا يرقأ لها دمع، حتى دخل عليها زوجها ليسألها قائلاً: «أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله، تاب الله عليه». وقفت عائشة التى لم تبلغ العشرين من عمرها رابطة الجأش وجف دمعها فورًا، وحملقت فى زوجها قائلة فى شرف عظيم:

> لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إنى بريئة، والله يعلم أنى بريئة، لا تصدقوننى بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة، تصدقونى. والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا قول أبى يوسف ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾، ثم تحولت ورقدت لتنام فى مرضها صامتة ثانيًا[١٢].

أيقن محمد (ﷺ) الذى يعرف عائشة جيداً أنها بريئة، وسرعان ما أخذته الغاشية التى تسبق الوحى، ووضع أبو بكر وسادة تحت رأسه، بينما بقى هو وزوجته مترقبين ـ فى حالة خوف ـ مما يأتى به الوحى.

ثم أفاق النبى (ﷺ) وهو يضحك قائلاً: «يا عائشة، أما الله فقد برأك». فقالت لها أمها: قومى إليه، فأجابتها عائشة بعند: لا أقوم إليه ولا أشكره، ولا أشكركما، فقد استمعتما إلى قذفى ولم تنكراه، لن أقوم إلا لله، ولن أشكر سواه(*).

تقبل محمد (ﷺ) توبيخ عائشة لهم فى تواضع، وذهب ليخبر المسلمين المنتظرين الآيات الجديدة:

(*) قال ابن إسحاق: عن عائشة ﵂ أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه، كما كان يصنع، فخرج سهمى عليهن معه، فخرج بى رسول الله ﷺ.

قالت: وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العلق لم يهجهن اللحم، وكنت إذا رحل لى بعيرى جلست فى هودجى، ثم يأتى القوم الذين يرحلون لى ويحملوننى، فيأخذون بأسفل الهودج، فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير، فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير، فينطلقون به. قالت: فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، وجه قافلاً، حتى إذا كان قريبًا من المدينة فنزل منزلاً، فبات به بعض الليل، ثم أذن فى الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجت لبعض حاجتى، وفى عنقى عقد لى، فيه جزع ظفار، فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى، فلم أجده، وقد أخذ الناس فى الرحيل، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم خلافى، الذين كانوا يرحلون لى البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج، وهم يظنون أنى فيه، ثم أخذوا برأس البعير، فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب. قد انطلق الناس.

قالت: فتلففت بجلبابى، ثم اضطجعت فى مكانى، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلى. قالت: فوالله إنى لمضطجعة إذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس، فرأى سوادى، فأقبل حتى وقف على، وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآنى قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ! وأنا متلففة فى ثيابى، قال: ما خلفك يرحمك الله؟ قالت: فما كلمته، ثم قرب البعير، فقال: اركبى، واستأخر عنى. قالت: فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعًا، يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل=

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)﴾ [سورة النور: ١١][١٤].

= الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بى، فقال أهل الإفك ما قالوا، فارتعج العسكر ووالله ما أعلم بشىء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة، ولا يبلغنى من ذلك شىء. وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ، وإلى أبوى لا يذكرون لى منه قليلاً ولا كثيراً، إلا أنى قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بى، كنت إذا اشتكيت رحمنى، ولطف بى، فلم يفعل ذلك بى فى شكاوى تلك، فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل على وعندى أمى تمرضنى ـ قال ابن هشام: وهى أم رومان، واسمها زينب بنت عبد دهمان، أحد بنى فراس بن غنم بن مالك بن كنانة ـ قال: «كيف تيكم؟» لا يزيد على ذلك.

قالت: حتى وجدت فى نفسى، فقلت: يا رسول الله ـ حين رأيت ما رأيت من جفائه لى ـ: لو أذنت لى، فانتقلت إلى أمى فمرضتنى؟ قال: «لا عليك». قالت: فانتقلت إلى أمى، ولا علم لى بشىء مما كان، حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة، وكنا قومًا عربًا، لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكنف التى تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها، إنما كنا نذهب فى فسح المدينة، إنما كانت النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مسطح بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف، وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن تيم. خالة أبى بكر الصديق رضي الله عنه، قالت: فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرت فى مرطها، فقالت: تعس مسطح، ومسطح لقب واسمه عوف، قالت: قلت: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً، قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر؟ قالت: قلت: وما الخبر؟ فأخبرتنى بالذى كان من قول أهل الإفك، قالت: قلت: أو قد كان هذا؟ قالت: نعم والله فقد كان. قالت: فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى، ورجعت، فوالله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى، قالت: وقلت لأمى: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به، ولاتذكرين لى من ذلك شيئًا! قالت: أى بنية، خفضى عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.

قالت: وقد قام رسول الله ﷺ فى الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا أيها الناس، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل، والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتًا من بيوتى إلا وهو معى».

قالت: وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبى ابن سلول فى رجال من الخزرج مع الذى قال مسطح وحمنة بنت جحش، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن من نسائه امرأة تناصبنى فى المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله ـ تعالى ـ بدينها. فلم تقل إلا خيراً، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت، تضادنى لأختها، فشقيت بذلك.

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة، قال أسيد بن حضير: يا رسول الله، إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج، فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب =

لقد تم تجنب مأساة شخصية وسياسية، ولكن بقيت الشكوك، لقد أظهرت الحادثة كيف كان محمد (ﷺ) سهل المنال. فهل كان ـ كما يزعم ابن أبى ـ نارًا مستهلكة؟ .

ولكن فى ذى القعدة (٦ هـ / مارس ٦٢٨م)، ، أعلن محمد (ﷺ) بيانًا مروعًا، أثبت فيما بعد أنه ممارسة غير عادية لعبقريته النبوية[١٥]. يبدو أنه لم تكن لديه خطة

= أعناقهم، قالت: فقام سعد بن عبادة، وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحًا، فقال: كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا، فقال أسيد: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: وتثاور الأوس، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر. ونزل رسول الله ﷺ، فدخل على.

قالت: فدعا على بن أبى طالب [رضوان الله عليه]، وأسامة بن زيد، فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى على خيرًا، ثم قال: يا رسول الله، لا نعلم إلا خيرًا، وهذا الكذب والباطل، وأما على فإنه قال: يا رسول الله، إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية، فإنها ستصدقك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة ليسألها، قالت: فقام إليها على بن أبى طالب، فضربها ضربًا شديدًا، ويقول: اصدقى رسول الله ﷺ، فتقول: والله ما أعلم إلا خيرًا، وما كنت أعيب على عائشة شيئًا، إلا أنى كنت أعجن عجينى، فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتى الشاة فتأكله.

قالت: ثم دخل على رسول الله ﷺ، وعندى أبواى، وعندى امرأة من الأنصار، وأنا أبكى، وهى تبكى معى، فجلس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: : «يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقى الله، وإن كنت قد قارفت سوءًا مما يقول الناس فتوبى إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده»: فوالله ما هو إلا إن قال لى ذلك، فقلص دمعى، حتى ما أحس منه شيئًا، وانتظرت أبوَىّ أن يجيبا عنى رسول الله ﷺ، فلم يتكلما. قالت: وايم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى، وأصغر شأنًا من أن ينزل الله فى قرآنا يقرأ به فى المساجد ويصلى به، ولكنى قد كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى نومه شيئًا يكذب به الله عنى، لما يعلم من براءتى، أو يخبر خبرًا، فأما قرآن ينزل فى، فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك. قالت: فلما لم أر أبوَىّ يتكلمان، قالت: قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟ قالت: فقالا: والله ما ندرى بماذا نجيبه، قالت: والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام، قالت: فلما أن استعجما على استعبرت فبكيت، ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا. والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أنى منه بريئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى. قالت: ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره، فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجى بثوبه ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت ولا باليت، وقد عرفت أنى بريئة، وأن الله ـ عز وجل ـ غير ظالمى، وأما أبواى، فوالذى نفس عائشة بيده، ما سرى عن رسول الله ﷺ، حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس، قالت: ثم سرى عن رسول الله ﷺ، فجلس، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان فى يوم شات، فجعل يمسح العرق عن جبينه، ويقول: «أبشرى يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك»، قالت: قلت: بحمد الله، ثم خرج إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن فى ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة =

محددة فى البداية، وإنما فقط بصيص من بصيرة داخلية. أخبر المسلمين أنه رأى فى المنام أنه وأصحابه فى المسجد الحرام، محرمين، ومعهم مفاتيح الكعبة، مملوئين سكينة وثقة بالنصر. وفى اليوم التالى، أعلن لأصحابه نيته للاعتمار، ودعاهم لصحبته. ويمكنك أن تتصور مدى خليط الخوف والتعجب وعدم اليقين والبهجة الذى غمر المسلمين من تلك الدعوة المهولة. أعلن محمد (ﷺ) بوضوح أنها ليست حملة عسكرية، فلن يحملوا السلاح خلال العمرة، وليس فى نيته انتهاك الحرم، حيث يمتنع القتال فيه. اعترض عمر قائلاً إنهم بدون سلاح سوف يساقون إلى الذبح، ولكن محمداً (ﷺ) كان صلبًا فى ذلك: «لن نحمل السلاح، نحن ذاهبون للعمرة، وليس لغير ذلك». المعتمرون لا يحملون سلاحًا، إلا ما قد يضطرون إليه ليحموا أنفسهم فى الطريق، فإذا دخلوا الحرم، تركوا ـ حتى ذلك السلاح الخفيف ـ خارجه. كان محمد (ﷺ) يريد أن يذهب إلى عرين عدوه بدون سلاح.

لم يخاطر بتلك العمرة أحد من حلفاء محمد (ﷺ) من البدو، وخرج معه حوالى ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، حتى ابن أبى قرر الخروج ومعه بعض المنافقين، وسمح لامرأتين من الأنصار شهدتا العقبة، كذلك اصطحب محمد (ﷺ) أم سلمة.

بدأ المسلمون العمرة، ومعهم جمالهم التى سيضحون بها. وفى أولى محطات الاستراحة، قلد محمد (ﷺ) أحد الجمال قلائد العمرة التقليدية، ثم بدأ التلبية «لبيك اللهم لبيك». انتشرت أنباء تلك العمرة الجريئة، إن لم تكن المتهورة، من قبيلة إلى أخرى، وتابع البدو أخبارها عن كثب من المدينة شمالاً إلى مكة جنوبًا. كان محمد (ﷺ) يعلم أنه يضع قريشًا فى موقف شديد الصعوبة. فكل عربى له الحق فى الحج والعمرة، وإذا منعت قريش، حامى الكعبة، أكثر من ألف معتمر يتبعون تقاليد العمرة، فإنها بذلك تكون قد تنكرت لواجبها. كذلك سيكون إذلالاً لا يمكن قبوله لو

= بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة، فضربوا حدهم. [السيرة النبوية: ص ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٦٧٧](١٣).

دخل محمد (ﷺ) مكة. سرعان ما قرر كبار قريش منع محمد (ﷺ) من دخول مكة، وبأى ثمن. وفى اجتماع طارئ، قرر القادة إرسال خالد بن الوليد فى مائتى فارس لمهاجمة أولئك المعتمرين غير المسلحين. وعندما علم محمد (ﷺ) بذلك الأمر الخطير، ألم به الكرب على قومه قريش. لقد أعمتهم الكراهية العقيمة التى أثارتها الحروب، حتى أنهم أصبحوا مستعدين لانتهاك تقاليد الحرم، والتى تقوم حياتهم عليها: «ما جدوى كل ذلك العناد؟ يا حسرة على قريش، لقد أنهكتهم الحرب وأضرت بهم. ما ضرهم لو خلوا بينى وبين العرب؟»:

قال ابن إسحاق: فقال رسول الله (ﷺ): «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة». [السيرة النبوية: ص ٦٨٢](١٦).

اتخذت العمرة مساراً مختلفًا عما تخيله محمد (ﷺ)، وربما عما توقعه من أن يسمح له بدخول مكة، ومن أن تسنح له الفرصة ليشرح مبادئ الإسلام لقريش فى كنف السلام الذى تفرضه العمرة. ولكنه لا يستطيع التراجع الآن، وقال: «إن هم أبوا إلا القتال، فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، أو لينفذن الله أمره».

أصبحت مهمته الأولى أن يصل بالمعتمرين داخل حدود الحرم. وجد المسلمون دليلاً من قبيلة أسلم، قادهم لذلك فى طريق وعر ملتف. وفور دخولهم الحرم، ذكَّرَ محمد (ﷺ) المسلمين أنهم فى عمرة، يجب ألا تطغى عليهم مشاعر الحنين للوطن، ولا الزهو بالانتصار، عليهم أن يتوبوا عن أوزارهم، وعليهم أن يتجهوا الآن إلى بئر الحديبية وتترك جمالهم آثارها حتى يعرف خالد بن الوليد أين هم.

وعندما وصلوا الحديبية، بركت ناقة محمد (ﷺ) ورفضت التحرك:

قال ابن إسحاق: فأمر رسول الله ﷺ الناس فقال: «اسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمض» فى طريق تخرجهم على ثنية المرار، مهبط الحديبية من أسفل مكة، قال: فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد

خالفوا عن طريقهم، رجعوا راكضين إلى قريش، وخرج رسول الله (ﷺ)، حتى إذا سلك فى ثنية المرار بركت ناقته، فقالت الناس: خلأت الناقة، قال: «ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها». [السيرة النبوية، ابن إسحاق - ط دار الكتب العلمية: ص ٦٨٢](١٧).

لم يفكر محمد (ﷺ) مطلقًا فى القضاء على قريش، ولكن أراد إصلاحها، اقتناعًا منه بأن استمرارها على حالها الاجتماعى القديم سوف يدمرها. ورأت قريش أن ذلك الاعتمار يبلغ مرتبة إعلان الحرب عليها، ولكن محمدًا (ﷺ) أراد أن يسجد أمام الحرم المكى امتثالاً لأوامر الله، وقد انصاعت ناقة رسول الله (ﷺ) كما انصاع الفيل [أى فيل أبرهة الأشرم] من قبل لأمر الله. لم تحقق الحروب شيئًا يبقى سوى الفظائع التى ارتكبها الجانبان. ما هذا الاعتمار إلا هجومًا بالسلام، وليس غزوًا. ولكن القليل من المسلمين أخذوا ذلك الكلام من محمد (ﷺ) على محمل الجد، فقد أسرتهم الأحداث وتوقعوا مفاجئات، ربما معجزة تُخرج القرشيين من مكة ويدخلوها ظافرين! ولكن بدلاً من ذلك، أمرهم محمد (ﷺ) بهدوء أن يرووا جمالهم ويجلسوا بجانبها. وما تلا ذلك هو الجلوس فى طاعة انتظارًا للإذن بدخول مكة، و ممتنعين عن أى عنف. كان محمد (ﷺ) يصور أنه يراعى تقاليد الحرم أكثر من قريش، والتى كانت تعد لقتاله، بينما هو يريد العمرة، مسالمًا بدون سلاح فى الأرض الحرام.

وصلت رسالة محمد (ﷺ) للبدو، فها هو رئيس خزاعة الذى يزور مكة، ركب إلى الحديبية ليرى ما يحدث، فروعه أن يرى أولئك المعتمرين - بدون سلاح - يُمنعون من دخول مكة:

قال ابن إسحاق: فلما اطمأن رسول الله (ﷺ) أتاه بديل بن ورقاء الخزاعى، فى رجال من خزاعة، فكلموه وسألوه: ما الذى جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربًا، وإنما جاء زائرًا للبيت، ومعظمًا لحرمته، ثم قال لهم نحوًا مما قال لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمدًا لم يأت لقتال، إنما جاء زائرًا هذا البيت. فاتهموهم

وجبهوهم، وقالوا: وإن كان جاء ولايريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدًا، ولا تحدث بذلك عنا العرب. [السيرة النبوية: ص ٦٨٣](١٨).

كان يقود قريشًا فى تلك الأحداث ضد محمد (ﷺ)، سهيل بن عمرو، الوثنى التقى الذى كان محمد (ﷺ) يأمل فى دخوله الإسلام، وأبناء بعض عتاة أعداء الإسلام: عكرمة بن أبى جهل، فكان يعارض أى حل وسط، وصفوان بن أمية، الذى قتل أبوه فى بدر، ومن الجدير بالملاحظة، أن أبا سفيان، صاحب الذكاء الخارق، لم يكن له دور كبير فى الأحداث، ربما لأنه أدرك أن محمداً (ﷺ) قد جعل قريشًا فى وضع المنتهك للتقاليد، وأنه لم يعد بوسع قريش أن تستمر فى التعامل معه بالتحديات التقليدية للجاهلية.

حاول المكيون قتل المعتمرين، ولكن فوت عليهم محمد (ﷺ) الفرصة بأن دخل منطقة الحرم. وحاول المكيون بعد ذلك شق صفوف المسلمين بدعوة ابن أبى لأداء العمرة، ولكن لدهشة الجميع، رفض ابن أبى أن يعتمر قبل محمد (ﷺ)، رغم أنه سوف يصطدم به ثانيًا فى المستقبل، إلا أنه كان مسلمًا مطيعًا فى الحديبية. أخيرًا، أفلح سهيل وصفوان فى إقناع عكرمة بالمفاوضات، وأرسلوا أحد حلفائهم من البدو، الحليس سيد الأحابيش، وهو رجل شديد التدين، وعندما رآه محمد (ﷺ) مقبلاً عليهم، أمرهم بإرسال البدن أمامه، فتأثر الحليس بذلك وعاد إلى مكة بدون أن يسأل محمداً (ﷺ) عن قدومه، وقال لقريش: قد رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا [عن العمرة]. غضب صفوان قائلاً كيف يجرؤ الحليس ذلك البدوى الجاهل على إعطائهم أوامر! كان ذلك خطأ خطيرًا:

قال ابن إسحاق: إن الحليس غضب عند ذلك وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم. أيصد عن بيت الله من جاء معظمًا له! والذى نفس الحليس بيده، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. [السيرة النبوية: ص ٦٨٤](١٩).

اعتذر صفوان على الفور، وطلب من الحليس أن يبقى معهم حتى يجدوا حلاً يرضى الجميع.

أرسلت قريش مبعوثها الثانى، عروة بن مسعود الثقفى، وهو حليف هام لمكة. وضع عروة أصبعه على نقطة ضعف محمد (ﷺ) فقال له: أى محمد، أرأيت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إنى لا أرى وجوهًا وأرى أوباشًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك.

> قال ابن إسحاق: جلس عروة بن مسعود الثقفى بين يدى رسول الله (ﷺ) وقال: «يا محمد، أجمعت أوشاب الناس، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟!» [السيرة النبوية: ص ٢٨٤][٢٠].

عرف محمد (ﷺ) أنه برغم ذلك العرض للقوة والوحدة، فلديه عدد قليل جدًا من الحلفاء الذين يُعتمد عليهم، فالبدو الذين حالفوه، والذين رفضوا مصاحبته فى العمرة، التزامهم بالإسلام سطحى، ووضعه فى المدينة غير مأمون بشكل يبعث على اليأس، وعلم أن بعضًا من أصحابه المقربين لا يفهمون ما هو بصدده. كيف يناطح قريشًا ـ قبيلته الأصلية ـ بتلك الأخلاط المتنافرة؟ كانت قريش ـ بالتباين ـ متحدة بقوة، ومسلحة حتى أسنانها. أخبره عروة أنه حتى النساء والأطفال، أقسموا أن يمنعوا محمدًا (ﷺ) من دخول مكة. ولكن، ورغمًا عنه، تأثر عروة بإخلاص المسلمين لمحمد (ﷺ) فى الأزمة، وأخبر قريشًا ـ أنه على الأقل فى وقتهم الحاضر ـ أن محمدًا (ﷺ) عنده أدوات الفوز، وأن عليهم إبرام نوع من الاتفاق معه(*).

قرر محمد (ﷺ) أن يرسل سفيرًا من جانبه لمكة. فأرسل أمية بن خراش الخزاعى، ولكنها عرقبت جمله، وكادت تقتله لو لا تدخل الحليس، ثم طلب محمد (ﷺ) من عمر أن يذهب، ولكن أجابه عمر بأنه ليس هناك أحد من قبيلته فى مكة يحميه من قريش، وفى النهاية أرسل عثمان بن عفان. استمعت قريش لعثمان، ولكن لم تقتنع، وسمحت له بأداء العمرة، ولكنه أبى، فقررت قريش إبقاءه رهينة، ولكنها أرسلت للمسلمين أن عثمان قتل.

(*) قال عروة لقريش بعد لقائه مع محمد ﷺ: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على قيصر وكسرى والنجاشى، والله ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا، وقد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها. [الرحيق المختوم، طبعة دار الحديث ٢٠٠٤م، ص ٢٩٧].

كانت تلك لحظة رهيبة. بدا أن الحملة أشعلت ناراً غير محسوبة. وفي هذا الجو المشحون، دخل محمد (ﷺ) في غاشيته، ولكن لم تأته رسالة من الله، وكان عليه أن يجد حلاً بنفسه، فأمعن الفكر في العوامل التحتية للأحداث المخيفة الحالة، كما كان يفعل دائمًا، حتى يعرف ما الذي يجري في حقيقة الأمر. أخيراً، سأل المسلمين أن يبايعوه، فأقسموا على ذلك تحت الشجرة فيما أسموه «بيعة الرضوان، أوبيعة الشجرة». اختلفت المصادر التاريخية في البيعة، وربما تكون رواية الواقدي أكثرها إقناعًا. يقول الواقدي: إن المسلمين بايعوا محمداً (ﷺ) على أن يطيعوا ما في نفسه في هذه الأزمة:

> قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله (ﷺ)، قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، فدعا رسول الله (ﷺ) الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله (ﷺ) على الموت، وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله (ﷺ) لم يبايعنا على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نفر. فبايع رسول الله (ﷺ) الناس، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها، إلا الجد بن قيس، أخو بني سلمة، فكان جابر بن عبد الله يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته. قد ضبأ إليها، يستتر بها من الناس. ثم أتى رسول الله (ﷺ) أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل. [السيرة النبوية: ص ٦٨٦](٢١).

لم يكن محمد (ﷺ) قادراً على أن يأمر بالطاعة المطلقة له، ولكن خبر قتل عثمان هزه بشدة، حتى أن ابن أبي والمنافقين كانوا مستعدين للمبايعة. لقد كان محمد (ﷺ) مصممًا - في أعماق غريزته - أن يتخذ مساراً، علم أن الكثيرين سيجدون أنه لا يمكن التسامح بخصوصه، ولذلك أراد أن يضمن ولاءهم مقدمًا. بعد أن بايع الجميع، بدأت الأمور تتحسن، فأولاً جاء الخبر السار بأن عثمان على قيد الحياة، وثانيًا، قدم سهيل بن عمرو موفداً من قريش، وكان محمد (ﷺ) دائم الاحترام له، فأدرك أن قريشًا تريد التفاوض، وتفاءل باسمه فقال: «قد سهل لكم أمركم».

لقد كان ذلك إنجازًا فى حد ذاته، فأخيرًا، أجبر محمد (ﷺ) قريشًا على أن تأخذه على محمل الجد، ولاحت فرصة حقيقية لحل سلمى. تفاوض محمد (ﷺ) مع سهيل لمدة طويلة ولكن البنود التى اتفقا عليها أفزعت الكثير من أصحابه! أولاً: سيرجع المعتمرون بدون أداء المراسم هذا العام، ويعودون العام المقبل لذلك. ثانيًا: تعقد هدنة بين مكة والمدينة لمدة عشر سنوات، يعيد فيها محمد (ﷺ) إلى قريش كل من يدخل فى الإسلام ويفر منها إليه ضد رغبة وليه، ولكن لن تعيد قريش لمحمد (ﷺ) من يلجأ إليها من المسلمين. ثالثًا: تتحلل قبائل البدو من تحالفاتها القديمة، وتختار من جديد من تريد التحالف معه، المدينة أم مكة.

رسخ القرآن أنه من أجل إحلال السلام، على المسلمين أن يقبلوا جنوح عدوهم للسلام:

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)﴾

[سورة الأنفال: ٦١][٢٢].

ولكن وجد كثير من المعتمرين تلك الشروط غير مشرفة. وتعنى المعاهدة أن المسلمين لن يستطيعوا الهجوم على قوافل مكة التجارية. لماذا يتخلى محمد (ﷺ) عن الحصار الاقتصادى على قريش، والذى بدأت أنيابه تعض؟ لماذا رضى بأن يعيد الداخلين فى الإسلام إلى مكة، ولا يلزم مكة أن تعيد إليه من يخرج من المدينة؟ خلال السنوات الخمس الماضية، مات مسلمون، وفقد آخرون عائلاتهم وأصدقاءهم، فى سبيل الدين الجديد، والآن، يسلم محمد (ﷺ) كل شىء لقريش فى هدوء، ويعود المسلمون خانعين إلى المدينة بدون عمرة؟ أهانت الهدنة كل عصب جاهلى فى المسلمين:

> قال ابن إسحاق: وقد كان أصحاب رسول الله (ﷺ) خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح، لرؤيا رآها رسول الله (ﷺ) فلما رأوا ما رأوا من الصلح، والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله (ﷺ) فى نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون. [السيرة النبوية: ص ٦٨٧][٢٣].

ظهرت بوادر التمرد، وتشقق التضامن الهش الذى جمع المعتمرين خلال تلك البعثة المحفوفة بالمخاطر، وظهرت فجأة بوضوح التصدعات التحتية التى تواجدت دائمًا فى الأمة. هب عمر إلى أبى بكر متسائلاً: ألسنا مسلمين وهم كفار؟ لماذا نعطى الدنية فى ديننا؟.

اضطرب أبو بكر ولكنه أجاب: برغم كل شىء، فهو يؤمن بمحمد (ﷺ):

قال ابن إسحاق: فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال. بلى، قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه، فإنى أشهد أنه رسول الله، قال عمر، وأنا أشهد أنه رسول الله. [السيرة النبوية: ص ٦٨٦][٢٤].

قال عمر بعد ذلك إنه لو وجد مائة يتبعونه لا نشق عن محمد (ﷺ)، فهو لم يكن يشارك محمداً فى رؤيته ذلك الوقت[٢٥](*). كان عمر، مثل الكثير من الأنصار والمهاجرين الذين جاءوا من عشائر هامشية، أو حتى القرشيين المهمشين، لم يكن يريد فقط إصلاح النظام الاجتماعى لمكة، ولكن كان يريد إنهاءه وإحلال نظام قرآنى صرف مكانه.

كان عمر شجاعًا، مؤثراً للغير، وملتزمًا بحماس شديد بمثاليات العدالة والمساواة، والتى غابت عن الحياة المكية، ولكنه لم يكن رجل الحلم، وكان لا يزال به بعض تهور الجاهلية. لم يفهم أن قيم الرقة واللا عنف هى أيضًا محورية فى مثاليات الإسلام، وكان رجل عمل، وميالاً - مثل الجاهليين - إلى سيفه دون التمعن فى الأمور[٢٦]. احتار وارتبك مما صنعه محمد (ﷺ) فى الحديبية.

بعد الانتصار على قريش فى غزوة الأحزاب، كان المفترض أن تكون الخطوة التالية هى الضغط على قريش وتدميرها، ولكن ذلك لم يخطر مطلقًا على بال محمد (ﷺ). وذلك لأن انهيار مكة سيسبب كارثة لا يمكن تدارك آثارها على العرب، فهم متخلفون، ويحتاجون لعبقرية قريش التجارية لأقصى درجة. ولن تتدبر

(*) ما جاء عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «لولا أن الذى قَبل ما كان بصلح الحديبية هو رسول الله ﷺ ما سمعت ولا أطعت، ولو أمرعلى أميراً ما سمعت له ولا أطعت». كذلك روى عنه أنه قال: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمته، حتى رجوت أن يكون خيراً، ولم نجد فى المصادر العربية ما جاءت به المؤلفة.

قريش الإسلام طالما استمرت الحرب بينها وبين المسلمين، مما يؤجج مشاعر الغضب والكراهية أكثر من أى شيء آخر. هَدَفَ محمد (ﷺ) من التخلى عن الحصار الاقتصادى إلى كسب قريش. لقد كان فيما أنجز فى الحديبية أبعد نظراً من أى شخص آخر، لم يكن يستسلم فى ضعف، بل كان يعرف تمامًا ما هو بصدد إنجازه. لقد كان يتحرك فى اتجاه حل سياسى ودينى لم يسبق له مثيل فى بلاد العرب، ويعنى هذا أن عليه ألا يتبع المسارات التقليدية؛ لأنها لن تذهب به بعيداً عن الواقع غير السعيد.

عندما نظر محمد (ﷺ) إلى الوجوه المذهولة واليائسة للمعتمرين، كان عليه أن يخبرهم بوجوب قبولهم لشروط الهدنة لأن الله هو الذى أملاها. لم يرض ذلك القاعدة العامة للمعتمرين، الذين توقعوا نوعًا من المعجزات، وكان بشكل خاص مخيبًا لآمال المنافقين الذين خرجوا سعيًا لمكاسب دنيوية. توتر الحال أكثر عندما عرف المسلمون نص المعاهدة. استدعى محمد (ﷺ) عليًا ليكتب نص المعاهدة، وعندما بدأ بالبسملة، اعترض سهيل وأصر على كتابة باسمك اللهم، وافق محمد (ﷺ)، وأصابت المسلمين قشعريرة، ولكن الأسوأ ما زال فى الطريق:

> قال ابن إسحاق: ثم دعا رسول الله (ﷺ) على بن أبى طالب - رضوان الله عليه - فقال: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله (ﷺ): «اكتب باسمك اللهم»، فكتبها، ثم قال: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله (ﷺ): «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه». [السيرة النبوية: ص ٦٨٧][٢٧].

وفى هذه اللحظات الفارقة، ظهر فى المشهد فور توقيع اتفاقية الهدنة، أبو جندل بن سهيل. لقد دخل أبو جندل فى الإسلام، فحبسه سهيل فى بيت العائلة لمنعه من الهجرة إلى المدينة. نجح أبو جندل فى الهرب، وجاء إلى الحديبية يرسف فى قيوده ليلحق بالمسلمين:

قال ابن إسحاق: فبينا رسول الله (ﷺ) يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، قد انفلت إلى رسول الله (ﷺ)، وقد كان أصحاب رسول الله (ﷺ) خرجوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله (ﷺ)، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله (ﷺ) في نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون، فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتلبيبه، ثم قال: يا محمد، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت، فجعل ينتره بتلبيبه، ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟!، فزاد ذلك الناس إلى ما بهم. [السيرة النبوية: ص ٦٨٧][٢٨].

علق ابن إسحاق على ذلك بطريقة تقليدية تهون من المسألة قائلاً: «فزاد ذلك من غم الناس».

كان ذلك نهاية الصبر لدى عمر، فقد أسرع إلى النبي (ﷺ) غاضبًا: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل؟

- بلى.
- ففيم نعطي الدنية في ديننا؟ ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟.
- يا بن الخطاب، إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري ولن يضيعني أبدًا.
- أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟.
- بلى. أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟.
- لا.
- فإنك آتيه ومطوف به[٢٩].

همد عمر، ووافق على الهدنة على مضض وارتباك، ولكن استمر المسلمون على غضبهم، ومرت لحظات خطيرة بدا كما لو كانوا على وشك التمرد. أعلن محمد (ﷺ) أنه برغم أنهم لم يصلوا الكعبة، فعمرتهم تمت حيث هم في الحديبية، وعليهم أن يحلقوا رءوسهم وينحروا هديهم كما لو كانوا في مكة. جاءه رد المسلمين في

صمتهم التام، وحملقتهم فيه فى تجهم. رجع النبى (ﷺ) حزينًا إلى خيمته، ماذا يستطيع أن يفعل؟ وذكر لأم سلمة ما لقى من الناس. أشارت عليه بألا يكلم أحدًا، وإنما تنحر هديك، ثم تحلق رأسك، فاستمع لمشورتها وفعل ذلك، فاتبعه الناس، فنحروا وحلق بعضهم لبعض، حتى كادوا يقتلوا أنفسهم فى حميتهم.

بدأت رحلة عودة المعتمرين فى حالة نفسية أفضل، رغم بقايا الغضب، وبدا النبى نفسه مبتعدًا ومنشغلاً. وكان عمر خائفًا من أن تفسد مواجهته العنيفة للنبى (ﷺ) من صداقتهما بشكل لا يمكن إصلاحه، وتوقف قلبه وجلاً عندما استدعاه النبى (ﷺ)، ولكنه التقط أنفاسه عندما وجده متألقًا وكأنما أزيح عن كاهله حمل ثقيل، وأخبره محمد (ﷺ) بنزول سورة الفتح، أحب إليه مما طلعت عليه الشمس:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④﴾ [سورة الفتح: ١ ـ ٤][٣٠].

لقد أظهر المسلمون إيمانهم بشجاعتهم لمصاحبة النبى (ﷺ) لتلك العمرة الخطرة، وأظهروا إيمانهم وثقتهم بمحمد (ﷺ) ثانيًا فى بيعة الرضوان.

ميز انتصار الحديبية المسلمين عن قريش، التى أظهرت أنها ما زالت أسيرة تكبرها وغطرستها الجاهلية، والمقاومة المتصلبة لكل ما تراه يمس شرف تقاليدها وأسلوب حياتها. بل كانت قريش مستعدة لذبح المعتمرين المسالمين بدلاً من قبول «الإذلال» فى سماحها بدخولهم الكعبة:

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ㉖﴾ [سورة الفتح: ٢٦][٣١].

ليس المسلمون رجال حرب، ولكن رجال حلم، تدعوهم روحهم للسلم واللين وتحمل الأذى، يتحالفون بذلك مع اليهود والمسيحيين، أهل الكتاب.

وبدلاً من أن يتخذوا مواقف عدائية، كما فعلت قريش فى الحديبية، يتذلل المسلمون أمام الله فى صلاتهم:

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الفتح: ٢٩][٣٢].

لم يكن العنف أو حب الذات، بل روح الرحمة ومكارم الأخلاق والسكينة هى التى تجعل الأمة تنمو، كما فى الآية السابقة. لقد انتهت الحرب وحل زمان السلام المقدس.

فى الواقع، استمر الصراع، ولكن مثلت الحديبية علامة تحول. ظهر الصلح فى البداية غير مجز، ولكنه فتح أبوابًا جديدة للإسلام. قبل الصلح، لم يكن هناك من يستطيع أن يناقش الإسلام بطريقة عقلانية، بمعزل من مناخ الحروب وما تثيره من كراهية وأحقاد. ولكن الآن، بعد الهدنة، يتقابل الرجال فى سلام ويتحاورون ويتجادلون:

قال ابن إسحاق: فما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر. [السيرة النبوية: ص ٦٨٩][٣٣].

ويبدو أن سورة النصر نزلت فى ذلك الوقت:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [سورة الفتح: ١، ٣][٣٤].

لن يكون هناك احتفالات مغرورة بالنصر، ولا صيحات انتقام، وسيكون العهد الجديد معطراً بروح العفو والعرفان، واستغفار النفس المسلمة اللوامة.

حسنت الحديبية من وضع الإسلام فى الجزيرة العربية، ولكن مثلها مثل إنجازات أخرى، قدمت القليل لوضع محمد (ﷺ) فى المدينة. استمر إحساس المعتمرين - من الأنصار والمهاجرين - بأنهم قد خدعوا، واستمر استياؤهم. وتساءل المهاجرون: كيف يكتسبون أرزاقهم إذا توقفوا عن مهاجمة قوافل مكة التجارية؟(*). أدرك محمد (ﷺ) أن عليه ألا يترك ذلك يتفاقم، وليس بمقدوره مهاجمة قريش، فوجه المسلمين شمالاً إلى خيبر المقر الجديد لقبيلة النضير اليهودية والتى تمثل خطرًا عليهم، ويؤلب قادتها قبائل الشمال ضد المسلمين. وبعد عودة محمد (ﷺ) من الحديبية بقليل، وجه جيشًا من ستمائة مقاتل إلى خيبر، وابتهجت قريش بسماعها الخبر، لتيقنها من هزيمة المسلمين. كانت خيبر محاطة بالصخور البركانية مثل ا لمدينة، ويحميها سبعة حصون قوية، لذلك رآها الناس منيعة على المهاجرين. ولكن استطاع المسلمون الاستفادة من النزاع الداخلى الذى أذن بانهيار الروح القبلية فى خيبر، كما كان فى المدينة. كان لكل قبيلة فى خيبر حكم ذاتى، ووجدت القبائل أنه من المستحيل أن تتعاون بفعالية خلال الحصار، وزاد من مشكلتها أن قبيلة غطفان حليفتها لم تظهر لمساعدتها، وبعد مرور شهر، طلب كبار اليهود السلام، وأصبحت خيبر بمثابة مقطع(**)، أى تابع، للمدينة، ولضمان المعاهدة، أخذ محمد (ﷺ) ابنة عدوه القديم حيى بن أخطب زوجة له. سعدت صفية الجميلة ذات السبعة عشر عامًا بدخول الإسلام، وأعطى محمد (ﷺ) أوامر صارمة بألا يتناول أحد أباها بشىء سيئ، وكان أبوها مات أثناء الحصار. وأخبر محمد (ﷺ) صفية بأنه إذا سخرت إحدى زوجاته من أصلها اليهودى، تجيبها قائلة «هارون أبى وموسى عمى».

> قال ابن سعد: استبت عائشة وصفية فقال رسول الله لصفية: «ألا قلت أبى هارون وعمي موسى؟» وذلك أن عائشة فخرت عليها. [الطبقات: ١٠/ ١٢٣](٣٥).

مثل ذلك الزواج أسلوب التصالح والعفو الذى كان يريد محمد (ﷺ) له أن يعم، فقد حان الوقت للتخلى عن كراهية وإسالة دماء العهد الماضى.

سعد محمد (ﷺ) عند عودته بالتئام شمل عائلته وعائلات المسلمين، فقد أرسل بعد صلح الحديبية إلى المهاجرين للحبشة بالسلام الجديد بينه وبين قريش، فهاجروا

(*) لم نجد أى أثر لهذا التساؤل فى المراجع المعتمدة.

(**) استخدمت الكاتبة كلمة «Vassals» والتى تعنى أرضًا يقطعها ذو الشأن لشخص أو لمجموعة فى مقابل ولائهم وقتالهم أعداءه، وشطر من إنتاجهم، وكان ذلك النظام سائدًا فى أوروبا حتى العصر الحديث.

هجرتهم الثانية إلى المدينة، وهناك لقى ابن عمه جعفر بن أبى طالب بعد غياب ثلاثة عشر عامًا. ومبكرًا فى تلك السنة نفسها، تزوج محمد (ﷺ) من رملة - المعروفة بكنيتها: أم حبيبة - التى مات زوجها فى الحبشة، وكان قد طلب من نجاشى الحبشة عقد ذلك الزواج بالوكالة عنه. كان ذلك عملاً سياسيًا، ذكيًا من محمد (ﷺ)، فأم حبيبة هى ابنة أبى سفيان.

مضى بقية العام فى هجمات تقليدية، بعضها كان استجابة لحلفاء محمد (ﷺ) اليهود الجدد فى الشمال [خيبر]. وفى عام (٧ هـ/ ٦٢٩م)، حان وقت العمرة المتفق عليها، فخرج محمد (ﷺ) ومعه ٢٦٠٠ معتمر، وعندما قاربوا الحرم، خرجت قريش من مكة طبقًا للاتفاق، وبقى كبارها يشاهدون دخول محمد (ﷺ) ومن معه مكة وهم يلبون بأصوات عالية: لبيك اللهم لبيك، والتى ترددت أصداؤها فى طرقات مكة الخالية، كما لو كانت تقريعًا قاسيًا لأهلها، ولا بد أن أهلها تأثروا بانضباط المسلمين، الذين لم تبدر منهم فلتات ابتهاج أو احتفال زائدة، ولا سخرية من قريش. تدفق المسلمون بعددهم الكبير فى صمت ووقار، يتقدمهم محمد (ﷺ) على ناقته القصواء، وعندما وصل الكعبة نزل عنها وقبل الحجر الأسود، ثم بدأ طوافه مع المسلمين كجسد واحد. لقد كان ذلك عودًا غريبًا لديارهم، وفاضت مشاعر المهاجرين بعودتهم، ولكنهم لم يتركوا لها العنان، رغم خلو مكة وكأنها مدينة أشباح.

من حول مكة، راقبت قريش - مرتاعة - العبد الأسود بلال يرتقى سطح الكعبة، ويدعو المسلمين بصوته الجهورى للصلاة، لتتردد أصداؤه وهو يؤذن: الله أكبر الله أكبر، أى إن الله أكبر من كل الأصنام التى بالكعبة، والتى لا تستطيع أن تفعل شيئًا لمنع ذلك الإذلال. لقد كان ذلك انتصارًا ظاهرًا لمحمد (ﷺ)، وأصبح كثير من شباب قريش أكثر اقتناعًا بأن الديانة القديمة فى احتضار.

وفى آخر ليلة لمحمد (ﷺ) فى مكة، استمتع بزيارة عمه العباس - الذى كان ما زال على الديانة القديمة - وخطب له ميمونة أخت زوجته أم الفضل، والتى ترملت مؤخرًا، ووافق محمد (ﷺ) آملاً فى أن يغرى ذلك العباس للدخول فى الإسلام، وأرسل - فى نوع من المجاملة الشغوب - دعوة لقريش لحضور ذلك الزفاف، لكن جاء سهيل ليخبر محمدًا (ﷺ) بأن الأيام الثلاثة المنصوص عليها فى الاتفاق قد انقضت، وأن عليه مغادرة مكة ومن معه. غضب سعد بن عبادة، زعيم الخزرج من

كلمات سهيل للنبى (ﷺ)، ولكن النبى (ﷺ) أسكته سريعًا قائلاً «لا عليك يا سعد، ولا يمكننا الإساءة لمن يأتى إلينا فى معسكرنا»[٣٦].

ولدهشة قريش، خرجت جموع المسلمين من مكة تلك الليلة فى نظام تام. لم تصدر احتجاجات ولا حتى محاولات لإعادة امتلاك ديارهم التى استولت عليها قريش. لقد أبدى المسلمون بانسحابهم السلمى ثقتهم فى عودتهم السريعة.

انتشرت أنباء العمرة فى الجزيرة العربية، وتزايد عدد البدو الذين يأتون المدينة للتحالف مع محمد (ﷺ)، بل أهم من ذلك، بدأ تيار مستمر من شباب قريش يتحول إلى الإسلام.

وعد محمد (ﷺ) فى الحديبية أن يعيد لقريش المتحولين الجدد إلى الإسلام اللاجئين إليه فى المدينة، ولكنه استطاع أن يجد ثغرات فى المعاهدة. أولاً، نصت المعاهدة على الرجال ولم تذكر النساء، ولذلك لم يعد محمد (ﷺ) أخت عثمان غير الشقيقة عندما جاءت مسلمة إلى المدينة، ولكنه أعاد إلى مكة أبا بصير، الشاب المندفع، مع مبعوثى قريش. وفى طريق العودة، قتل أبو بصير أحد المبعوثين، بينما فر الآخر إلى المدينة مذعورًا، وعندما لجأ أبو بصير إلى المدينة، سمع محمدًا (ﷺ) يقول عنه «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد»، فعلم أنه سيسلمه ثانيًا إلى قريش، ففر ثانيًا، وأقام فى مكمن حرب على ساحل البحر الأحمر يُسمى سيف البحر، قريب من طريق القوافل المكية، وهناك لحق به المسلمون الساخطون الفارون من مكة، ومن ضمنهم أبو جندل بن سهيل، فقطعوا الطريق على قوافل مكة، فكأنما عاد الحصار الاقتصادى يمسك برقبة قريش مرة أخرى. وفى النهاية، توسلت قريش لمحمد (ﷺ) بأن يسمح لأولئك الشباب باللجوء إلى المدينة، ويلتزموا بالمعاهدة. بذلك انعدمت فعالية بند إرجاع المسلمين الجدد لمكة.

وفى عام (٨ هـ/ ٦٢٩م)، وصل إلى المدينة مجموعة أخرى من مسلمى مكة الجدد، بينهم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد. قال خالد: «لقد اتضحت المسألة، فالرجل بلا شك نبى».

> قال ابن إسحاق: قال خالد بن الوليد: «والله استقام المنسم، وإن الرجل لنبى، أذهب والله فأسلم، فحتى متى!». [السيرة النبوية: ص ٦٦٢][٣٧].

كان خالد خائفًا من الانتقام منه، فقد قتل هو وعمرو كثيرًا من المسلمين فى أحد، ولكن طمأنهما محمد (ﷺ) بأن الإسلام يَجُبّ ما قبله، ولهما الآن بداية جديدة تمامًا.

فى عام النصر السياسى ذلك، كان لمحمد (ﷺ) فرحته الخاصة. فقد أهدى له المقوقس حاكم الإسكندرية جارية مصرية مسيحية جميلة اسمها مارية. لم ترد الجارية الدخول فى الإسلام، فظلت سرية لمحمد (ﷺ)، أى أمة، ولكن إذا أنجبت يصبح وليدها حرًا. أصبح محمد (ﷺ) مغرمًا بها، وطغى عليه الفرح عندما أصبحت حاملاً فى نهاية عام (٧هـ/ ٦٢٩م). وسمى محمد (ﷺ) الوليد إبراهيم، وكان يحب أن يحمله فى طرقات المدينة، ويريد من المارة أن يروا جماله وشبهه به. ولكن جاء الحزن مع الفرح. فقد ماتت زينب بنت محمد (ﷺ) الكبرى بعد أداء العمرة بوقت قصير، ثم خسر اثنين من أحبائه من عائلته فى معركة مؤتة على حدود الشام: جعفرًا وزيدًا. نحن نعرف القليل عن تلك الحملة سيئة المصير. ربما أراد محمد (ﷺ) أن يضم القبائل العربية المسيحية كحلفاء للأمة الإسلامية كما فعل مع يهود خيبر(*)، فبعث فى عام ٨هـ جيشًا من ثلاثة آلاف رجل، وهاجمتهم كتيبة من الجيش البيزنطى(**) فى قرية مؤتة القريبة من البحر الميت. تولى قيادة الجيش زيد بن حارثة حتى قتل، ثم أخذها جعفر بن أبى طالب حتى قتل، وتلاهما عبد الله بن رواحة، حتى قتل أيضًا، وفى النهاية أخذها خالد بن الوليد، والذى ناور للعودة بالجيش إلى المدينة.

وعندما علم محمد (ﷺ) بالخبر، ذهب فورًا إلى بيت جعفر مذهولاً من أنه أرسل ابن عمه الحبيب لمقتله. كانت أسماء زوجة جعفر تخبز، وما إن رأت تعبيرات وجه محمد (ﷺ) الحزين حتى أدركت حدوث أمر جلل. سألها محمد (ﷺ) أن يرى ابنيها، فركع على ركبتيه واحتضنهما وهو يبكى. فور ذلك بدأت أسماء تنوح زوجها على الطريقة العربية، وأسرعت النساء لمواساتها، وطلب محمد (ﷺ) منهن

(*) كما جاء سابقًا، كانت غسان تعد العدة ومعها قوات الإمبراطورية البيزنطية لغزو المدينة.
(**) جاء فى سيرة ابن إسحاق أن عدد قوات البيزنطيين ومن حالفهم من قبائل الشمال مائة ألف مقاتل.

أن يحضرن لها طعامًا يكفيها للأيام القليلة التالية. ولما خرج محمد (ﷺ) عائدًا فى طرقات المدينة، جرت إليه ابنة زيد وألقت بنفسها بين ذراعيه، فاحتضنها وهو يبكى فى الطريق.

أساءت هزيمة مؤتة لوضع محمد (ﷺ) فى المدينة، وعندما عاد الجيش، استقبله أهلها بصيحات الاستهجان والازدراء، واضطر محمد (ﷺ) لفرض حمايته الشخصية على خالد. ولكن فى (جمادى الأولى ٨ هـ / نوفمبر ٦٢٩م)، تغير الموقف فى بلاد العرب بشكل هائل، فقد نقضت قريش المعاهدة بمساعدتها لحليفتها بنى بكر فى الهجوم على خزاعة حليفة المسلمين. طلبت خزاعة من محمد (ﷺ) النصرة على قريش، والتى أدركت أنها أعطت محمدًا (ﷺ) الحجة لغزو مكة.

ظل صفوان وعكرمة على تحديهما للمسلمين، ولكن بدأ سهيل يراجع نفسه، أما أبو سفيان، فقد ذهب أبعد من ذلك، ذهب إلى محمد (ﷺ) فى المدينة فى مبادرة سلام. لم تكن لأبى سفيان فى ذلك الوقت رغبة فى الدخول فى الإسلام، ولكنه أدرك منذ فترة أن المد أصبح فى صالح محمد (ﷺ)، وأن على قريش أن تفاوض لتحصل على أفضل اتفاقية ممكنة معه.

فى المدينة، زار أبو سفيان ابنته أم حبيبة، وقابل أصحاب محمد (ﷺ)، محاولاً إبعاد نفسه عن المواجهة المرتقبة بين المسلمين وأهل مكة. وعندما عاد إلى مكة، حاول تهيئة الناس لقبول الأمر المحتوم. وبعد رحيله عن المدينة، بدأ محمد (ﷺ) فى التخطيط لحملة جديدة.

وفى (رمضان ٨هـ/ يناير ٦٣٠م)، خرج محمد (ﷺ) من المدينة على رأس أكبر جيش فى تاريخ المسلمين، تطوع فيه تقريبًا كل رجال المسلمين، وانضم إليهم فى الطريق حلفاؤهم من البدو، حتى بلغ عدد المقاتلين عشرة آلاف. لم يفصح محمد (ﷺ) عن وجهته، ولكن بالطبع هناك من استطاع الإصابة فى تخمين المقصد. كانت مكة هدفًا محتملاً، ولكن كانت الطائف أيضًا، والتى ما زالت معادية للمسلمين، ولذلك بدأت هوازن فى جمع جيش هائل.

وفى مكة، خشى كبارها من غزوة استئصال لهم عندما علموا باقتراب جيش المسلمين. سارع كل من العباس وأبى سفيان وبديل، رئيس خزاعة، بالذهاب إلى معسكر المسلمين القريب من مكة تحت جنح الظلام، ليقابلوا محمداً (ﷺ). قابلهم محمد (ﷺ) وسأل أبا سفيان إن كان مستعداً للدخول فى الإسلام، فأجابه بأنه أصبح لا يعتقد فى الأوثان، ولكن لا يعتقد بعد فى نبوته! ولكن ذُهل أبو سفيان من مرأى أعداد المسلمين فى صلاة الفجر، ثم تحركهم بعد ذلك صوب مكة. أسرع أبو سفيان عائداً إلى مكة، وهناك جمع الناس قائلاً فيهم:

ـ يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

ـ فقامت زوجته هند بنت عتبة صارخة فى وجهه وآخذة بشاربه:

ـ اقتلوا الحميت [وعاء السمن] الدسم الأحمس الساقين، قبح من طليعة قوم!

ـ فرد أبو سفيان:

ـ ويلكم، لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به.

وصف أبو سفيان ما رآه فى معسكر المسلمين، وأدرك أن زمن التحدى قد ولى، وأثر تجهمه وجديته على معظم قريش، فتصرفت بمنتهى العملية، ولزمت بيوتها كعلامة على الاستسلام.

أرادت قلة من قريش القتال، فجمع عكرمة وصفوان وسهيل قوة صغيرة حاولت الهجوم على جناح خالد بن الوليد من الجيش الفاتح، ولكن سرعان ما انهزموا، وفر كل من صفوان وعكرمة خوفًا على حياتهما، أما سهيل، فقد ألقى سلاحه ودخل بيته. دخل بقية الجيش الإسلامى مكة دون مقاومة، ونصب محمد (ﷺ) خيمته الحمراء قريبًا من الكعبة، واجتمعت فيها أم سلمة وميمونة اللتان اصطحبتاه، وعلى وفاطمة. وبعد قليل جاءت أم هانئ أخت على تطلب العفو عن اثنين من أنسبائها اللذين اشتركا فى القتال. وبرغم أن كلاً من على وفاطمة أراد قتلهما، فقد أعطاها محمد (ﷺ) الأمان فوراً قائلاً: «لقد أجرنا من أجرت».

لم يجبر محمد (ﷺ) أحداً على اعتناق الإسلام، ولم يجعل أى أحد يحس بأى ضغط ليدخل الإسلام، فما زال الصلح هو هدفه .

نام محمد (ﷺ) قليلاً، ثم نهض لصلاة الفجر، ثم ركب ناقته القصواء ليطوف بالكعبة مكبراً، ومن معه من المسلمين، وترددت أصداؤهم فى مكة معلنة الانتصار النهائى للإسلام.

ثم أسقط أصنام الكعبة بدفعها بقوسه، وهو يردد:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

[سورالإسراء: ٨١][٣٨].

وداخل الكعبة، كانت صور الآلهة على جدرانها، فأمر بمحوها، ويقال إنه سمح ببقاء صورتى المسيح وأمه مريم (عليهما السلام)(*).

عند ذلك، كان بعض القرشيين قد خرجوا من بيوتهم وجاءوا يرون ماذا يفعل محمد (ﷺ)، فخطبهم داعياً:

قال ابن إسحاق: إن رسول الله (ﷺ) قام على باب الكعبة فقال: « يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب». [السيرة النبوية: ص ٧٤٤][٣٩].

ثم تلا عليهم كلمات الله للبشرية جمعاء:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣][٤٠].

ـ ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل بكم؟

ـ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم.

ـ قال: فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

(*) لم نجد لهذا القول أثراً فى المراجع العربية.

لم يعد الكريم الحقيقى هو المغالى فى حب القبيلة لدرجة العدوانية على الآخرين، ولكنه ذلك الذى يملأ قلبه بتقوى الله ومخافته. لم يعد غرض القبيلة أو الأمة أن تستعلى على الآخرين، وليس عليها أن تسعى للتسيد على الآخر أو استغلاله أو غزوه أو تدميره، أو حتى إجباره على أن يصير نسخة من أعضائها، بل عليها أن تتعرف على ذلك الآخر، بما يعنى تفهم اختلافه. يجب أن تؤدى تجربة الحياة فى مجموعة ـ لا مفر من الاختلاف بين أفرادها ـ إلى أن يتقبل رجل القبيلة، أو المواطن بصفة عامة، معايشة الآخر. يجب أن تقود إلى تفهم وحدة الجنس البشرى. استطاع محمد (ﷺ) أن يغير تعريف النبل فى بلاد العرب، بأن جعله أكثر عالمية، وعاطفة، ونزع منه الأنانية.

ولكن هل كانت قريش مستعدة لذلك؟ أصدر محمد (ﷺ) عفواً عامًا، وفقط وضع حوالى عشرة أشخاص فى القائمة السوداء، التى شملت عكرمة (ورفع منها صفوان لأسباب معينة)، وأولئك الذين أثاروا الدعاية وألبوا ضد المسلمين، أو اعتدوا على زينب بنت النبى (ﷺ). سأل بعض أولئك الأوغاد العفو، ويبدو أنهم حصلوا عليه.

ذهب محمد (ﷺ) إلى الصفا بعد خطبته فى الكعبة، ودعا الناس للبيعة، فجاءته قريش فردًا فردًا، وهو جالس بين عمر وأبى بكر. وجاءت [متنقبة] من ضمن النساء هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان، والتى كانت فى القائمة السوداء لتمثيلها بجثة حمزة بعد معركة أحد، وقالت فى نغمة أشبه بالتحدى من الاعتذار:

ـ اعف عما سلف يا نبى الله، عفا الله عنك.

ـ سألها محمد (ﷺ) كما سأل بقية النساء:

ـ لا تشركن بالله شيئًا، ولا تسرقن ولا تزنين.

ـ أو تزنى الحرة؟

ـ ولا يقتلن أولادهن.

ـ ربيناهن صغاراً وقتلتموهم كباراً [يوم بدر].

فعرفها النبى (ﷺ).

قال الطبرى: ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله (ﷺ) على الإسلام، فجلس لهم - فيما بلغنى - على الصفا وعمر بن الخطاب تحت رسول الله أسفل من مجلسه يأخذ على الناس. فبايع رسول الله (ﷺ) على السمع والطاعة لله ولرسوله - فيما استطاعوا - وكذلك كانت بيعته لمن بايع رسول الله (ﷺ) من الناس على الإسلام. فلما فرغ رسول الله (ﷺ) من بيعة الرجال بايع النساء، واجتمع إليه نساء من نساء قريش، فيهن هند بنت عتبة، متنقبة متنكرة لحدثها وما كان من صنيعها بحمزة، فهى تخاف أن يأخذها رسول الله (ﷺ) بحدثها ذلك، فلما دنون منه ليبايعنه، قال: رسول الله (ﷺ) فيما بلغنى: «تبايعننى على ألا تشركن بالله شيئًا»، فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمرًا ماتأخذه على الرجال وسنؤتيكه، قال: «ولاتسرقن»، قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة والهنة، وما أدرى أكان ذلك حلال أم لا؟ فقال أبو سفيان - وكان شاهدًا لما تقول: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل، فقال رسول الله (ﷺ): «وإنك لهند بنت عتبة» فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف عفا الله عنك! قال: «ولا تزنين»، قالت: يا رسول الله، هل تزنى الحرة! قال: «ولاتقتلن أولادكن»، قالت: قد ربيناهم صغارًا، وقتلتهم يوم بدر كبارًا فأنت وهم أعلم! فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب. [تاريخ الطبرى: ٣/ ٦٢، ٦٣][٤١].

لقد أسلمت هند وحقنت دماءها رغم ما فعلت، وأطلقها النبى (ﷺ) حرة، بل عملت هند بعد ذلك على أن يحوز زوجها وأولادها تكليفات هامة فى الأمة الإسلامية.

توسل أقرباء صفوان وعكرمة لإنقاذ حياتهما، ووعد محمد (ﷺ) بأنهما إذا قبلا قيادته، فيمكنهما الرجوع إلى مكة فى حرية. قبل الاثنان، ورجعا، وسبق عكرمة بالدخول فى الإسلام، وحياه محمد (ﷺ) بحنان، ومنع المسلمين من ذكر أبيه (أبى جهل) بأى سوء. وأعطى صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو بيعتهما لطاعة محمد (ﷺ)، ولكن لم يستطيعا الاعتراف به كنبى، ولكن لم تمر إلا أيام قليلة حتى نطقا بالشهادة.

بعد أن قام محمد (ﷺ) بتأمين مكة، كان عليه أن يتعامل مع هوازن وثقيف، اللتين جمعتا جيشًا من عشرين ألف رجل فى الطائف القريبة من مكة. استطاع محمد (ﷺ) أن يهزمهما فى موقعة حنين فى نهاية شوال ٨هـ/ يناير ٦٣٠م، ثم حالفت هوازن محمداً (ﷺ). لم يستطع المسلمون الاستيلاء على الطائف، ولكن أصبحت المدينة معزولة تمامًا بفقدانها حليفها الرئيسى، قبيلة هوازن، مما جعلها تستسلم من نفسها بعد عام واحد.

عندما قسم محمد (ﷺ) غنائم انتصاره فى حنين، أعطى أبا سفيان، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، نصيب الأسد. جاشت عواطف صفوان حتى استسلم على الفور قائلاً: أشهد أنه لا يعطى مثل هذا العطاء إلا نبى، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.[٤٢]. وتلاه سهيل بالقول نفسه.

انزعج بعض الأنصار من تفضيل محمد (ﷺ) لقريش عليهم. هل يتخلى عنهم محمد (ﷺ) الآن بعد إسلام قومه؟

طمأن محمد (ﷺ) الأنصار بخطبة حركت مشاعرهم حتى بكى أكثرهم، فهو لن ينسى أنه أتاهم مكذبًا فصدقوه، ومخذولاً فنصروه، وطريداً فآووه، وعائلاً فآسوه:

> قال ابن إسحاق: أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار. [السيرة النبوية: ص ٨٠٣][٤٣].

لقد كان انتصاراً غريبًا، وقد يتعجب أى مراقب محايد متسائلاً: لماذا تقاتل المسلمون وقريش من بادئ الأمر؟[٤٤].

حفظ محمد (ﷺ) وعده، وعاد إلى المدينة مع المهاجرين والأنصار، لم يحاول أن يحكم مكة بنفسه، ولا أن يستبدل أصحابه بزعمائها، ولم يؤسس فيها نظامًا إسلاميًا خالصًا. احتفظ كبراء مكة السابقون بأوضاعهم فى الحرم، كذلك استمر

مجلس تشاورها، والحالة كما كانت عليها. لم يعد تثبيت أعدى أعدائه فقط، بل رفع من أوضاعهم وأمطرهم بالهدايا.

عندما كان محمد (ﷺ) بصدد توزيع أمجد وظائف الحج، وهى السقاية والحجابة [طلب العباس ـ وفى رواية على ـ أن يجمع لبنى هاشم الحجابة مع السقاية] قال محمد (ﷺ) لمن كانت بيده الحجابة:

> قال الواقدى: ثم نزل رسول الله (ﷺ) ومعه المفتاح، فتنحى ناحية المسجد فجلس، وكان رسول الله (ﷺ) قد قبض السقاية من العباس وقبض المفتاح من عثمان، فلما جلس قال: ادعوا إلى عثمان! فدعى له عثمان بن أبى طلحة، وكان رسول الله (ﷺ) قال لعثمان يومًا، وهو يدعوه إلى الإسلام، ومع عثمان المفتاح، فقال: لعلك سترى هذا المفتاح بيدى أضعه حيث شئت! فقال عثمان: لقد هلكت إذًا قريش وذلت. فقال رسول الله (ﷺ): بل عمرت وعزت يومئذ. فلما دعانى بعد أخذه المفتاح ذكرت قوله ما كان قال، فأقبلت فاستقبلته ببشر واستقبلنى ببشر، ثم قال: خذوها يا بنى أبى طلحة تالدة، لا ينزعها إلا ظالم. [مغازى الواقدى: ٢/ ٨٣٧، ٨٣٨][٤٥].

تقريبًا، تم إنجاز عمل محمد (ﷺ)، وبعد عودته إلى المدينة، استمر معسكر ابن أبى فى المعارضة، وتكررت محاولة اغتيال محمد (ﷺ)، الذى حاول ردع أعدائه بإرسال حملات مرعبة أكثر للشمال. وفى ٩هـ/ أكتوبر ٦٣١م، أدرك أنه أصبح بالمدينة مسجد ضرار، فأمر بتدميره، وفى الصباح التالى، أجرى تحقيقًا عن أفعال من أراد اغتياله، فأسرعوا بالاعتذار له، حيث أظهر معظمهم أعذارًا مقبولة وتم العفو عنهم، برغم أن الأمة قاطعتهم لما يقرب من شهرين، ويبدو أن ذلك أنهى المعارضة المسلمة [معارضة المنافقين]. وتوفي ابن أبى بعد ذلك بقليل، ووقف محمد (ﷺ) على قبر عدوه القديم فى لفتة احترام.

لقد نجح أخيراً فى إقامة مجتمع حيوى متحد فى المدينة، وأصبح عدد البدو الذين يقبلون بسيادته السياسية يتزايد، برغم أنهم لم يعتنقوا الإسلام. فى عشر سنوات فقط من الهجرة، غير محمد (ﷺ) الخريطة السياسية والروحية فى بلاد العرب، إلى غير رجعة.

ولكنه أصبح فى ضعف جسدى متزايد، ومع بداية عام (١٠هـ/ ٦٣٢م)، تزايد إحساسه بدنو أجله. ولقد أكربه موت صغيره إبراهيم، وبكى عليه بمرارة، رغم تيقنه بأنه سيلحق به سريعًا فى الفردوس. وعندما اقترب الحج، أعلن أنه سيقود الحجاج، وأخذ معه زوجاته كلهن، وعددًا هائلاً من الحجاج، ليصلوا مكة فى (٢٥ ذى القعدة ١٠هـ/ أوائل مارس ٦٣٢م)، وقاد المسلمين فى أداء طقوس الحج المحببة لقلوب العرب، معطيًا إياها أهمية جديدة. فبدلاً من تجمع كل قبيلة حول إلهها، تجمع المسلمون حول الكعبة التى بناها جداهم إبراهيم وإسماعيل (عليهما الصلاة والسلام)، وعندما سعوا بين الصفا والمروة، كانوا يقلدون سعى هاجر المحموم بحثًا عن الماء لوليدها إسماعيل (ﷺ) بعد أن تركهما إبراهيم (ﷺ) فى الصحراء، وأنقذهما الله بنبع المياه من أعماق الأرض فى زمزم. بعد ذلك، يقف الحجاج فى عرفة، حيث يقال إن الله عهد ميثاقًا مع آدم أبى البشر، ليتوحد الحجاج مع بقية البشر أبناء آدم، ثم يرمى الحجاج الجمرات الثلاث فى منى، تذكيراً لهم بجهادهم المستمر ضد إغراءات الحياة الدنيا. وأخيرًا، يضحى الحاج بكبش، تقليدًا لتضحية إبراهيم (ﷺ)، بعد أن فدى الله ابنه به.

يقع مسجد نمرة قريبًا من جبل عرفة، فى الموقع الذى ألقى فيه محمد (ﷺ) خطبة الوداع. ذكرهم بأن يقيموا العدل بينهم، ويحسنوا معاملة النساء، ويتخلوا عن عداوات وحمية الجاهلية. يجب ألا يقاتل المسلمون بعضهم البعض فهم إخوة، ولا يغتصب بعضهم حق البعض. عرف محمد (ﷺ) أنه برغم تكراره التذكير، لم يستوعب كل المسلمين رؤيته. هل ذهب مجهوده هباء؟ سأل محمد (ﷺ) المسلمين بصوت عالٍ: ألا هل بلغت؟

فأجابة المسلمون بإجماع هادر: اللهم نعم.

وكرر سؤاله، وكرروا الإجابة بصوت راعد: اللهم نعم، فرفع سبابته إلى السماء قائلاً: اللهم فاشهد:

> قال ابن إسحاق: قال رسول الله (ﷺ) فى خطبة الوداع: «أيها الناس، اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن

أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعًا في بني ليث فقتله هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية. أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، أيها الناس: إن النسيء زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب مضر، الذى بين جمادى وشعبان. أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقًا، ولهن عليكم حقًا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولى، فإنى قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، أمرًا بينا، كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس، اسمعوا قولى واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟ قالوا: اللهم نعم؛ فقال رسول الله (ﷺ): اللهم أشهد. [السيرة النبوية: ص ٨٦٨][٤٦].

عاد محمد (ﷺ) بعد حجة الوداع إلى المدينة، وبدأ الصداع والإغماء يعاودانه ويقعدانه عن نشاطه السابق، ولكن لم يخلد تمامًا لفراشه. كان عادة ما يشد على رأسه قطعة قماش لتخفف الصداع، ويذهب للمسجد ليؤم المصلين، ويخاطب الناس. وفى

أحد الأيام، صلى على شهداء أحد، ثم قال: «إن الله خير عبده بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة». يبدو أن الوحيد الذى فهم مغزى ذلك كان أبا بكر، فبكى، وطيب محمد (ﷺ) خاطره برقة قائلاً «هون عليك يا أبا بكر»:

> قال ابن إسحاق: حدثنى أيوب بن بشير أن رسول الله ﷺ خرج عاصبًا رأسه حتى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم، فأكثر الصلاة عليهم ثم قال: «إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله». قال: ففهمها أبو بكر، وعرف أن نفسه يريد، فبكى وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا. فقال: «على رسلك يا أبا بكر». [السيرة النبوية: ص ٨٩٤][٤٧].

انهارت صحة محمد (ﷺ) فى النهاية، وكان فى حجرة ميمونة، فتجمعت عليه زوجاته فى حب، ولاحظن أنه يداوم السؤال «أين أنا غداً؟» ففهمن أنه يتطلع ليوم عائشة، فاتفقن على أن يبقى هناك. رقد محمد (ﷺ) ساكنًا عند عائشة، وظن الناس أن به وعكة طارئة، ورغم أن أبا بكر كرر عليهم أن النبى (ﷺ) لم يعد ليعيش فى هذا العالم، فقد أنكروا ذلك. وعندما اشتد عليه المرض حتى لم يعد قادراً على الذهاب للمسجد، سأل أبا بكر أن يصلى بالناس، وكان فى بعض الأحيان يستطيع الخروج ليصلى جالسًا بجوار أبى بكر، ولكن دون أن تكون لديه قوة الجهر بقراءته.

وفى (١٢ ربيع ١١هـ/ ٨ يونيه ٦٣٢م)، أحس أبو بكر فى الصلاة أن الناس خلفه منفعلين، وأدرك على الفور دخول محمد (ﷺ) المسجد. كان يبدو أفضل، بل قال البعض إنهم لم يروه من قبل فى مثل هذا البهاء والجمال والنورانية، حتى سرت موجة من الفرح والطمأنينة فى المسلمين. أراد أبو بكر على الفور أن يترك الإمامة لمحمد (ﷺ)، ولكن ربت محمد (ﷺ) على كتفيه برقة ليبقى مكانه، وصلى بجواره جالسًا. عاد محمد (ﷺ) بعد الصلاة لحجرة عائشة، وبدا أن حالته تحسنت حتى أن أبا بكر استأذنه فى الرجوع إلى زوجته فى الجهة الأخرى من المدينة (السنح). وأذاع على والعباس النبأ الطيب بأن النبى (ﷺ) قد برئ من مرضه، ولكن فى المساء، أحست عائشة بجسده يثقل عليها، وأنه يفقد الوعى، ولكنها لم تدرك ماذا كان يحدث، حتى أنها قالت فيما بعد: «لقد كان يحتضر ولم أكن أعلم»، وسمعته يتمتم بكلمات «الرفيق الأعلى»، فقد جاء ملك الموت ليأخذ روحه لبارئها. نظرت إليه

عائشة، فوجدته قد رحل، فوضعت رأسه برفق على الوسادة، وبدأت فى العويل واللطم على وجهها بالطريقة التقليدية:

> قال ابن إسحاق: قالت عائشة رجع إلىّ رسول الله فى ذلك اليوم حين دخل من المسجد، فاضطجع فى حجرى، فدخل على رجل من آل أبى بكر، وفى يده سواك أخضر. قالت: فنظر رسول الله (ﷺ) إليه فى يده نظراً عرفت أنه يريده، قالت: فقلت: يا رسول الله، أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال: «نعم» قالت: فأخذته فمضغته له حتى لينته، ثم أعطيته إياه، قالت: فاستن به كأشد ما رأيته يستن بسواك قط، ثم وضعه، ووجدت رسول الله (ﷺ) يثقل فى حجرى، فذهبت أنظر فى وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى فى الجنة»، قالت: فقلت: خيرت فاخترت، والذى بعثك بالحق. قالت: وقبض رسول الله (ﷺ). [السيرة النبوية: ص ٨٩٧][٤٨].

عندما سمع الناس ندب عائشة، أسرعوا منقبضين إلى المسجد وحجرة عائشة، وذاع الخبر سريعًا حتى هرع أبو بكر عائدًا، فنظر إلى وجه محمد (ﷺ) وقبله، ثم بكى وقال: ما أطيبك حيًا وميتًا، بأبى أنت وأمى، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التى كتبت عليك فقد متها.

وفى المسجد، وجد أبو بكر عمر يخاطب الناس بانفعال وعصبية زائدين، مؤكدًا أن محمدًا (ﷺ) لم يمت، وإنما فارقت روحه جسده مؤقتًا وستعود، وأنه سيكون آخرهم موتًا، فقال له أبو بكر: على رسلك يا عمر! ولكن عمر استمر فى انفعاله، فتقدمه أبو بكر فى رباطة جأش وهدوء ليخاطب الناس، الذين تجمعوا حوله.

ذكر أبو بكر المسلمين أن محمدًا (ﷺ) قضى عمره فى نشر التوحيد وتعليمه للناس، فكيف يتخيلون أنه خالد فى الحياة الدنيا؟ فهذا يساوى القول بأنه إله آخر. لقد داوم محمد (ﷺ) على تحذير المسلمين من تقديسه كما قدس المسيحيون عيسى (ﷺ). لم يكن محمد (ﷺ) إلا بشراً مثلهم.

إن رفض قبول وفاة محمد (ﷺ) يضاهى رفض قبول رسالته، ولكن طالما عبد المسلمون الله بإخلاص، فسيذكرون محمداً (ﷺ) فى عقولهم، وقال: من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حى لا يموت. ثم تلا عليهم

الآيات التى أنزلت بعد أحد حينما صدمت الإشاعة الكاذبة بموت محمد (ﷺ) كثيراً من المسلمين :

قال ابن إسحاق : «قام عمر بن الخطاب فقال : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله (ﷺ) قد توفى ، وإن رسول الله (ﷺ) ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل مات ، ووالله ليرجعن رسول الله (ﷺ) كما رجع موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله (ﷺ) مات .

قال : وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل على رسول الله (ﷺ) فى بيت عائشة ، ورسول الله (ﷺ) مسجى فى ناحية البيت ، عليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله (ﷺ) . قال : ثم أقبل عليه فقبله ، ثم قال : بأبى أنت وأمى ، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً . قال : ثم رد البرد على وجه رسول الله (ﷺ) ، ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك يا عمر ، أنصت ، فأبى إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبوبكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ؛ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . قال : ثم تلا هذه الآية : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [سورة آل عمران : ١٤٤] ، [السيرة النبوية : ص٨٩٧ ، ٨٩٨](٤٩)(٥٠) .

صدم كلام أبى بكر المسلمين ، بما فيهم عمر :

قال ابن إسحاق : قال عمر : فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، قال : أخذها الناس عن أبى بكر ، فإنما هى فى أفواههم ، قال : وقال : أبوهريرة : قال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله (ﷺ) قد مات . [السيرة النبوية : ص ٨٩٨](٥١) .

كان محمد (ﷺ) مثيراً للجدل فى موته كما كان مثيراً للجدل فى حياته. عدد قليل جدّاً من أتباعه استوعبوا نبوته استيعاباً كاملاً. فقد ظهر التصدع فى الأمة فى الحديبية، عندما توقع أكثر المعتمرين معجزة من نوع ما تجعلهم يتمون عمرتهم. ودخل الناس الإسلام لأسباب مختلفة، كثير منهم سعوا وراء العدالة الاجتماعية، ولكن لم يسع الكثير وراء مثاليات اجتناب العنف، والمصالحة. كان للثوار الذين اتبعوا أبا بصير فى قطع الطريق على قوافل مكة، أهداف مختلفة عن أهداف محمد (ﷺ)، وكان لرجال القبائل البدو الذين رفضوا الاعتمار مع محمد (ﷺ) دوافع سياسية أكثر منها دينية للالتزام بالإسلام. لم يكن الإسلام، من البداية، وحدة واحدة.

ليس هناك ما يدعو للاندهاش من ذلك النقص فى الوحدة. ففى الأناجيل، يظهر حواريو المسيح بلداء وغير مبصرين للمعنى العميق لمهمته.

الشخصيات النموذجية عادة ما تسبق عصرها ومعاصريها، فيتخلفوا عن فهمها. أما بعد موتها، فيتفرق أتباعها، كما انقسم البوذيون بعد وفاة بوذا إلى مدرستين. كذلك حدث فى الإسلام، والصدع الذى أصاب الأمة فى حياة محمد (ﷺ)، أصبح أكبر بعد وفاته. اعتقد كثير من البدو الذين لم يستوعبوا تماماً رسالة القرآن، اعتقدوا أن الإسلام انتهى بموت محمد (ﷺ)، شعروا أنهم أحرار فى الانسحاب من الأمة الإسلامية، بالطريقة نفسها التى ينسلخون بها من أى معاهدة بعد موت زعيم القبيلة.

بعد موت النبى (ﷺ)، انتخب المسلمون أربعة خلفاء: أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليّا، وسماهم الناس «الخلفاء الراشدين». وشن الخلفاء حروب غزو خارج الجزيرة العربية، ولكن لم يكن لها فحوى دينية، وقد سلك الخلفاء الراشدون فى ذلك سبل رجال الدولة، فاستجابوا للفرصة السياسية التى أتاحها تفكك الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، أكثر من أن يكونوا اتبعوا فى تلك الفتوحات أوامر قرآنية.

أعطيت لاحقّا الحروب الأهلية التى أسفرت عن اغتيال عمر وعثمان وعلى والحسين صبغة دينية، برغم أنها كانت فى المقام الأول نتائج جانبية للتحول السريع والخارق للعادة لبلاد العرب من الحالة الهامشية إلى حالة القوة العظمى الرئيسية فى عالم ذلك الزمان.

كانت استجابة المسلمين لذلك أكثر إدهاشًا من الاضطرابات السياسية نفسها . لقد نضج فهمهم للقرآن عندما درسوا تلك الأحداث المأساوية . كمنت جذور تطور كل دين - وينطبق ذلك حرفيًا على الإسلام - فى رغبته فى العودة إلى الرؤية الأصلية لنبيه . انزعج الكثير من المسلمين من حياة الترف التى عاشها الخلفاء المتأخرون، وحاولوا العودة إلى الرؤية الصارمة الأولى للأمة . أثار المتصوفون وعلماء الكلام والمؤرخون والفقهاء أسئلة مهمة . كيف يمكن لمجتمع قتل قادته المخلصين أن يزعم أنه يسير فى هدى الله؟ أى نوع من الرجال عليه أن يقود الأمة؟ هل يمكن للحكام الذين ينعمون بمثل تلك الحياة المسرفة - بينما يغضون النظر عن فقر معظم أفراد الأمة - هل يمكن أن يكونوا مسلمين حقًا؟ .

لعبت تلك المجادلات حول القيادة السياسية للأمة الإسلامية دورًا فى الإسلام مشابهًا للمجادلات اللاهوتية عن طبيعة المسيح التى مرت بها المسيحية فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين . وقد أسهمت روح الزهد الصوفى فى ذلك السخط العام على بذخ الحكام، وأدار الصوفيون ظهورهم للبلاط وحاولوا العيش فى خشونة مثلما عاش النبى (ﷺ)، وطوروا نموذجًا صوفيًا من رحلة المعراج . واعتقد الشيعة بوجوب تولى على وأبنائه من بعده الخلافة، فهم وحدهم ورثوا النعمة الإلهية فى النبى . طور الشيعة مذهبًا معارضًا للظلم الاجتماعى، وحاولوا العودة إلى روح المساواة القرآنية . وعندما نظرت تلك الحركات وغيرها إلى شخصية محمد (ﷺ) العملاقة، نحت بالرؤية القرآنية فى اتجاهات جديدة تمامًا، وأظهرت أن الوحى الأصلى يتمتع بالمرونة اللازمة لأى حركة عالمية للاستجابة للظروف والأحوال المستجدة .

منذ البداية الأولى، اعتبر المسلمون نبيهم مرجعًا فى تقييم ساستهم، وروحانية الأمة .

يحتاج زماننا إلى روح نقدية . يعتبر بعض المفكرين المسلمين أن ذروة مهمة محمد (ﷺ) هى جهاده ضد مكة، ويقصرون عن رؤية شجبه لأعمال الحرب، وتبنيه لسياسة اللاعنف .

كذلك يصر النقاد الغربيون على رؤية محمد (ﷺ) كرجل حرب، ويقصرون عن رؤية معارضته، منذ البداية، لروح التكبر والأنانية الجاهلية، التى أسفرت عن العدوان على الآخرين، ليس فقط فى عصره، ولكنها ما زالت متقمصة بعض قادة الغرب،

وقادة المسلمين على حد سواء. الآن يتحول النبى (ﷺ) - الذى كان هدفه السلام والتراحم - إلى رمز للفرقة والنزاع، فى تطور ليس فقط مأساويًا، ولكنه أيضًا خطير على الاستقرار الذى يعتمد عليه مستقبل البشر.

فى نهاية محاولتى الأولى لكتابة سيرة محمد (ﷺ) نقلت كلمات المعانى التى أبصرها العالم الكندى ويلفريد كانتويل سميث، حين كتب فى منتصف القرن العشرين قبيل أزمة قناة السويس(*)، ملاحظًا أن التطبيق الصحى للإسلام، ساعد المسلمين لعدة قرون على التمتع بقيم جديرة بالاحترام، بالمشاركة مع الغرب؛ لأن تلك القيم تنبع من تقاليد مشتركة.

لدى بعض المسلمين مشاكل مع الحداثة الغربية، فانقلبوا ضد ثقافات أهل الكتاب، بل وبدءوا فى أسلمة كراهيتهم الجديدة للمعتقدات الدينية الشقيقة، برغم أن القرآن قد صدق عليها بقوة. وحاجج كانتويل سميث بأنه إذا أراد المسلمون مقابلة تحديات العصر، فعليهم أن يتعلموا أن يفهموا تقاليدنا ومؤسساتنا الغربية؛ لأنها لن تختفى، وإذا لم تقم المجتمعات الإسلامية بذلك، فسترسب فى اختبار القرن العشرين. ولكنه أشار أيضًا إلى أن الغرب لديه مشكلة «عدم قدرته على إدراك أن يتشارك الكوكب مع آخرين، ليسوا أقل، ولكن مساوين».

> ما لم تتعلم الحضارة الغربية، ثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا، وتتعلم الكنيسة المسيحية، لاهوتيًا، أن تعامل الآخرين باحترام، بشكل رئيسى، فسيفشل كلٌ منهما فى التوافق مع القرن العشرين. ومشاكل ذلك [فى المسيحية] عويصة بقدر ما لمسناه فى الإسلام(٥٢).

أظهر التاريخ القصير للقرن الواحد والعشرين أن كلا الجانبين لم يتقن الدرس، وإذا تعين علينا اجتناب الكارثة، فعلى المسلمين وعلى العالم الغربى أن يتعلموا، ليس فقط التسامح مع الآخر، بل تقديره. ونقطة انطلاق طيبة هى شخصية محمد (ﷺ): رجل مركب، يعصى على التصنيف الأيديولوچى، أتى أحيانًا ببعض الأعمال التى يصعب أو يستحيل علينا قبولها، ولكنه ذو عبقرية أصيلة، وأسس دينًا، وتقاليد ثقافية، ليس على السيف، ولكن على السلام، كما يعنى اسم الدين، وعلى التصالح.

(*) العدوان الثلاثى: الإنجليزى والفرنسى والإسرائيلى على مصر عام ١٩٥٦م.

الهوامش

هوامش الفصل الأول: مكة

1. Tor Andrae, *Muhammad: The Man and His Faith,* trans. Theophil Menzel (London, 1936), 59.
2. Quoted in R. A. Nicholson, *A Literary History of the Arabs* (Cambridge, 1953), 83.
3. Toshihiko Izutsu, *Ethico-Religious Concepts in the Qur'an* (Montreal and Kingston, ON, 2002), 46.
4. Ibid., 63.
5. Labid ibn 'Rabi'ah, *Mu'allaqah,* 5.81, in Izutsu, *Ethico-Religious Concepts,* 63; cf. Qur'an 2:170, 43:22–24.
6. Izutsu, *Ethico-Religious Concepts,* 72.
7. Ibid., 29.

8. Zuhayr ibn 'Abi Salma, verses 38–39 in Izutsu, *Ethico-Religious Concepts*, 84.
9. Nicholson, *Literary History*, 93.
10. Mohammad A. Bamyeh, *The Social Origins of Islam: Mind, Economy, Discourse* (Minneapolis, 1999), 17–20.
11. Ibid., 30.
12. Ibid., 11–12.
13. Ibid., 38.
14. Qur'an 105.
15. Johannes Sloek, *Devotional Language*, trans. Henrick Mossin (Berlin and New York, 1996), 89–90.
16. Bamyeh, *Social Origins of Islam*, 32.
17. Ibid., 43.
18. Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah*, 120, in A. Guillaume, trans., *The Life of Muhammad: A Translation of Ishaq's* Sirat Rasul Allah (London, 1955); cf. Leila Ahmed, *Women and Gender in Islam* (New Haven and London, 1992), 42.
19. Ibid., 155, Guillaume translation.
20. Qur'an 103:2–3.
21. Qur'an 6:70, 7:51.
22. Wilhelm Schmidt, *The Origin of the Idea of God* (New York, 1912), *passim*.
23. Qur'an 10:22–24, 24:61, 63, 39:38, 43:87, 106:1–3.
24. Izutsu, *God and Man in the Koran, Semantics of the Koranic Weltanschauung* (Tokyo, 1964), 93–101, 124–129.

25. F. E. Peters, *The Hajj: The Muslim Pilgrimage to Mecca and the Holy Places* (Princeton, 1994), 24–27.
26. Ibn al-Kalbi, *The Book of Idols* in Peters, *Hajj*, 29.
27. Bamyeh, *Social Origins of Islam*, 22–24.
28. Ibid., 79–80; Reza Aslan, *No god but God, The Origins, Evolution, and Future of Islam* (New York and London, 2005), 9–13.
29. Genesis 16.
30. Flavius Josephus, *The Antiquities of the Jews*, 1.12.2.
31. Bamyeh, *Social Origins of Islam*, 25–27.
32. Psalm 135:5.
33. Bamyeh, *Social Origins of Islam*, 89–144; Aslan, *No god but God*, 13–15; Izutsu, *God and Man*, 107–18.
34. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah*, 143, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
35. Ibid., 145, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
36. Peters, *Hajj*, 39–40.
37. Izutsu, *God and Man*, 148.
38. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah*, 151, in Guillaume, *Life of Muhammad*, 105.
39. Qur'an 96 in Michael Sells, ed. and trans., *Approaching the Qur'an: The Early Revelations* (Ashland, OR, 1999). Muhammad Asad translates lines 6–8: "Verily man becomes grossly overweening whenever he believes himself to be self-sufficient: for, behold, unto thy Sustainer all must return."
40. Qur'an 53:5–9, Sells translation.

41. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 153, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
42. Ibid.
43. Ibid., 154.
44. Qur'an 21:91, 19:16–27. Sells, *Approaching the Qur'an,* 187–93.
45. Qur'an 97, Sells translation.
46. Rudolf Otto, *The Idea of the Holy: An Inquiry into the Non Rational Factor in the Idea of the Divine and its relation to the rational,* trans. John W. Harvey, 2nd ed., (London, Oxford and New York, 1950), 12–40.
47. Qur'an 93, Sells translation.

هوامش الفصل الثانى : الجاهلية

1. This was noted by the seventh century Meccan historian Ibn Shifan al-Zuhri, who is quoted in W. Montgomery Watt, *Muhammad at Mecca* (Oxford, 1953), 87.
2. Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 161, in A. Guillaume, trans. and ed., *The Life of Muhammad: A Translation of Ishaq's* Sirat Rasul Allah (London, 1955), 115.
3. Muhammad ibn Sa'd, *Kitab al-Tabaqat al-Kabir,* 4.1.68, in Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London, 1983), 47.
4. Ibn Sa'd, 3.1.37, *Kitab at-Tabaqat,* in Lings, *Muhammad,* 47.
5. Qur'an 27:45–46, 28:4.
6. Jalal al-Din Suyuti, *al-itqan fi'ulum al-aq'ran,* quoted in Maxime

Rodinson, *Mohammed*, trans. Anne Carter (London, 1971), 74.

7. Bukhari, *Hadith* 1.3, in Lings, *Muhammad*, 44–45.
8. Qur'an 20:114, 75:16–18.
9. Michael Sells, ed. and trans., *Approaching the Qur'an: The Early Revelations* (Ashland, OR, 1999), xvi.
10. Sells, *Approaching the Qur'an*, 183–84.
11. Mircea Eliade, *Yoga: Immorality and Freedom*, trans. Willard Trask (London, 1958), 56.
12. Sells, *Approaching the Qur'an*, 183–204. See also Qur'an 81:8–9.
13. See Qur'an 82:17–18, 83:8–9, 19.
14. Sells, *Approaching the Qur'an*, xliii.
15. Qur'an 81:1–6, 14, in Sells, *Approaching the Qur'an.*
16. Qur'an 99:6–9, Sells translation.
17. Qur'an 90:13–16, Sells translation.
18. Qur'an 81:26, Sells translation.
19. Qur'an 88:21–22.
20. Qur'an 88:17–20, Sells translation.
21. Watt, *Muhammad at Mecca*, 68.
22. Qur'an 26:214.
23. Qur'an 17:26–27.
24. Abu Ja'rir at-Tabari, *Ta'rikh ar-Rasul wa'l Muluk*, 1171 in Guillaume, *Life of Muhammad*, 117–118.
25. Qur'an 83:4, 37:12–19.
26. Qur'an 45:23, 36:77–83.
27. Qur'an 83:10–12.

28. Qur'an 6:108, 27:45, 10:71–72. Mohammed A. Bamyeh, *The Social Origins of Islam, Mind, Economy, Discourse* (Minneapolis, 1999), 180–184.
29. Qur'an 10:72.
30. Wilfred Cantwell Smith, *Faith and Belief* (Princeton, 1979), 44–46; Toshihiko Izutsu, *Ethico-Religious Concepts in the Qur'an* (Montreal and Kingston, ON, 2002), 132–133.
31. Tor Andrae, *Muhammad: The Man and His Faith,* trans. Theophil Menzel (London: 1936), 22–35; W. Montgomery Watt, *Muhammad's Mecca: History in the Qur'an* (Edinburgh, 1988), 69–73; Watt, *Muhammad at Mecca,* 103–109; Bamyeh, *Social Origins of Islam,* 208–9.
32. Ibn Sa'd, *Kitab at-Tabaqat* 8i, 137, in Bamyeh, *Social Origins of Islam,* 208.
33. Tabari, *Ta'rikh ar-Rasul,* 1192, in Guillaume, *Life of Muhammad,* 165.
34. Qur'an 53:12.
35. Qur'an 53:26.
36. Tabari, *Ta'rikh ar-Rasul,* 1192, in Guillaume, *Life of Muhammad,* 166.
37. Ibn Sa'd, *Kitab at-Tabaqat,* 137, in Andrae, *Muhammad,* 22.
38. Tabari, *Ta'rikh ar-Rasul,* 1192, in Guillaume, *Life of Muhammad,* 166.
39. Qur'an 22:52.
40. Qur'an 53:19–23, in Muhammad Asad, trans. and ed., *The Message of the Qur'an* (Gibraltar, 1980).

41. Qur'an 39:23, translation by Izutsu, *Ethico-Religious Concepts,* 197.
42. Qur'an 59:21, Asad translation.
43. Qur'an 29:17, 10:18, 39:43.
44. Qur'an 112, Sells translation.
45. Reza Aslan, *No god but God: The Origins, Evolution and Future of Islam* (London and New York, 2005), 43–46.
46. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 167–8, in Guillaume, *Life of Muhammad,* 119.
47. Qur'an 17:46, 39:45.
48. Qur'an 38:6.
49. Qur'an 38:4–5.
50. Qur'an 41:6.
51. Qur'an 80:1–10.
52. Izutsu, *Ethico-Religious Concepts,* 66; Cantwell Smith, *Faith and Belief,* 39–40.
53. Qur'an 29:61–63, 2:89, 27:14.
54. Qur'an 17:23–24, 46:15. Asad translation.
55. Izutsu, *Ethico-Religious Concepts,* 127–57.
56. Qur'an 7:75–76, 39:59, 31:17–18, 23:45–47, 38:71–75.
57. Qur'an 15:94–96, 21:36, 18:106, 40:4–5, 68:56, 22:8–9.
58. Qur'an 41:3–5, 83:14, 2:6–7.
59. Izutsu, *Ethico-Religious Concepts,* 28–45.
60. Ibid., 28.
61. Ibid., 68–69, Qur'an 14:47, 39:37, 15:79, 30:47, 44:16.
62. Qur'an 90:13–17.

63. Qur'an 25:63, Asad translation.
64. Qur'an 111. This is the only occasion when the Qur'an mentions one of Muhammad's enemies by name.
65. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah*, 183–4 in Guillaume, *Life of Muhammad*, 130–31.
66. Ibid., in Guillaume, *Life of Muhammad*, 132.
67. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah*, 227, in Guillaume, *Life of Muhammad*, 157.
68. Ibid., 228, in Guillaume, *Life of Muhammad*, 158.
69. Aslan, *No god but God*, 46.
70. Qur'an 11:100.
71. Qur'an 2:100, 13:37, 16:101, 17:41, 17:86.
72. Qur'an 109, Sells translation.
73. Qur'an 2:256, Asad translation.

هوامش الفصل الثالث : الهجرة

1. Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah*, 278, in A. Guillaume, trans. and ed., *The Life of Muhammad* (London, 1955), 169–70.
2. Ibid., 280, in Guillaume, *Life of Muhammad*, 193.
3. Qur'an 46:29–32, 72:1, in Muhammad Asad, trans. and ed., *The Message of the Qur'an* (Gibraltar, 1980). This is Asad's explanation of this incident, given in the textual notes that accompany this passage, which he admits is tentative.
4. Qur'an 17:1, Asad translation.
5. Muhammad ibn Jarir at-Tabari, *Ta'rikh ar Rasul wa'l Muluk*,

2210, Muhammad A. Bamyeh, *The Social Origins of Islam: Mind, Economy, Discourse* (Minneapolis, 1999), 144–45.

6. Qur'an 53:15–18 in Michael Sells, trans. and ed., *Approaching the Qur'an; The Early Revelations* (Ashland, OR, 1999).
7. Sells, ibid., xvii–xviii.
8. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah*, 271, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
9. Qur'an 3:84, cf. 2:136, Asad translation.
10. Toshihiko Izutsu, *Ethico-Religious Concepts in the Qur'an* (Montreal and Kingston, ON, 2002), 189.
11. Qur'an 3:85, Asad translation.
12. Qur'an 12:111.
13. Qur'an 5:69, Asad translation.
14. Qur'an 5:48, Asad translation.
15. Qur'an 24:35, Asad translation.
16. Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London: Islamic Society Texts, 1983), 57, 105–111; W. Montgomery Watt, *Muhammad at Mecca* (Oxford, 1953), 141–49; Watt, *Muhammad at Medina* (Oxford, 1956), 173–231.
17. Reza Aslan, *No god but God: The Origins, Evolution and Future of Islam* (London and New York, 2005), 54; Gordon Newby, *A History of the Jews in Arabia* (Columbia, SC, 1988), 75–79, 84–85; Moshe Gil, "Origin of the Jews of Yathrib," *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* (1984).
18. Muhammad ibn 'Umar al-Waqidi, *Kitab al-Maghazi* in Aslan, *No god but God*, 54.

19. Ibn Ishaq, 287, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
20. Ibid., 289, in Bamyeh, *Social Origins of Islam,* 153–54.
21. Ibid., 291–2, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
22. Bamyeh, *Social Origins of Islam,* 153–3.
23. Qur'an 5:5–7; cf. Acts of Apostles 15:19–21, 29.
24. Qur'an 10:47.
25. Qur'an 8:30, 27:48–51.
26. Qur'an 60:1, 47–13.
27. W. Montgomery Watt, *Muhammad's Mecca: History of the Qur'an* (Edinburgh, 1988), 101–6; *Muhammad at Mecca,* 149–51.
28. Watt, *Muhammad's Mecca,* 25.
29. Izutsu, *Ethico-Religious Concepts,* 56.
30. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 297, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
31. Ibid., 304–5, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
32. Bamyeh, *Social Origins of Islam,* 216–217.
33. Aslan, *No god but God,* 56–59.
34. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* in Guillaume, *Life of Muhammad.*
35. Qur'an 9:40.
36. Clinton Bennet, "Islam," in Jean Holm with John Bowker, eds, *Sacred Place* (London, 1994), 88–89; Fatima Mernissi, *Women and Islam: An Historical and Theological Enquiry,* trans. Mary Jo Lakeland (Oxford, 1991), 106–108.
37. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 247, in Guillaume, *Life of Muhammad,* 236.
38. Ibid., 414, in Guillaume, *Life of Muhammad.*

39. Bamyeh, *Social Origins of Islam,* 218.
40. Qur'an 8:72–73, Asad translation.
41. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 341, in Guillaume, *Life of Muhammad,* 232.
42. Qur'an 43:37–43, Asad translation.
43. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 386, translation in Izutsu, *Ethico-Religious Concepts,* 29.
44. Qur'an 4:137, Asad translation.
45. Qur'an 2:8–15, Asad translation.
46. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 341, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
47. Watt, *Muhammad at Medina,* 201–2.
48. D. S. Margoliouth, *The Relations between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam* (London, 1924); Salo Wittmayer Baron, *A Social and Religious History of the Jews* (New York: Columbia University Press, 1964), 3:261; Hannah Rahman, "The Conflict between the Prophet and the Opposition in Medina," *Der Islam* (1985); Moshe Gil, "The Medinan Opposition to the Prophet," *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* (1987).
49. S. N. Goitein, *Jews and Arabs* (New York, 1960), 63; Newby, *History of the Jews,* 78–90; Aslan, *No god but God,* 97–98.
50. David J. Helperin, "The Ibn Sayyad Traditions and the Legend of al-Dajjal," *Journal of the American Oriental Society* (1976).
51. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah.,* 362, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
52. Qur'an 6:151.

53. Qur'an 2:111–113, 120.
54. Qur'an 2:116, 19:88–92, 10:68, 5:73–77, 116–118.
55. Qur'an 5:73.
56. Qur'an 3:115, Asad translation.
57. Qur'an 2:67–68, Asad translation.
58. Qur'an 3:65.
59. Qur'an 3:67, in Arthur J. Arberry, trans. and ed., *The Koran Interpreted* (Oxford, 1964).
60. Qur'an 6:159, Asad translation.
61. Qur'an 6:161–3.
62. Qur'an 2:144, Asad translation.
63. Qur'an 2:150, Asad translation.

هوامش الفصل الرابع : الجهاد

1. Muhammad A. Bamyeh, *The Social Origins of Islam: Mind, Economy, Discourse* (Minneapolis, 1999), 198.
2. W. Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (Oxford, 1956), 2–5.
3. Qur'an 2:216.
4. Qur'an 22:36–40, in Muhammad Asad, trans., *The Message of the Qur'an* (Gibraltar, 1980).
5. Qur'an 2:190.
6. Watt, *Muhammad at Medina,* 6–8; Bamyeh, *Social Origins of Islam,* 198–99; Marshall G. S. Hodgson, *The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization,* 3 vols (Chicago

and London, 1974), 1:175–76; Tor Andrae, *Muhammad: The Man and His Faith,* trans. Theophil Menzel (London, 1936), 195–201.

7. Qur'an 2:217, Asad translation.
8. Bamyeh, *Social Origins of Islam,* 200, 231; Andrae, *Muhammad,* 203–6; Watt, *Muhammad at Medina,* 11–20; Martin Lings, *Mohammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London, 1983), 138–59.
9. Muhammad Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 435, in A. Guillaume, trans. and ed., *The Life of Muhammad: A Translation of Ishaq's* Sirat Rasul Allah (London, 1955).
10. Ibid.
11. Qur'an 8:5–9.
12. Muhammad Ibn Jarir at-Tabari, *Ta'rikh ar-Rasul wa'l Muluk,* in Fatima Mernissi, *Women in Islam: An Historical and Theological Enquiry,* trans. Mary Jo Lakeland (Oxford, 1991), 90.
13. Qur'an 8:8.
14. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 442, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
15. Qur'an 47:5.
16. Qur'an 3:147–48, 8:16–17, 61:5.
17. Qur'an 2:193–194.
18. Qur'an 8:62–63.
19. Qur'an 5:45, Asad translation.
20. Qur'an 4:90.
21. Reza Aslan, *No god but God: The Origins, Evolution and Future*

of Islam (New York and London, 2005), 89–90; Watt, *Muhammad at Medina,* 225–43.

22. Nabia Abbott, *Aishah, the Beloved of Muhammad* (Chicago, 1992), 67.
23. Mernissi, *Women and Islam,* 106–11.
24. Muhammad al-Bukhari, *Al-Sahih* (Beirut, 1978); Mernissi, *Women and Islam,* 142–3; Leila Ahmed, *Women and Gender in Islam* (New Haven and London, 1992), 52–53.
25. Ibn Ishaq, *Sirat Raszul Allah,* 543, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
26. Aslan, *No god but God,* 89–90; Lings, *Muhammad,* 160–62; Andrae, *Muhammad,* 207; Watt, *Muhammad at Medina,* 190–210.
27. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 296, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
28. M. J. Kister, "Al-Hira: Some Notes on its Relations with Arabia," *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 6 (1985).
29. Lings, *Muhammad,* 170–97; Andrae, *Muhammad,* 210–2213; Watt, *Muhammad at Medina,* 20–30.
30. Ibn Ishaq, 717, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
31. Qur'an 4:3–3, Asad translation.
32. Watt, *Muhammad at Medina,* 272–83, 289–93; cf. Ahmed, *Women and Gender in Islam,* 43–44, 52.
33. Mernissi, *Women and Islam,* 123, 182.
34. Qur'an 24:33, in Arthur J. Arberry, *The Koran Intepreted* (Oxford, 1964).

35. Mernissi, *Women and Islam*, 162–3; Ahmed, *Women and Gender in Islam*, 53.
36. Lings, *Muhammad*, 203–4; Watt, *Muhammad at Medina*, 185, 211–17; Aslan, *No god but God*, 90–91; Bamyeh, *Social Origins of Islam*, 201–2.
37. Lings, *Muhammad*, 207–8.
38. Qur'an 24:53, 32:29, 47:35, 46. Watt, *Muhammad at Medina*, 231–4.
39. Qur'an 4:102; Lings, *Muhammad*, 208–10; Mernissi, *Women and Islam*, 163–7.
40. Lings, *Muhammad*, 21–212; Mernissi, *Women and Islam*, 153–4, 172.
41. Qur'an 49:2, 4–5.
42. Muhammad ibn Sa'd, *Tabaqat al-kubra* (Beirut, n.d.), 8:174; Mernissi, *Women and Islam*, 172.
43. Lings, *Muhammad*, 107–8; Mernissi, *Women and Islam*, 174.
44. Tabari, *Tafsir* (Cairo, n.d.), 22:10; Mernissi, *Women and Islam*, 115–31. In some versions, all Muhammad's wives, not simply Umm Salamah, take the initiative.
45. Qur'an 33:35.
46. Qur'an 4:37.
47. Qur'an 4:23.
48. Qur'an 2:225–240, 65:1–70.
49. Tabari, *Tafsir*, 9:235; Mernissi, *Women and Islam*, 131–32; Ahmed, *Women and Gender in Islam*, 53.
50. Qur'an 4:19.
51. Tabari, *Tafsir*, 8:261; Mernissi, *Women and Islam*, 132.

52. Mernissi, *Women and Islam*, 154–59.
53. Ibn Sa'd, *Tabaqat*, 8:205.
54. Ibid.
55. Qur'an 4:34.
56. Ibn Sa'd, *Tabaqat*, 8:204.
57. Lings, *Muhammad*, 215–30; Watt, *Muhammad at Medina*, 36–58; Mernissi, *Women and Islam*, 168–70.
58. Ibn Ishaq, 677, in Guillaume, *Life of Muhammad*.
59. Qur'an 33:12.
60. Qur'an 33:10–11.
61. Ibn Ishaq, 683, in Guillaume, *Life of Muhammad*.
62. Ibid., 689.
63. Aslan, *No god but God*, 91–98; Norman A. Stillman, *The Jews of Arab Lands* (Philadelphia, 1979).
64. Qur'an 29:46, Asad translation.

هوامش الفصل الخامس : السلام

1. Muhammad ibn 'Umar al-Waqidi, *Kitab al-Maghazi*, 488–490, in Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London, 1983), 227.
2. Fatima Mernissi, *Women and Islam: An Historical and Theological Enquiry*, trans. Mary Jo Lakeland (Oxford, 1991), 17–172.
3. Qur'an 33:51, 63.
4. Qur'an 33:59–60.
5. Lings, *Muhammad*, 212–214; Tor Andrae, *Muhammad: The*

Man and His Faith, trans. Theophil Menzil (London, 1936), 215–16.

6. Qur'an 33:36–40.
7. Qur'an 33:53, in Muhammad Asad, trans., *The Message of the Qur'an* (Gibraltar, 1980).
8. Qur'an 33:53, 59.
9. Mernissi, *Women and Islam,* 88–191; Leila Ahmed, *Women and Gender in Islam* (New Haven and London, 1992), 53–57.
10. Mernissi, *Women and Islam,* 177–78; Lings, *Muhammad,* 235–45; W. Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (Oxford, 1956), 185–86; Ahmed, *Women and Gender in Islam,* 51.
11. Muhammad Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 726, in A. Guillaume, trans. and ed., *The Life of Muhammad: A Translation of Ishaq's* Sirat Rasul Allah (London, 1955).
12. Qur'an 12:18, Asad translation.
13. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 735, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
14. Qur'an 24:11.
15. Lings, *Muhammad,* 247–55; Andrae, *Muhammad,* 219–27; Watt, *Muhammad at Medina,* 46–59, 234–35; Mohammad A. Bamyeh, *The Social Origins of Islam, Mind, Economy, Discourse* (Minneapolis, 1999), 222–27.
16. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 748, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
17. Ibid., 741.
18. Ibid., 743.

19. Ibid.
20. Ibid., 745.
21. Watt, *Muhammad at Medina*, 50.
22. Qur'an 2:193.
23. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah*, 748, in Guillaume, *Life of Muhammad*.
24. Ibid., 747.
25. Bamyeh, *Social Origins of Islam*, 226–27.
26. Mernissi, *Women in Islam*, 184–86.
27. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah*, 747, in Guillaume, *Life of Muhammad*.
28. Ibid., 748.
29. Lings, *Muhammad*, 254.
30. Ibid., 255.
31. Qur'an 48:26, translation by Toshihiko Izutsu, *Ethico-Religious Concepts in the Qur'an* (Montreal and Kingston, ON, 2002), 31.
32. Qur'an 48:29, in Arthur J. Arberry, *The Koran Interpreted* (Oxford, 1964).
33. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah*, 751, in Guillaume, *Life of Muhammad*.
34. Qur'an 110, in Michael Sells, ed. and trans., *Approaching the Qur'an, The Early Revelations* (Ashland, OR, 1999).
35. Ibn Sa'd, *Kitab al-Tabaqat al-Kabir*, 7:147, in Lings, *Muhammad*, 271.
36. Lings, *Muhammad*, 282.

37. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 717, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
38. Qur'an 17:82, Arberry translation.
39. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 821, in Asad, *Message of the Qur'an,* 794.
40. Qur'an 49:13, Asad translation.
41. Abu Ja'far at-Tabari, *Tariq ar-Rasul wa'-Muluk,* 1642, in Guillaume, *Life of Muhammad,* 553.
42. Lings, *Muhammad,* 311.
43. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 886, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
44. Bamyeh, *Social Origins of Islam,* 227–29.
45. Waqidi, 837–38, in Bamyeh, *Social Origins of Islam,* 228.
46. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 969, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
47. Ibid., 1006.
48. Ibid., 1006.
49. Ibid., 1012.
50. Qur'an 3:144, Arberry translation.
51. Ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* 1013, in Guillaume, *Life of Muhammad.*
52. Wilfred Cantwell Smith, *Islam in Modern History* (Princeton and London, 1957), 305.

هذا الكتاب

فى نهاية العقد التاسع من القرن العشرين، انهار الاتحاد السوفييتى، وانهارت معه الشيوعية فى العالم، ولم يعد هناك سوى خمس أيديولوجيات عالمية رئيسية .. الرأسمالية بسوقها الحر واقتصادها المفتوح، واليمين المسيحى، وهما عنصران أساسيان فيما يسمى بصورة فضفاضة: الدين الأمريكى، ثم الصهيونية واليهود العالميين، وعلمانية أوروبا العنصرية، وأخيرًا الإسلام .

وإذا كان من الصعب تجنب اصطدام الصهيونية واليهود العالميين بالإسلام، فالقضية مختلفة مع الدين الأمريكى، ولكنها تحتاج لعمل شاق متنور عميق، وتخطيط قصير وطويل المدى، لتجنب الاصطدام، ناهيك عن تحقيق التناغم والانسجام، خاصة أنه فى بعض المجالات، تختفى الحدود الفاصلة بين الصهيونية واليهود العالميين من ناحية، والدين الأمريكى من الناحية الأخرى .

بدأ الإعلام العالمى، وهو إحدى مؤسسات الرأسمالية واليمين المسيحى والصهيونية واليهود العالميين، فى تركيز هجومه على الإسلام منذ العقد الأخير من القرن الماضى .. وسبقته فى ذلك مؤسسة الاستشراق الحديثة منذ قرنين أو ثلاثة، وهى إحدى مؤسسات التبشير والاستعمار .

ولكن لم يعدم العالم الغربى أصواتًا تميل للعقل والإنصاف، سواء كان ذلك بدرجة كبيرة أو قليلة، أحدها صوت كارين أرمسترونج .

نشأت كارين أرمسترونج راهبة كاثوليكية إنجليزية، ثم تعمقت فى
وأديانه وثقافاته وتاريخه . منذ بضع سنوات، هالتها الصورة النمطية المشوهة
التى تربى عليها الغرب منذ الحروب الصليبية، فوضعت كتاب «حياة مح
أحداث ٢٠٠١/٩/١١م، وضعت كتابها الحالى: «محمد نبى لزماننا» .

تشمل مؤلفاتها الأخرى: القدس ـ تاريخ الله (تاريخ الأديان الكتابية) ـ الحرب
ـ مقاتلو الله: الأصولية فى اليهودية والمسيحية والإسلام .

عادل المعلم

